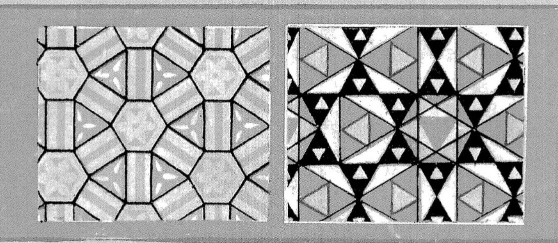
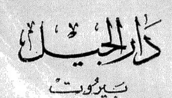
صابر طعيمة

المعرفة في منهج القرآن الكريم

دراسة في الدعوة والدعاة





إهــــــداء 2005

أ.د./ محمد عرفان بيومي

القاهرة

المعرفة في منهج القرآن الكريم

صابر طعيمة

المعرفة في منهج القرآن الكريم

دراسة في الدعوة والدعاة

دار الجيل
بيروت

إهـــداء

الى كل الشرفـــاء الذين يدركون ان اخطـــار
محدقة بالعروبـــة والاسلام ويبذلـــون
جهدهم للحيلولة دون هذا البلاء .

مُقَدّمَة

هذا الكتاب «المعرفة في منهج القرآن الكريم» يستهدف في محاولة نبتغي بها وجه الله تعالى تقديم بعض قضايا الانسان في مجالات السياسة والاخلاق والاجتماع التي عالجها الاسلام على ضوء من هدى الكتاب الكريم .

وفي خضم التناقضات التي فجرها العصر الحديث والتي رأينا فيها الانسانية تفقد بالعدوان على مقوماتها روح الفطرة وتنحرف عن قيم الحق والعدل الى ممارسة الاستغلال واقامة علاقات القهر والبطش في ظل لغة مستحدثة هي بنت الشيطان ، رأينا ان نقدم بعض القضايا التي عالجها الاسلام على ضوء من هدى الكتاب الكريم .

ولقد بذلنا ما نقدر عليه في جمع المادة العلمية لهذا الكتاب ، من خلال المصادر التي حاولت في صدق خدمة الكتاب الكريم والعمل على ان تقترب من هديه وروحه ، ومن هنا خصصنا بعض بحوث هذا الكتاب للكشف عن طبيعة الحياة في الاسلام على ضوء ابراز الانماط والاساليب التي يوائم بها الانسان بين ما هو أرض في حياة الانسان ، وما يتفق مع غايات استخلاف الله الانسان في الارض ومن هنا رأينا القيم الانسانية في هذا الدين تتسق ومقومات الفطرة في الانسان الامر الذي بدا لنا من خلال الكشف عن روح الحياة في فطرتها وتعاليم الاسلام في جوهرها ان

ثمة علاقة عضوية بين روح الحياة وتعاليم الاسلام كانت التوجيهـــات الاسلامية في مجالات الامر والنهي والضبط بمثابة التصحيح لما يمكن ان يعترض المسار الانساني كأثر من اثار الاحتكاك الغريزي في الواقـــع المـــادي وتوجيهات السماء ، وكانت هذه الزاوية من جانب التفكيـــر الاسلامي هي التي جعلتنا نخصص بحثا يعالج الاسس النفسية في الفرد لربطه بالجماعة حتى يستقيم السلوك ويتحقق الهدف للانسان على الارض.

ولما كانت تقديرات القرآن الكريم للنهج الانساني ان ثمة مفارقات تحول بينه وبين هدفه المرسوم فانا قد عرضنا لمنهج القرآن في التربيـــة النفسيـــة للجهاد الذي يشمل في التقدير القرآني علاقة الفرد بنفســـه ومقوماته وبيئته ومجتمعه بل والكون من حوله بالبذل والعطاء .

ولذا كان علينا ان نتعرض لبعض جوانب التفلسف الفكري التـــي خاضها الانسان في العصر الحديث ، فرحنا نحاول ان نتعرف على معيـــار النظرة القرآنية للانسان في هذا الكون الرحيب لنرى في النهاية ان منهج القرآن في النظر لما بين الاشياء من علاقة ، وما بين الفكر الذي هو ادراك انساني محض ينسجم في النهاية بتحديد الحدود المقومات الفاصلة بـــين خواص الفعل والكون الطبيعي سواء في مجـــال المحسات أو الادراك الحسي ، وما يتعلق بها جميعا من دلالات .

ولما كان ارتباطنا في هذا العطاء الفكري مرتبطا بمنهج قرآني فاننا قد رحنا ندلل على اهمية العقيدة الدينية في زحام القرن العشرين لنكشف عن المعطيات الجوهرية والنقية للعوامل المؤثرة في تكوين العقيدة بالمنهج القرآنـــي محددين به دلالات العقيدة والمعرفة والعلم عند الاقدمـــين والمعاصرين ، وكانت خاتمة المطاف لنا محاولة الكشف عن القوى العائقة

التي تقف متربصة بالعروبة وعاء الاسلام ومسرحه لتحـول بين الحضارة العربية ومنطلقاتها في خدمة الاسلام ومنطلقاته بروح العصر .

لذا .. فاننا قد حرصنا على ان نقدم بعض حياة رسول الله صلـى الله عليه وسلم ، باعتباره الانموذج الاعلى للسلوك الانساني مضيفـين الى هذا الانموذج السوي دور الرواد من المهاجرين والانصار ليبين لنا في النهاية خصائص الدعوة في هذا الدين ومدى مقومات ايديولوجيته فـي زحام هذا العالم المتصارع بالتناقض والعداء ونرجو في النهاية ان نكون بقدر ما بذلنا من جهد وما اوتينا من علم قد وقفنا أمام الحق في زاويـة منه ، وعلى الله قصد السبيل .

المبحث الأول

طبيعة الحياة في الاسلام

القيم الانسانية في هذا الدين

مقومات الانسان في الاسلام

روح الحياة وتعاليم الاسلام

من الجوانب الايجابية في التوجيه الاسلامي

طبيعة الحيـــاة في الاسلام .

الاسلام منذ تفجرت ينابيع دعوته في الجزيرة العربية وهو ديــــن التوحيد والتنزيه المطلق ، ومع ذلك فان في الاسلام خصائص وطبيعـــة أخرى تضاف الى عقيدة التوحيد ، هذا مع التسليم المطلق بأن الاسلام ، وحده من بين جميع الاديان هو الذي طهر عقيدة التوحيد و رفض كــل مظاهر الوثنية ومن هنا فانه من الواجب ان نفرق بين دين يدعو للتوحيد والتنزيه محصور في بيئة معينة أو لمرحلة من التاريخ ودين يدعو للعالمية أو الاممية العالمية بمنهج عقيدة التوحيد ، فقد عرف العالم المعمـــور دعــوات ومذاهب كانت تدعو للتوحيد ، وكانت قديمة قبل الاســـلام بعشــرات القرون . وكانت هذه المذاهب والدعوات في بعض مراحـــل نقاتها وارتقائها قبل ان تتعرض للردة منزهة في بعض مراحلها لم يشوبهـا وثن ولم تغلق نفسها في كهانات ووساطات وكان كــل ما في هذه الاديان انها حين كانت تدعو البشر الموجهة اليهم الرسالة لا تسوي بينهــم ولا تصنع لهم أرضة من اساس اجتماعي يقفون عليه بل كانت عندما تعمــل فيها الردة عملها تدعوهم الى عبادة اله في السماء وسيادة لملك في الارض أو خضوع وامتثال لكاهن في الهيكل فكانت دعوة السماء في خدمـــة سيادة التناقض في الارض ، وكان هذا من مظاهر الافلاس الديني قبــل الاسلام .

وكان في هذه : ان الارباب القوية حين تتغلب على الارباب الصغيرة تفرض عليها طاعتها والانقياد لها ، ثم تمتد حدودها لتصبح امبراطورية الهية محدودة ، غير انه قد وجد من بين بعض دعوات التوحيد من ارتقت بالمضمون العقائدي لمعنى التوحيد المتسامي والمنزه دعوات كثيرة فتوجه الدعاة الى اله الكون يرجونه ويسترحمونه ويطلبون الهداية والتوفيق كل هذا ومثله مما أشرنا اليه قد وجد قبل الاسلام ، ولكن الاسلام في عالميته الانسانية أو انسانيته العالمية كان شيئا معجزا لم تعرفه الاديان ولا المذاهب ـ من قبل . فلم تكن هناك دعوات مثله أو قريبة منه قد عملت له مقدمات فجاء يختم الحساب ، كان اول ما في الاسلام حين دعا الى التوحيد ان دعوة التوحيد في الاسلام لم تكن مسائل غيبية ومتاهات ميتافيزيقية . وانما قامت دعوة التوحيد على توحيد الانسانية كلها في حقوق واحدة ، وتوحيدها في هداية واحدة وتوحيدها في ايمان بالله واحد لا اله الا هو ولا رب لكل البشر سواه يتساوى الناس جميعا بين يديه ولا يتمايزون الا بمقدار ما يقدمون للانسانية من خير وسلام ، ولا يتحقق التمايز بغير الفضل والصلاح والعدل والمساواة وكان من اهم الجديد في دعوة الاسلام ان وجه من اعماق جزيرة العرب بعد افلاس ديني لمقدمات زيف حضاري سبق الاسلام عند كل ما جاور الجزيرة العربية من ممالك وامبراطوريات وما كان في العالم كله قبل ذلك وكان قد سرت بعض عدواه الى الجزيرة العربية ان : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » .

« وما ارسلناك الا رحمة للعاملين » .

واذا كان لنا ان نقارن في بساطة ايمان بين كل ما سبق من مقدمات في تاريخ العالم المعمور قبل دعوة الاسلام وبين ما حققه الاسلام من

نتيجة مباشرة لحاجة البشرية حين أرسى هذا الاساس لكان فيما يقوله المفكرون الاوربيون عن مدى تأثرهم بقضايا هذا الدين بعض دليل فيما تركه الاسلام من ميراث حضاري يتلخص في جملة من المبادىء والقواعد التي جعلت مجموعة من المفكرين في عصر التناقض والاستعمار تنطلق تشدو بهذا الدين وتقول كما قال « اللورد هيدلي الانجليزي المسلم » ••• فكرت وصليت اربعين سنة ، كي اصل الى حل صحيح ، ويجب علي ان اعترف ايضا ان زيارتي للشرق ملأتني احتراما عظيما للدين المحمدي السلس الذي يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة • لا في أيام الاحاد فقط ••• أيمكن اذا ان يوجد دين يمكن العالم الانساني من ان يجمع أمر ، على عبادة الله الواحد

ويقول في الرد على المفترين على الاسلام : « ليس في وسع الانسان في الحقيقة ، الا ان يعتقد ان مدبجي وناسجي هذه الافتراءات ، لم يتعلموا ، حتى ولا أول مبادىء دينهم ، والا لما استطاعوا أن ينشروا في جميع انحاء العالم ، تقارير ، معروف لديهم انها محض كذب واختلاق • وفي تقرير لحقيقة الانفعال بهذا الدين يقول المرحوم « ايتين دينيه » أمرنا من الدين دينيه : لا يتحرر الاسلام على الطبيعة التي لا تتغلب وانما هو يساير قوانينها ويزامل ازمانها بخلاف ما كانت تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها في كثير من شئون الحياة •

ثم ومن خصائص هذا الدين ان مجتمعه ان صدق مع جوهر ما يؤمن يصبح هذا المجتمع منفتحا بشكل يتحرك فيه على اساس من معنى العالمية •

حتى ولو لم تكن قد تحققت له بعد تلك العالمية بالفعل لان مجتمع الاسلام هو مجتمع الانسانية كلها لا فرق لديه بين جنس وجنس ولا بين

لون ولون ولا بين لغة ولغة ولا حتى بين دين ودين ٠

مجتمع ليس لجغرافيته حدود ، وليس للعنصرية فيه وجود ٠

فالاسلام يواجه مجتمعه في اول لقاء ينفي كل تلك النعرات ٠

« قل : اذ كان آباؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ٠

« والله لا يهدي القوم الفاسقين ٠

ويلفته الى ان اصل الجميع واحد ، فلا ميزة لعنصر على عنصر ، ولا فضل لجنس على جنس ، وان مناط التفاضل والتمايز انما هو تقوى الله والعمل الصالح ٠٠ وتقوى الله ، والعمل الصالح يتساوى في التلبس بها بنو البشر جميعا [1] ٠

« يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير » ٠

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » ٠

ويقول ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية ٠

فباستطاعة كل انسان ان يعيش في حمى الاسلام ، وفي ضمن مجتمعه ، دون أن يحس غربة ، بل انه ــ على العكس من ذلك ــ ليحس آصرة واحدة تربط بينه وبين ذلك المجتمع ٠

---

(١) ابراهيم عوضين « الاسلام والانسان » لجنة التعريف بالاسلام صادر عن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية عام ١٩٦٥ صفحات ٢٨٣ــ٢٩٠ .

وهذا الموقف من الاسلام يحقق السلام العالمي للانسان لانه يقضي على اهم اسباب الحروب ، ويقف في وجه التكالب الاستعماري الـذي يقوم على الشعور بالتفاضل القومي أو العنصري .

ثم والاسلام في حركته لا يحبذ فكرة الوطنية الاقليمية في مجتمعه ، ولكـنه يبقى على المعنى الطيب من تلك الفكرة ، وهو معنى التجمـع والتآخي والتعاون والنظام والهدف الذي تلتقي من اجله الجماعة مـن الناس .

فالاسلام بدعوته تلك يحرر فكرة الوطنية من ماديـة الارض ، ويجعلها فكرة شعورية ـ لا رقعة ارضية فحسب ـ يجتمع في ظلهـا الناس على اختلاف الوانهم وأجناسهم ووالدهم ، فاذا هم جميعا ابنـاء وطن واحد .

ومنطلق تلك الفكرة من الاسلام قوله تعالى :

« انما المؤمنون أخوة » .

ويقول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « المؤمن للمؤمن كالبنيـان يشد بعضه بعضا » .

ويقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وبذلك يقضي على نزعة الاستغلال العنصري فكل ما ينشأ عنه هو شعور المسلم بأن كل ارض يظللها الاسلام هي وطنه وبأن كل مسلـم يعيش على الارض هو مواطن له .

فلا مجال لدى المجتمع الاسلامي لظهور تلك العصبيات لانـه لا

يعتمد في ترابطه على وضيجة الجنس ، او عنصر الدم فالجنس الانساني واحد ، والدم البشري لا يختلف الاختلاف الذي يؤثر في تكوين المجتمع أو في التلاقي والتعاون .

والاسلام في ذلك يحرص على ان يشد المجتمع بسبب قوى متين لا يخشى عليه التمزق السريع اذ ليس اسرع من تمزق رابطة تقوم على الجنس والدم ... فهي تحمل فيطياتها عوامل تمزقها وتجتذب من الخارج كذلك - عوامل اخرى لتمزقها ، فلو لم تتفكك تلك الرابطة بهجوم من الخارج تفككت بثورة من الداخل .

أما العقيدة فهي حبل لا توهيه الاحداث ومهما تكتلت قوى العدوان من الخارج ففي داخل هذا المجتمع المؤمن ما يتحمل عنهالضربات ويدفعها عنه حتى يضمن له السلامة .

ثم لا يعني ذلك ان الاسلام قد حطم عصبية الجنس واللون والارض ، ليقيم عصبية الدين - وهي قد تكون اخطر على العلاقات البشرية من عصبيات الجنس واللون والارض كما رأينا في الحروب الصليبية والمذابح الهندية - لا يقيم الاسلام عصبية الدين على انقاض تلك العصبيات .

لانه لا يقصر خيره على اتباعه - فحسب - بل يجعل خيره للناس جميعا وكانت البداية حين توجه الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

ولانه لا يصنع من الظلم انسانه - فحسب - بل يدفعه عن الناس جميعا ، ويمنع منه الناس جميعا .

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

ولانه لا يقسر أحدا على اتباعه •

« لا اكراه في الدين • قد تبين الرشد من الغي » •

ولو كان في هذا من الاسلام تعصبا لقدم اتباعه على غيرهم وخصهم بالرحمة فقدمها اليهم خفية ، ولاهتم بهم وحدهم من دون غيرهم فدفع عنهم ــ فحسب ــ الظلم ، ولم يمنع منه غيرهم •

ولو كان في هذا من الاسلام تعصبا لسلك سبيل القهر في الدعوة الى اعتناق فكرته والايمان بمبادئه •

ان الاسلام انما لجأ الى ذلك ــ كما أشرنا ــ لان الايمان هو الرابطة الوثيقة ، وليس مثلها رابطة •• وما دام بسبيل ربط مجتمعه فلا عليه ان ينتقي أمتن الروابط وآمنها ، وأبعدها عن ضر الاخرين وايذائهم ، ولا تتحقق تلك المواصفات ولن تتحقق الا في رابطة الايمان •

كل ما يريده ان تترك له حرية الدعوة بين اهل الارض جميعا حتى يصلهم بالخير المطلق الذي جاء به والا يقهر اتباعه على ترك عقيدتهم وأن تتاح له القوة اللازمة لحمايتهم من العدوان عليهم واللازمة لتنفيذ شريعته بينهم •

وهذا يقتضي تنظيما معينا •

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو ابناءهم أو اخانهم أو عشيرتهم » [١] •

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين ، انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » [٢] •

---

(١) ٢٢ سورة المجادلة .

(٢) ٨ ــ سورة الممتحنة .

ومن ثم .. فعصبية الاسلام ليست ـ كما ظن من لا يعرف الاسلام عصبية كراهية وحقد على الاجناس الاخرى .

فالامة المسلمة خليط من جميع الاجناس .

ليست عصبية كراهية وحقد على اتباع دين معين لمجرد انهم لا يعتنقون الاسلام .

فالامة المسلمة ترعى اتباع الاديان الاخرى كما ترعى المسلمين والاسلام لا يريد حرية العبادة لاتباعه وحدهم انما هي حق لكل صاحب دين ، وعلى المسلمين ان يدافعوا عن هذا الحق المجميع .

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور » .

ان عصبية الاسلام تدعو المؤمنين لقتال الظالمين دفاعا عن صوامع الرهبان ، وكنائس النصارى ، وبيع اليهود ، ومساجد المسلمين .

اذ ليس العدوان في الاسلام نسبيا ـ كما هو في النظم الاخرى ولكنه ثابت محدد لا يتغير مفهومه بتغير موضوعه .

فليس العدوان على الكنيسة عملا يختلف عن العدوان على المسجد ، ولكن كلا العملين عدوان لا يرضاه الاسلام ويطالب المسلمين بالوقوف في وجه مقترفيه ايا كانت مشاربهم واتجاهاتهم لا فرق بين مسلم وغير مسلم .

ومن هنا لم يكن القتال وسيلة من وسائل نشر الاسلام ، لان ذلـك يحقق العصبية بمعناها الشرير الحقير .

فليسر الامر كما يحلو لدعاة السوء أن يشيعوا عن الاسلام مستغلين ما صادف من معارك لانه لم تكن هناك معركة واحدة يرجع سببها الـى عصبية أو اكراه أو عدوان بل كانت كل معارك المسلمين دفعا لظلـم أورد العدوان ليس غير .

وأكثر من ذلك ان الاسلام كان حريصا كل الحرص على ان يباعد بـين المسلمين وبين العدوان والظلم والاكراه .. الخ.

ومن ثم توالت الآيات التي تحدد لهم القتال ، وتوضح ميدان اباحته، ومناط كرهه أو حتميته .

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسـن » .

ولذلك قيد الاذن بالقتال وجعله محدودا بحدود .

١) رد العـدوان ..

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » .

ب) الوقاية ممن ينقضون العهد السلمي بحيث يصبح المسلمون معهم في قلـق .

« ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذيـن عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون فاما تثقفنهم في

الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ، واما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، ان الله لا يحب الخائنين » .

ج) حماية الضعفاء من الظلم ..

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

« ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ، الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان، ان كيد الشيطان كان ضعيفا » .

ومن ثم تتأكد العالمية في مجتمع الاسلام ، فهو لا يقصر القتال على تحقيق مصالح خاصة لافراده موزعين او مجتمعين ولكنه يجعل نصرة المظلوم وتخليصه من ظلم ظالمه سببا يدعو للقتال ، مع حبه للمسلم ورغبته فيه أيا كان هذا المظلوم ، وأيا كان هذا الظالم .

لا فرق بين مظلوم ومظلوم في استحقاق الدفاع ، والتجمع لنصرته حتى ولو كان هذا المظلوم على غير عقيدة الاسلام وفي غير موطن المسلمين.

فوجود جماعة من البشر في غير مأمن يوجب على الامة المسلمة ان تقدم لهم العون ، وتمد لهم يد الحماية والوقاية من الظلم في كل صورة من صوره .

ولا فرق بين ظالم وظالم في استحقاق الكف والحيلولة بينه وبين الظلم حتى و لو كان هذا الظالم احد المسلمين أو جماعة منهم .

فوجود الظالم من بين المسلمين لا يبرر ظلمه . ولكنه يحتم المسارعة الى كفه والوقوف في وجهه .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أنصر أخاك ظالما أو مظلوما » .

فقال المسلمون ـ مشدوهين ـ : « يا رسول الله عرفنا كيف ننصره مظلوما ، ولكن كيف ننصره ظالما ؟ » .

فقال عليه الصلاة والسلام : « بمنعه من الظلم » .

ولهذه الاهداف كانت الحروب الاسلامية التي دفع جماعة المسلمين اليها روح دينهم وما يشتمله من قيم عالمية وانسانية .

واذا وقع في بعض الاحيان من بعض الجماعات المسلمة ان كانت حروبهم لغير ذلك ، بأن كان ثمة هدف الاستغلال المادي ، أو رغبة الاكراه على الدين ، أو أي عنصر اخر غير ما سبق ذكره ، فان تلك الدواقع الاخرى ليست من الاسلام في شيء ، والاسلام منها بريء ، ومثل هذه الجماعة ـ في تلك الحالة ـ تكون منحرفة عن مثل الاسلام وقيمه .

جاء رجل الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى ، فمن في سبيل الله ؟ » .

قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

ويروي أهل السيرة [1] ان احد المنافقين يقال له « قزمان » وكان بطلا شجاعا ، ولكنه تخلف عن الذهاب مع المسلمين في غزاة « أحد » فلما أصبح عيره نساء بني قومه ، فقلن له : يا قزمان قد خرج الرجال وبقيت

---

(١) راجع مغازي الواقدي ، ص ٢٢١ ، وامتاع الاسماع للمقريزي ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

انت يا قزمان . الا تستحي مما صنعت ؟ ما أنت الا امرأة ، خرج قومك وبقيت في الدار .

قالوا : فأحفظنه بهذا التقريع ، فدخل بينه ، فأخرج قومه وجعبته وسيفه وخرج يعدو حتى انتهى الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يسوي صفوف المسلمين فجاء من خلف الصف حتى انتهى الى الصف الاول فكان فيه ، وكان اول من رمى بسهم من المسلمين ، وجعل يرسل نبلا كأنها الرماح ، وانه ليكت كتيت الجمل ، ثم صار الى السيف ففعل الافاعيل .

فلما انكشف المسلمون كسر جفن سيفه ، وجعل يقول : الموت احسن من الفرار .. يا للأوس قاتلوا على الاحساب واصنعوا مثلما أصنع .

قالوا : فيدخل بالسيف وسط المشركين حتى يقال : قد قتل ثم يبدو فيقول : انا الغلام الظفري .

وما زال على ذلك يغمس نفسه في لجة الموت حتى قتل من المشركين سبعة ، وأصابته الجراح ، وكثرت فيه فوقع ، فمر به قتادة بن النعمان . فقال له : ابا الفيداق

قال قزمان لبيك .

قال : هنيئا لك الشهادة

قال قزمان : الى والله ما قاتلت يا ابا عمر على دين .. ما قاتلت الا على الحفاظ ان تسير قريش الينا فتطأ سعفنا .

قالوا : فآذته الجراح فقتل نفسه !

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » . وفي رواية اخرى ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هو في النار » .

فكل بلائه في الحرب ــ على عظم ذلك البلاء ــ وكل تضحياته علــى روعة تلك التضحيات ــ لا قيمة لها في الاسلام لانها في سبيل نعرة قومية ، وعصبية اقليمية ، لا يعرفها الاسلام في مجتمعه •

وان عالمية الاسلام ــ تلك القيمة التي تنبثق عن عقيدته ــ توجــب على مجتمع الاسلام الا يقطع الصلة بينه وبين الذين لا يدينون بالاســلام ما داموا لا يحاربونه ولا يمنعون دعوته ان تبلغ الناس ، ولا يفسدون في الارض ولا يعتدون على ضعيف •

والصلة بين مجتمع الاسلام وبين هؤلاء يحددها وضعهم انفسهم •

١) فان كانوا خارجين عن سلطان الاسلام ــ ممن لهم دين اخر أو ممــن ليس لهم دين ــ فمجتمع الاسلام لا يحاربهم ولا يقاطعهم ولا يعاديهم مــا داموا لا يحاربونه ولا يقاطعونه ولا يعادونه ولا يعتدون على مستضعفف من غير المسلمين •

ونظامــه ــ على اساس تلك القيمة من قيمه ــ لا يقف عند تلــك السلبية يعادي من يعاديه ويسالم من يسالمه ــ بل انه ليسمح بالتعــاون الايجابي معهم عن طريق المعاهدات التي يحترمها الاسلام كل الاحترام •

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم مــن دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ، ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » •

ففــي ظل الاسلام تقوم علاقات المودة والبر بين المسلمين وغــير المسلمين سواء جمعتهم ارض واحدة ام نأت بهم الديار •

انه ليفسح لتلك العلاقات ويحث على ان تقوم على العدالة والاقساط لان ربهم يحب المقسطين .

والاسلام اذ يعلن عن ذلك المبدأ لا يغفل ما يمكن ان ينال المسلمين من اعدائهم فيحدد موقفه من ذلك في صراحة ووضوح لا مواربة فيه ولا غش .

فمهما كانت الظروف يحق لمسلم ان يقبل ولاية من قاتله في الدين أو اخراجه من داره أو ساعد في اخراجه .

فلن يكون مسلما حقا ذلك الذي يخضع راضيا بالذل والهوان ، خانعا قانعا بفتات العيش الذي يتساقط من فم هذا العدو ليتلقفه هو سعيدا هانئا .

فكيف به اذا كان مسلما يؤمن بالله ويعرف مركزه في الكون وعلاقته بالحياة ؟

فاذا حد الاسلام ذلك الحد للمسلم في علاقته بامثال هؤلاء ممن يعتدون عليه فهو الوضع الطبيعي دون ريب او تردد .

بل ان قيمة العالمية ــ لاهميتها بالنسبة لمجتمع الاسلام ــ لتجعل الاسلام يؤثر المودة على العداوة حتى مع من يعادونه ــ اذا ضمن كفهم بالحسنى عن العدوان استحياء للمودة الانسانية وتوثيقا للروابط البشرية.

« ادفع بالتي هي احسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم » .

« عسى الله ان يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم » .

والعهود في الاسلام تلتزم العالمية وتسعى لتحقيقها ، فهي ليست

عهودا « ميكيافيلية » تقوم على الغدر وتعتمد على الخديعة ، بغية ان تكون أمة هي اربى من امة ولكنها عهود تقوم على الالتزام والوفاء وتعتمد على الصراحة .

اما ما يراه ميكيافيلي ويعتذر به الساسة الكاذبون من ان مصلحة الدولة تقتضي الكذب والدجل فلا يعرفه الاسلام ولا يعترف به .

لان الاسلام لا يهدف الى اقامة دولة ، ولا الى توسع امبراطوري ولا سلطان استعماري ولكنه يقصد الى بناء أمة بكل مقوماتها من احياء ضمير وارهاف حس وانارة عقل وتفتيح بصيرة وتبصير وعي .

ولا شيء من ذلك يقوم على الغدر والخديعة والتربص والترصد فالله رقيب لا يتخلى لحظة عن رقابتهم عليم بما يفعلون لا يغيب شيء عن علمه .

القيم الانسانية في هـذا الدين

ليست المسؤولية الانسانية في الاسلام هي تلك الانماط المعروفة في مجتمعات العالم القديم قبل دعوة الاسلام حين كانت القبيلة كلها مسئولة عما يقترفه فرد منها وحين كانت شرائع روما وقوانينها تجعل من الابالاكبر مسئولية الاسرة كلها ــ كانت ايضا تعاليم حمورابي لا تختلف عما كـــان عليه الحال في روما •

وكل ما كان معروفا في العالم القديم ان المسئولية الاجتماعية والدينية للفرد متروكة لاشياء كثيرة من خارج الفرد نفسه هي التي تربطه الى كـــل التزام يناط به •

اما الامر في الرسالة العالمية التي يكون لشعوبها في طول الدنيـــــا وعرضها اكثر من ظرف يحكم سلوكهم واكثر من حاجة تحكم ما يلجـــأون اليه ، فان المسئولية فيها عميقة وكبيرة عمق الحياة وكبر اتساعها المسئولية في الرسالة العالمية شيء بمثابة التزام اخلاقي جديد لم يكن حلقة في طريق التطور التقليدي لجهود الانسان •

وانما التزام المسئولية في الاسلام انه لم ينتقل او يطور ما سبقه مـــن مقدمات عالمية تضيف الى الانسان مسئولية نفسه او غيره ليصل بها الـــى

مرحلة الحركة والايجابية تجاه كل ما يوكل اليه وانما الجديد في مسئولية الرسالة العالمية وهي التي قامت في الجزيرة العربية التي كان من صـــور الحياة فيها انه حين ينال واحد من ابنائها أو عشائرها او بطونها أو قبائلهـا اذى تقوم القبيلة كلها للقتال قومة رجل واحد ان .. ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » .

وتقف الدنيا مبهورة عند هذا الموقف فقد انتقلت الانسانية الى طفرة من الوجود الاخلاقي كرم بها وجود الانسان وحريته ... وترى الدنيا مـرة واحدة ان الانسان قد اصبح مسئولا عن نفسه وعما يناط به وما يوكل اليه ولن يؤخذ بجريرة اسلافه ولن يتحمل خطيئة قومه « .. تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

ثم والانسان في الاسلام بعد هو ذلك المخلوق المكلف والمسئول ذلك انه في الاسلام دون غيره من الاديان لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا أمـة بوزر أخرى « .. كل امرىء بما كسب رهين » وكما اشرنا فان مـناط المسئوليـة في كل ما يمكن ان تتفرع عنه المسئولية في مراحل البساطـة الاجتماعية أو التعقيد الاجتماعي وفي كل ما يمكن ان يتغلغل اليه فقـه الباحثين في التشريع الديني أو التشريع في الموضوع العقائدي أو فيمـا يتعلق بالغيبيات أو السلوك الاجتماعي في واقع الحياة والحس انه لا تبعة ما لم تكن مسائل العقيدة تمثل الحق والعدل لكل الناس .

ومن هنا جاء الاسلام من خلال كتابه الاكبر وهو : والقرآن الكريم ليرتفع بالدين من كل مراحل عقائد الكهانة والوساطة والفاتر الى عقائـد الرشد والهداية . ومن هنا ايضا نرى الانسان في القرآن الكريم قد ذكـر بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة في الاية الواحدة فلا يعني ذلك انه يحمد ويذم في آن واحد ، وانما معناه انه اهل للكمال والنقص بمـا

فطر عليه من استعداد لكل منهما فهو اهل للخير والشر لانه اهل للتكليف.

والانسان مسئول عن عمله ـ فرد او جماعة ـ لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا أمة بوزر امة :

« كل امرىء بما كسب رهين »

« تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

أما مناط المسئولية في القرآن فهو جامع لكل ركن من اركانها [1] ..

فهي بنصوص الكتاب قائمة على اركانها المحملة : تبليغ وعلم وعمل..

فلا تحق التبعة على احد لم تبلغه الدعوة في مسائل الغيب ومسائل الايمان :

« ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » .

« وان من أمة الا خلا فيها نذير »

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »

أما العلم فان أول آية من الكتاب تلقاها صاحب الدعوةالاسلامية كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الانسان :

« اقرأ وربك الاكرام الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » .

---

(١) عباس محمود العقاد « الانسان في القرآن الكريم » من صفحات ١٧ ـ ٢١ ، طبعة كتاب الهلال عام ١٩٦١ .

وأول فاتحة في خلق الانسان ، كانت فاتحة العلم الذي تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات :

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم » .

وأما العمل فهو مشروط في القرآن بالتكليف الذي تسعه طاقة المكلف وبالسعي الذي يسعاه لربه ولنفسه :

« لا يكلف آلله نفسا الا وسعها »

« وان ليس للانسان الا ما سعى »

« ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »

ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل ، أممهم جميعا أمة واحدة هي « الامة الانسانية » والههم جميعا اله واحد هو رب العالمين :

« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم . وان هذه امتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون » .

وفيما ذكر فيه الانسان من آيات الكتاب وصف له وهو في الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف ، ووصف له وهو في الدرك الاسفل من الحطة التي ينحدر اليها بهذا الاستعداد وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الامر والنهي والعظة والتذكير والثواب والعقاب .

فالانسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والارض من ذي حياة او غير حياة :

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » .

« لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم »

« وسخر لكم ما في السماوات » .

« وسخر لكم ما في الارض » .

ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوىء لا يوصف بها غيره لان السيئة والحسنة — على سواء — لا يوصف بهما مخلوق غير مسئول ..

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره بين الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود لانه دون غيره أهل للايمان والعدل والرجحان والعفاف .

وهذا الاستعداد الذي يجعله أهلا للترقي الى أحسن تقويم وأهلا للتدهور الى أسفل سافلين هو مظهر التكريم الالهي للانسان حين أناط به مسئولية التفكير والادراك .

على ان الآيات التي قصر فيها القول على خلق جسد الانسان لم تخل مما يوحي الى المخلوق المسئول ان أطوار خلقه السوي اعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب ، عسى أن ينظر في الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذي تدركه الابصار والاسماع :

« ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

« ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه » .

« من آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنشرون » .

« سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » .

ولا يسأل الانسان عما يجهل ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه ان يعلم وما من شيء في عالم الغيب او عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الانسان فما وسعه من علم فهو محاسب عليه .

ثم بهذه المعاني المستقرة في عقيدة ووجدان المسلم بها وحدها ـــ ان يغسل الاسلام الانسان الفرد من كل تراكمات تركها عليه تاريخ الاسر الديني حين عملت فيه الكهانة كل ما أحال دون وجوده الكريم يمارس الحق والعدل ويأخذ منه حقه ـــ ومن هنا كان مكان الانسان في الاسلام اشرف مكان يمكن ان تحظى به الانسانية في ميزان الفكر بل وفي الميزان الذي توزن به الكائنات عامة ، فهو الانسان المكلف وان شئت فقل هو الكائن الراقي وعلى يد الاسلام فقط ودون تأثر بمراحل التناقض من عمر الحياة ، ذلك ان الاسلام ينظر الى الانسان على أنه أكرم الخلائق باستعداد منفرد بين خلائق السماء والارض ويقول فيه كتاب الاسلام الاكبر « ... ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا فضيلا » .

« ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » .

« وسخر لكم ما في الارض » .

ولهذا كان الاسلام في كل قضايا التكليف حتى الامور التعبدية

الخالصة يعطى تعادلا بين كل مزاج في الانسان كأن يكون نحو التجرد مثلا او التعلق بالمثالية ، او نحو مكوناته المادية ، حتى يجعل منها مثالا لذلك النموذج الذي يهدف الاسلام الى ايجاده أصلا تحقيقا لرسالة يجعل منها الاسلام علة العلل في نشأة الانسان على الارض •

« •• اني جاعل في الارض خليفة »

وعليها فان انسان الاسلام لا يعيش على الارض عفويا ولم يوجه الى الارض اعتباطا ولم يمنح ما منح من خصائص ترقية واستعداده للتقــدم بطريق المصادفة ولكنه معد من وجهة نظر الاسلام الى قصد قصده اليه المصدر الاول في وجوده وهو ان يكون بادىء ذي بدء على اكبر قدر من الحرية والكرامة الانسانية •

مقومات الانسان في الاسلام

للاسلام الفضل كل الفضل في تقديم ارقى مضامين الحرية فيمجالاتها المتعددة بل لولا الدور التقدمي الذي قام به وقاده من اجل الحريةالانسانية لما تيسر لكثير من مدارس النضال ضد الاستعمار اليوم ان يكون لها كل ما لديها من رصيد التجارب والتصور النظري لدروس التاريخ .

فقد كان المصريون مثلا يتخذون من الوجود العام لحيـاة كثير من افراد المجتمع سخرة مهينة : خدمة وزينة وكانوا ينظرون الى الرقيق علـى انه آلة صماء ، وكانت احوال الرقيق في مصر القديمة تدعو الـى الاسى والاشفاق عليهم فقد كان بعضهم يتخذ رقيقا المزينة ويعامل مثلا معاملـة أرحم قليلا من رقيق الخدمة ، وكذلك كان حال قطيع ضخم في المجتمع الفارسي يتخذ اللعب واللهو والزينة .. بالنهار ينزف وجوده ودمـه في مزارع السادة وبالليل في ساحات لهوهم تفترسه السباع وتنهش كبـده الوحوش تسلية ومسرة لطبقة الحكام والملوك والكهان .

وكذلك نفس الحال كان في الهند الذين كانت شريعتهم تنص على ان الرقيق لا يستحقون الحياة ولا الطعام في خدمة البرهمي ، ولقد عمـل التناقض الاجتماعي في الهند القديمة التي أشرنا اليها قبل عصر الاسلام كل عمله الى حد ان طبقة الرقيق كانت تعتبر نفسها من طول ذل العبوديـة

ان العبودية صفة لازمة لها وحتى في حالة نادرة كانت تحدث قليلا وهي ان يتخلى بعض السادة عن رقيقه فانهم كانوا يبقون على انفسهم الرق وكان مثل هذا الموقف الذي كان يتخذه بعض الرقيق دليـــلا على مقـــدار ما قتلته تناقضات مجتمع ما قبل الاسلام في أمل الانسان ومستقبله •

وكذلك كان نفس الحال في اليونان الذين بالغوا في استخدام الرقيق• وفي اليونان القديمة عملت الحروب عملها في جلب مزيد من الرقيق وأدت القرصنة اليونانية دورا كبيرا في نشاط النخاسين ، وأصبحت أثينا في أزهى عصورها سوقا رائجة لبيع الآدميين وشرائهم •

وقد عمل الفكر اليوناني الى مصادر الاسترقاق عمله وأضاف أسبابا اخرى منها استراق المدين اذا عجز عن اداء دينه وبلغت الفائدة الربويـــة قدرا من المال يساوي قيمته الشرائية فيحكم للدائن باسترقاقه •

ويقول معجم لاروس في مادة الرق : كان المجرمون والثوار الذيـــن يطالبون بحياتهم وبحقوقهم يسترقون للدولة ، والذين يخرجون من الدين يسترقون للمعابد ، وكذلك ايضا كان نفس الحال عند الرومان اتخـــذوا الرقيق بكل الوسائل وأكثروا منه وطبيعة المجتمع المترف في روما ساعدت على ان يكون حال الرقيق في روما اكثر سوءا من غيره فلم يكن لطبقـــة العبيد أية حرمة في الوجود وحتى حق حياتهم فللسيد الحق متى شاء ان يقتل العبد يفعل ذلك دون مساءلة وكل من كان يعمل في خدمة مرافـــق الدولة الرومانية كان رقيقا فالحراسة والتنظيف والزراعة وغير ذلك لا يقوم بها الا الأرقاء وكان من اسباب الرق في روما انه عندما يمتنع شخص عن الحضور امام المحاكم او الكاهن أو ولي الامر يصبح رقيقا وكان من اسبابه ايضا غير الشراء والاغارة وأسرى الحروب ان يمتنع شخص او يتأخر عن اداء الضريبة فيصبح من الارقاء •

ولعل في ثورات العبيد المعروفة في التاريخ والمشهورة الى حد التواتر مثل ثورة « اسبارتوكوس » الذي جمع اكثر من ٧٠،٠٠٠ من العبيد وكادت ان تسقط روما في يده عام ١٣٥ قبل الميلاد ومثل ثورة صقلية التي استمرت ثلاث سنوات من عام ١٠٢ الى ١٠٥ قبل الميلاد ومثل الثورة التي قامت في ايطاليا ودامت من عام ٧١ الى ٧٣ قبل الميلاد ، لأكبر مثال وأوكد تعبير على ان الحال الاجتماعي في مجالات الحرية والحياة بكل مظاهرها التي كانت عليها البلاد المعمورة قبل الاسلام كان سيئا للغاية ولقد كان الفكر الفلسفي القديم يعتبر الرقيق آلة ذات روح وكان يقسم النوع البشري الى قسمين :

الاحرار والعبيد .. ويقول ان من الناس من يكونون عبيدا بطبيعتهم .

أما الامر في الاسلام وفي مجال الحرية بكل ابعادها فانه أمر يختلف تماما لان انسان الاسلام هو مخلوق جديد للحياة انسان للحياة الحرة الكريمة كلها والمستقبل جميعه يرتهن امامه بمقدار تفهمه لطبيعة التعاليم والقواعد التي تعبر عن جوهر هذا الدين وروحه ذلك ان الاسلام حين بدأ يحدد ابعاد الحرية السياسية للانسان قد كان انموذجا عجيبا وفريدا في علاج التناقضات وصور التخلف التي مر بها الانسان ، فقد كانت البداية لأبعاد الحرية الانسانية سياسية واجتماعية وغيرهما في الاسلام مرتبطة في الاصل والاساس بالقدرات الانسانية في تغيير الواقع الاجتماعي واستبدال نوع علاقات للتناقض الاجتماعي القائمة على السخرة والعبودية بغيرها قائمة على الروح الانساني حتى يتاح للانسان ان يخلص من تناقضات تكبل بها عبر الاف من السنين ، ولقد كانت البداية كما يقول صلى الله عليه وسلم : « أرقاءكم » .. أرقاءكم .. اطعموهم مما تأكلون وألبسوهم مما

تلبسون • وفي هذا المعنى يقول سيد أمير علي ، في كتابه ، روح الاسلام، ومن الجزء الثاني الذي ترجمه الاستاذ امين محمود شريف :

انك لترى في المراحل الاولى التي لم يصل فيها الانسان الى معرفة ما له من حقوق وما عليه من واجبات ، والتي يستأثر فيها فرد او قلة من الافراد بفرض القوانين على الكثرة والتي تكون فيها ارادة القوى هي قانون الحياة ورشد السلوك ــ ترى التفاوت الضروري الذي أوجدته الطبيعة بين الناس من الناحية الاجتماعية والجسمية والعقلية يأخذ صورة الرق كما تنشأ نظام يتمتع فيه السيد بالسلطان المطلق على المسود ، وأتاح خضوع الضعفاء التام للاقوياء على هذا النحو نجاة الاقوياء من اللعنة الاسطورية التي نزلت على الانسان « بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الارض ، كما اتاح لهم استغلال وقت الفراغ في مزاولة الاعمال المناسبة ويقول مؤلف « كتاب الشريعة القديمة » لا شك ان رغبة الانسانالبسيطة في استخدام القوى الجسمية لغير وسيلة لتوفير اسباب اللذة والراحة لشخصه هي اساس الرق كما ان هذه الرغبة قديمة قدم الطبيعة البشرية» •

وقد وجد الرق بوجود الانسان ، حتى لنرى آثاره ماثلة في كل عصر وفي كل امة على مدى التاريخ ، وتمت ذروة الانسانية في طور الوحشية ثم ظل يزداد حتى في الوقت الذي تقدمت فيه الحضارة المادية فقضت على الضرورة الداعية اليه •

وكان اليهود واليونان والرومان والجرمان الاولون وهي الاجناس التي أثرت نظمها القانونية والاجتماعية في العادات والاخلاق الحديثة اكبر تأثير ــ يعرفون الرق ويمارسونه بنوعيه : رق الارض ورق البيت : وكان اليهود منذ ان كانوا أمة يمارسون نوعين من الرق • وكان اليهودي الذي يضرب عليه الرق عقابا لجرم اقترفه أو سدادا لدين اقترضه أعلى مكانة

من العبد غير اليهودي ، فكانت الشريعة تمنح الاول حريته بعد قضاء سبع سنوات في الاشغال الشاقة ، الا اذا أبى الانتفاع بهذا الحق • أما الأرقاء الاجانب سواء أكانوا من القوم الذين استرقهم اليهود استرقاقا مطلقا في حرب لا تعرف الرحمة ام كانوا من الأرقاء الذين يحصل عليهم اليهود في غارات غادرة ، أو بطريق الشراء ، فقد كانوا محرومين من مزايا هذا الاجراء وهو اجراء ينبعث من روح المحاباة القومية وما امتاز به اليهود من التعصب • وكانت حياة هؤلاء الارقاء والاماء طافحة بالمتاعب والشدائد كما كان اقنان الارض وأرقاء البيت هدفا للبغضاء والاحتقار معا ، اذ كانوا يكابدون الاعمال الشاقة بصفة دائمة في خدمة سادة لا يعرفون الرحمة •

ولم تبدل المسيحية ـ بوصفها نظاما ودينا ـ في نظام الرق ولم تنفذ اي قانون ولم تشرع أي قاعدة للتخفيف من وطأة هذه الآفة • واذا استثنينا بعض الملاحظات القليلة التي أبداها السيد المسيح عليه السلام بشأن عصيان العبيد وما اسداه من نصح عام لأسيادهم باعطائهم ما يستحقونه لم نجد في تعاليمه كما ترويها الروايات المسيحية ـ ما يدل على انكار الرق ـ بل نجد على العكس ـ ان المسيحية قد فرضت على العبد والامة الخضوع المطلق لسيدهما ، ولما وجدت المسيحية الرق نظاما مقررا في الامبراطورية أقرته كما هو فكان القانون المدني يعد الأرقاء مجرد متاع من امتعة البيت ، وكذلك كانت حالهم في ظل الحكم المسيحي • وقد انتشر الرق بين الرومان منذ اقدم العصور فكانوا يعدون الأرقاء متاعا من أمتعة البيت سواء أكانوا وطنيين ام اجانب وسواء حصلوا عليهم بالسبي او بالشراء • وكان لسادتهم سلطة الحياة والموت عليهم • ولكن الاصلاح التدريجي الذي جرى على قوانين الالواح الاثني عشر القديمة حتى تطورت الى قانون « هدريان » الشامل ، وقد أدى الى بعض التحسين في حال

الأرقاء على انه بالرغم من هذا الاصلاح الذي طرأ على القوانين القديمة بتأثير الروح الانسانية او بفضل حكم الاباطرة ظل شخص الرقيق خاضعا لارادة سيده خضوعا مطلقا . فكان كل قطب من اقطاب الامبراطورية يملك ألوفا من الأرقاء يعذبهم ويجلدهم بالسياط لأتفه الاسباب .

ولم يكن لدخول الديانة المسيحية في اوروبا أي أثر في الرق البشري الا فيما يتعلق برجال الدين اذ كان في وسع الرقيق ان يصبح حرا اذا ترهبن ما لم يطلبه سيده في غضون ثلاث سنوات وفيما عدا ذلك شاع الرق بكثرة وبصور شتى كما كان الحال ايام الحكم الوثني . وقد صرحت مجموعة القوانين المدنية التي جمعها احد الاباطرة المسيحيين بأن الرق سنة طبيعية، وحددت اقصى ثمن للعبد وفقا للمهنة التي يراد استخدامه فيها . وكان الزواج بين الأرقاء غير قانوني أما بين الأرقاء والأحرار فكان محرما ، ومن خالف ذلك وقع تحت طائلة العقاب الشديد . وكانت النتيجة الطبيعية هي التسري المطلق الذي كان رجال الكنيسة يعترفون به ويمارسونه .

وهكذا كان حال الرق في ظل أرقى القوانين المعروفة في العالم القديم وهي القوانين التي تمخضت عنها قرائح المفكرين في غضون ثلاثة عشر قرنا وتطعمت في اخر مرحلة من مراحل تطورها بتعاليم احدى الديانات الكبرى في العالم .

ولما أسس المتبربرون الغربيون والشماليون ملكهم على أنقاض الامبراطورية الرومانية شاع رقيق الاراضي ــ وهو الذي لم يكن معروفا عند الرومان ــ في جميع البلاد التي نزل المتبربرون فيها ، وذلك الى جانب الاسترقاق الشخصي وتكشف لنا الحقوق المختلفة التي تمتع بها السادة قبل تابعيهم وأقنان أراضيهم عن صورة بشعة من الفساد والانحطاط الخلقي . وكانت قوانين المتبربرين كقوانين الرومان تعد الرق سنة عادية من سنن

البشرية . واذا كان العبد يتمتع بحماية ما فقد كان يتمتع بها بوصفه ملكا لسيده الذي كان يملك ــ الى جانب الدولة ــ سلطة الموت والحيـاة عليــه .

ثم كانت الكنيسة ذاتها في المسيحية تملك بعض الأرقاء وتعتـرف صراحة بشرعية هذا النظام الجالب للشقاء . وأيد كبار المدنيين الاوروبيين الرق بتأثير الكنيسة وأصروا على فائدته ونفعه باعتباره وسيلة لمنع زيادة التسول والسرقة ، وبتأثير الكنيسة اقدم المسيحيون ذوو الثقافة العالية في الولايات الجنوبية من امريكا الشمالية على معاملة عبيدهم التعســاء ــ وكثير منهم من بنى جلدتهم ــ بأقصى ضروب القسوة وأسالوا الدماء انهارا للابقاء على هذه الآفة الاجتماعية بين ظهرانيهم . وكان اي انسان يجري في عرقه ادنى اثر من دم سلالة منحطة ــ مهما خفي ــ يتعـرض للاسترقاق بكل ما يترتب عليه من نتائج . وكان المسيحي الابيض لا يعترف بشرعية ذريته التي هي ثمرة اتصاله المحرم بجاريته الزنجية لانه لم يكن في وسعه أن يعقـد عليها عقدا شرعيـا قط . وكان في وسع ذريتـه الشرعية البيضاء ان تبيع في أي وقت ام اولاده غير الشرعيين ونسلها مهما بعدوا . وكان ذلك عجزا عن ادراك الروح التي انطوت عليها تعاليم المسيح والتي تنادي بأن الناس سواسية أمام الله .

وجاء الاسلام فلم يفرق بين الناس بسبب السلالة أو اللون فالابيض والاسود والمدني والجندي والحاكم والمحكوم كلهم يتمتعون بالمساواة التامة نظريا وعمليا . يختلط بعضهم ببعض دون تحفظ وازدراء .. في الحقول أو البيوت ، في الخيام او القصور ، في المساجد أو الاسواق ، وكان اول مؤذن في الاسلام ــ وهو مسلم صادق وصحابي جليل ــ عبدا أسود .

اما بالنسبة للنظم الاخرى فان الابيض قد يكون ندا للاسود فــي

ملكوت السموات ولكنه قطعا لا يكون كذلك في ملكوت هذه الحياة الدنيا .

وقد يرغمه القانون او طائفة اشربت في قلوبها حب الانسانية وغلت في عروقها دماء الحمية على منح اخيه الاسود حقوقه المدنية ولكن كبرياء العنصر واللون لا تعترف بأية مساواة بل تذهب الى حد مراعاة التفرقة الشديدة في بيوت الله .

وسدد الاسلام ضربة قاصمة الى نظام الرق وكان من الممكن انيزول الرق من الوجود كلية بزوال الجيل الذي يمارسه لولا تأصل جذوره في الامم المجاورة وميل الناس بطبعهم الى الانحراف عن جادة العدل والانصاف .

وقد قيل بحق انه من الطبيعي ـ نظرا لنزول شرائع الاسلام وأحكامه في مدى عشرين سنة ـ ان يقر الاسلام في بداية أمره ـ صراحة أو ضمنا ـ كثيراً من نظم الجاهلية التي ألغها الاسلام في النهاية ، ومن هذا الباب عادة الرق ، فقد كانت هذه الآفة متغلغلة في القوم الذين ظهر فيهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان السبيل الوحيد للقضاء عليها هو التشريع الذي يتسم بالرحمة والحكمة ، لا تحرير الأرقاء تحريراً كاملا ومفاجئا وهو الامر الذي كان مستحيلا من الناحية المادية والادبية ، ولذلك شرعت احكام سلبية وايجابية لا حد لها ، تفضي بالتدريج الى تحرير الأرقاء .

وكان من شأن اي سياسة تخالف ذلك ان تقضي الى انهيار الدولة الناشئة انهياراً تاما .

وأكثر النبي صلى الله عليه وسلم من الترغيب في فك الرقاب ، وجعله افضل القربات الى الله ، وجعل العتق كفارة الفرائض التي يقصر المسلم

في ادائها ، واجاز للعبد ان يشتري حريته بأجر خدمته ، واذ لم يكن لديه المال ، الذي كوتب عليه ، وأراد كسبه عن طريق الاشتغال بعمل آخر سمح له بترك مولاه بعد الاتفاق معه على ذلك • ونص ايضا على دفع بعض المبالغ من بيت المال الى الارقاء ليشتروا بها حريتهم كما نص على وجوب تحرير العبد ــ في بعض الاحوال ــ بدون اعتراض سيده : بل على الرغم من ارادته • وكان العقد او الاتفاق الذي يظهر فيه ادنى شك يفسر لصالح العبد ، واذا صدر من السيد ادنى وعد بتحرير عبده وجبت له الحرية • وأوصى المشرع بمعاملة العبد كما يعامل القريب والجار وابن السبيل وحث على تحرير الرقاب الى ابعد حد ، ومن ذلك انه اذا كاتب السيد عبده على مال أتاه منه شيئا عملا بقوله تعالى : « وآتوهم من مال الله الذي آتاكم » •

ونهى السيد عن اكراه فتياته على البغاء « ومن يكرهن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم » وجعل تحرير الأرقاء كفارة للقتل الخطأ والحنث في اليمين ومقصد المشرع من هذه الاحكام كلها الا يجعل الرق ضربة لازب ، وانه لمن سوء استعمال الالفاظ ان يقال ان المعنى المفهوم من كلمة رق في اللغة الانجليزية ينطبق على اي وضع معروف في الشريعة الاسلامية•

وقد أمر المشرع بتحرير العبد الآبق الى بلاد الاسلام وقضى ان يكون ولد الأمة تابعا لحال ابيه وان تعتق ام الولد بموت سيدها وأوجب على السيد ان يكاتب عبده اذا طلب منه ذلك ، وان يخصص سهم من مال الزكاة لفداء العبيد وعتقهم ، وحرم على السيد ان يكلف عبده ما يؤوده ، أو يخاطب عبده أو أمته بهذا اللقب المهين بل يخاطبهما بلقب أحب من ذلك فيقول « فتاي وفتاتي » وأوصى بأن يطعم السيد عبده مما يأكله ويكسوه مما يلبسه • كما أوصى فوق ذلك ألا يفرق بأي حال من الاحوال بين الامة وولدها والاخ وأخيه والوالد وولده ، والزوجة وزوجها ، والقريب والقريبة •

بين المشرع قواعد المعاملات بين العبد وسيده ولم يقتصر في بيان الحقوق المتعلقة بذمة كل منهما قبل الاخر على جانب واحد كما هو الشأن في الديانات الاخرى ، ولكنه رأى ـ لسعة علمه بالطبيعة البشرية ـ ان الضرورة لا تدعو لبيان حق القوى على الضعيف بقدر ما تدعو الى بيان حق الضعيف على القوي فالاسلام لا يلصق بالرق ضربا من الخزي والعار ، ولكنه يعده امرا عارضا لا سنة طبيعية كما يعده القانون المدني وآباء الكنيسة ، وكثيرا ما كان زيد بن حارثة ـ وهو الذي أنعم عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالعتق ـ يتولى امرة الجيوش دون ان يعترض كبار القادة الذين يعملون تحت امرته ، وتولى ابنه اسامة امرة الحملة التي سيرها ابو بكر الى الروم ، وكان «قطب الدين اول ملوك» دلهي والمؤسس الحقيقي للامبراطورية الاسلامية في الهند ـ عبدا مملوكا .

والواقع ان العبد الرقيق استطاع ان يكون الوزير الاكبر في الدولة الاسلامية ، وكان في استطاعته ان يتزوج بنت سيده ، ويصبح رب الاسرة دون ان يكون في ذلك اي عار واصبح الارقاء حكاما وأسسوا كثيرا من الممالك والدول . وكان والد محمود الغزنوي عبدا . فهل في وسع النظم الاخرى ان تدلنا على مثل ذلك ؟ .. هل في وسعها ان تدلنا في صفحات تاريخها على مثل هذه المعاملة الرحيمة التي تمتع بها الأرقاء في الاسلام ؟

مما تقدم كله يتضح بجلاء ان المشرع كان يعد الرق امرا مؤقتا وأن تقدم الافكار وتغير الظروف كفيلان بالقضاء عليه . وكثيرا ما يتحدث القرآن عن الأرقاء بقوله « ما ملكت ايمانكم » مشيرا بذلك الى وسيلة الحصول على الأرقاء والاماء . والواقع أن القرآن لم يقر سوى نوع واحد من الرق . وهو استرقاق الرجال الذين أسروا في حرب شرعية صحيحة . أي في جهاد شرعي . وجميع الامم الهمجية لا تخلي سبيل

الاسرى الا بدافع الانانية وحدها لكي تزيد من ثروة الفرد الآسر أو ثروة الامة كلها عن طريق بيعهم او الاستفادة بعملهم • وكان عرب الجاهلية يبقون على حياة اسراهم بقصد الانتفاع بهم على عادة الامم القديمة • ولما جاء النبي صلى الله عليه وسلم وجد هذه العادة بين قومه ، فسن أحكاما شديدة لهدايتهم بدلا من ان يعمد الى تقرير مبادىء نظرية وذكر أقوال غامضة فأمر ألا يسترق الا من أسروا في حرب شرعية حتى يفتدوا أنفسهم او يشتروا حريتهم بأجر خدمتهم ، ثم حث المسلمين على مساعدتهم اذا عجزوا عن ذلك مذكرا اياهم بالتبعات التي تقع على السيد نحو مملوكه• وكان ذلك كفيلا — في اغلب الاحيان ، بتحرير الأرقاء في نهاية الامر ، وشدد الاسلام النكير على اختطاف الارقاء وتجارة الرقيق التي كان يؤيدها الحكام المسيحيون وتقدمها اليهودية • وصرح بأن التاجر الذي يمارس تجارة الرقيق منبوذ من المجتمع وان تحرير الارقاء من افضل القربات ، وحرم بعبارة قاطعة أن يفرض الرق على المسلم• على أن يجب علينا أن نقول: انه مما يشين عددا كبيرا ممن ينتسبون الى الاسلام [1] انهم تجاهلوا تماما روح التعاليم الاسلامية مع تمسكهم او محاولتهم التمسك بمظاهرها، وسمحوا بانتشار الرق (مخالفين اوأمر نبيهم) بطريق الشراء وغير ذلك من الوسائل • ان حيازة الرقيق طبقا لاحكام القرآن مشروطة بالحرب الشرعية التي تشن — دفاعا عن النفس — على المعتدين من الكفار والمشركين ، وكانت اباحته ضمانا لتوفير اسباب السلامة للاسرى والمحافظة عليهم • ولو ان حالة الحرب التي تورطت فيها الجماعة الاسلامية الاولى بسبب عداوة القبائل والامم المجاورة توقفت لأمكن القضاء على الرق بطريقة طبيعية وهي الكف عن حيازة العبيد في المستقبل وتحرير الأرقاء الحاليين من العبودية • ولكن كثيرا من المسلمين استباحوا الرقيق اسوة بالنصارى واليهود وما زالوا يستبيحونه الان لحد ما ، اما لاتصالهم بالامم التي دب فيها الفساد في الشرق والغرب ، واتصالهم بالامم المتوحشة

في الشمال ، واما لان هذا النظام كان متأصلا في جميع طبقات المجتمع ، ولكن الهمج من التركمان وعرب افريقية الذين يعتزون بعمليات اختطاف الرقيق لا يمثلون الاسلام بمعناه الصحيح كما ان قبائل الجواشو المتوحشة التي تمرح في براري امريكا الجنوبية لا تمثل المسيحية • والرق يشبه تعدد الزوجات في انه نظام شاع بين الجنس البشري في احدى مراحل تطوره ، وقد استنفد بين الامم التي تدعي انها متحضرة ــ على الاقل ــ الضرورات التي دعت الى ممارسته ، ولا بد من زواله عاجلا او آجلا ، ومن ذلك يتضح ان الاسلام لم « يقدس » الرق كما قال بعض الحاقدين ولكنه عمل بكل الوسائل على الغائه والقضاء عليه بحصر وسائل حيازته في اضيق الحدود ولم يجر الاسلام في معالجة هذه المسألة الهامة على حكم الهوى فانه اذ اعلن المساواة الطبيعية بين البشر بأقوى العبارات لم يغض النظر عن العواقب الوخيمة التي كانت تنجم عن تحرير من وجدهم من الأرقاء • وذلك في عالم لم يكتمل فيه الاستعداد في ذلك الحين لتطبيق حرية الانسان ادبيا وفكريا •

وحرم النبي صلى الله عليه وسلم تشويه الجنس البشري بالخصي تحريما صريحا وشدد النكير على هذه العادة التي فشت في دولتي الروم والفرس على السواء • وكان شراء الرقيق غير معروف ايام الخلفاء الراشدين • ولا توجد رواية صحيحة على الاقل تثبت شراء عبد واحد في عهد من عهودهم •

ولكن لما استولى بنو امية على الحكم طرأ تغيير على روح المجتمع الاسلامي فكان معاوية اول خليفة ادخل في العالم الاسلامي عادة اقتناء العبيد بطريق الشراء واول من اقتبس من الروم استخدام الخصيان في حراسة النساء • وكان الامام جعفر الصادق ينهي عن الرق في ايام الخلفاء العباسيين الأول •

لقد آن الاوان الذي يجب فيه على الانسانية جمعاء ان ترفع صوتها ضد الرق على اختلاف صوره وأسمائه وعلى المسلمين بصفة خاصة ـ تكريما لنبيهم العظيم ـ ان يعملوا على تحرير انفسهم من أسر العبودية التي يفرضها عليهم الاستعمار العالمي ـ وقد حان اليوم الذي يجب فيه ان يدوي الصوت الذي اعلن الحرية والمساواة والاخوة التامة بين البشر بتلك القوى الجديدة المستمدة من الحياة الروحية والنفوذ الروحي اللذين استمرا اربعة عشر قرنا وعلى المسلمين ان يبرهنوا على زيف المطاعن التي توجه الى ذكرى نبيهم العظيم فيعلنوا بصريح العبارة ان الرق على مستوى الفرد أمر مستهجن في الدين مخالف للشرع اما الرق الذي يفرضه الاستعمار على كثير من الشعوب وخاصة العربية والاسلامية فان عدم القيام لقتاله وخلع اساره يعتبر مخالفة صريحة لروح الحياة في الاسلام .

روح الحياة وتعاليم الاسلام

اول شيء قدمه الاسلام للانسان في مجالات الحرية والكرامة حرية ذاته الشخصية اولا حتى يمكن لها ممارسة كل اعتبارات الحرية ان قدم اليه الحرية بكل مضمون انساني يدخل تحت الدلالة الواسعة لكل معاني الحرية ، فالاسلام كما سبق الاشارة الى ذلك قد نشأ في بيئة وجد فيها كل صور الرق التي كانت شائعة في العالم المعمور : فالرق عن طريق الاغارة والرق عن طريق الغزو والحرب ، والرق عن طريق البيع والشراء لكل اجيال العبيد ، والرق عن طريق عدم القدرة على الوفاء بالدين. كل هذا وغيره كان قد انتقل الى الجزيرة العربية وعرفته ومارسته بل واصبح يشكل الاساس الاقتصادي لحركة التجارة عند بعض القبائل التي كانت تشتغل بالتجارة وتسخر فيها طبقة العبيد ، فلما استقرت تعاليم الاسلام وآدابه في عصر صاحب الدعوة عليه السلام ألغى جميع أنواع الرق التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية .. الغى رق القرصنة والاختطاف ... الغى الرق الناشيء عن تجريد الانسان من حريته الشخصية بسبب بيع البعض الاولاد ، وألغى الرق الناشيء عن السيطرة والاستيلاء وليس في تاريخ الاسلام كله ولا حتى في تاريخ التشريع الاسلامي ما يمكن ان يعثر عليه الباحث ويجد فيه شبهة ان الاسلام قد أقر أي شكل من اشكال هذه الصور من الرق سوى الحالة الفريدة التي أرجأ امر القضاء عليها للقائد

او الحاكم طبقا لظروف موضوعية تتعلق بمصير اي عمل ثوري او اصلاحي يواجه تحديات وقوى مضادة والاحتمال كبير وأكيد في ان يدخل معها معارك وان يقدم تضحيات وهي حالة استرقاق أسرى الحروب ولا يجد اعداء الدين العالمي منفذا يصوره لهم خيالهم ويشجعهم عليه جهل مطبق بتعاليم دعوة الاسلام في مضمونها الانساني العالمي سوى مثل هذا المدخل ليقولوا : انالاسلام دين طبقي يقتني الاخاء ويستبقي العبيد وبذلكفيصبح بيئة نعمل التناقضات الطبقية التي تقتل جهد المكافحين وتحول دون مستقبلهم في وحدة عالمية يحفظون بها وجودهم وحقوقهم •

ومع ان الثابت تاريخيا عن طريق رواة ثقاة من امثال ابن سعد في طبقاته وكتب المسيرة جميعها ان الرسول عليه السلام حرر جميع العبيد الذين كانوا تحت يده ، وكان بينهم من الرقيق اسرى الحروب الا انه عليه السلام ايمانا منه بالمبادرة عملا بما يدعو اليه وكأنه يرد على هذه التهم التي ستوجه الى المسلمين قام بتحرير عبيده وكانوا تسعة وثلاثين ــ العبيد ثلاثون والاماء تسع ، الا ان الموقف رغم ذلك يحتاج منا الى دراسة • ان ننظر الجانب المتبقي فيما قدمه الاسلام للانسان في مجالات الحرية وخاصة الحرية الشخصية للانسان •

نقول ان الاسلام لم يرجىء من الحسم النهائي من انواع الرقيق الا صورة واحدة فقط من انواع كثيرة وهي استرقاق اسرى الحروب ، ذلك انه كما هو معروف عن الحروب منذ تاريخها القديم سواء عند الطرف الغالب والمغلوب ان يكون لديه اسرى من الطرف الاخر وفي حالة الانتصار لفريق على الاخر كان اسرى الفريق المهزوم يفقدونحريتهم بمجرد وقوعهم في الأسر ويصبحون ارقاء يباعون ويشترون •

والاسلام قبل ان يشكل خطرا على قوى التخلف والشر تعرض

للمقاومة وظل ثلاثة عشر عاما في مكة لا يعرف عن الرق اي نوع له وخاصة بالشكل الذي كان عليه نظام العبودية والسخرة ولم يقر الاسلام اي شكل من هذه الاشكال حتى فرض على المسلمين ان يدخلوا الحرب دفاعا عما تتعرض له معتقداتهم وعما يدعو اليه دينهم .

ومن هذه البداية فقط كان موقف الاسلام عند هذا الشكل من اشكال القيد على حرية سرى الحروب ولم يكن أكثر من الحجر المؤقت حتى يتضح الموقف وتزول الغمة ويصبح جند العدو لا يشكل خطرا يؤكد القرآن الكريم هذا المعنى صراحة في سورة القتال في الآية الرابعة : « حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فأمامنا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها » .

ولسنا هنا بصدد العمل الاسلامي حين طبق المسلمون تعاليم دينهم فيمن وقع في ايديهم من الاسرى واطلقوا سراحهم واعطوهم الحرية الكاملة « فصلاح الدين الايوبي » مثلا كان لديه من اسرى الصليبيين ، وهم الذين جاءوا لينشروا في البلاد الاسلامية الدمار والخراب تحت عنصرية بغيضة عددا كبيرا جدا عمل برأي علماء المسلمين واطلق الاسرى الذين كانوا تحت يده .

وضمير المسلمين بفضل تعاليم القرآن الكريم ضد الرق دائما ، وشغوف بالحرية ابدا ومتعلق بها يسعى اليها ويضحي من اجلها لقد كان لتعاليم الاسلام الفضل كل الفضل في المواقف البطولية والانسانية التي وقفها المسلمون في تاريخهم من اجل الحرية التي يحرص عليها دينهم ويدعو اليها .

لقد كان الخليفة « يعقوب المنصور الموحدي » في المغرب العربي مثلا اسلاميا رائعا حينما اطلق سراح من كان تحت يده من اسرى موقعة

ـ الأرك ـ الشهيرة في الاندلس وكانوا اكثر من عشرين الف مقاتل اطلق سراحهم الخليفة يعقوب بدون فداء .

وفوق كل هذا فان هناك من الاسس الموضوعية في الاسلام ما يجعل أمر القضاء على هذا الشكل من اشكال الرق ان وقع ضرورة اسلامية انسانية وقد وضع الاسلام للقضاء عليه اساليب كثيرة بعضها اخذ شكل الامر الحاسم بانه اذا اراد الرقيق ان يتخلص من مالكه فله ان يفعل وان يشتري حريته وهذا التشريع العجيب الذي يخول للمملوك ان يشتري حريته متى شاءولا يجوز للمالك ان يمنعه ذلك ابدا يسمى في التشريع الاسلامي ـ بالمكاتبة ـ ويقول القرآن الكريم فيها « .. والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذي أتاكم » .

وهناك اساليب اخرى كثيرة منها : كفارة اليمين والظهار والفطر عمدا في رمضان وقتل الخطأ ، فان على المسلم في كل ذلك ان يحرر رقيقا مما تحت يده .

ويطمع المسلم في ثواب ربه مؤملا أن يخفف عنه معاصيه بأن يتقدم اليه باطلاق سراح عبد ويهبه الحرية الكاملة وكل فرص الحياة ففيما يرويه البخاري في الجزء الثاني صفحة ٥٧ قول الرسول محمد عليه السلام « ... من اعتق رقبة اعتق الله بكل عضو منها عضوا من النار » ...

والقرآن الكريم يرغب المسلمين في الاقبال على اطلاق سراح من في ايديهم بهذا البيان الذي يملأ النفس ايمانا وثقة بمنهج هذا الدين حين لم يعمد الى ازالة اي شكل من اشكال التناقض الى اساليب الدم او الصراع وانما نفذ الى اعماق النفس البشرية فهزها لتعطي كل ما عندها من حنان وولاء للانسانية كلها ، ان لا تكون لواحد من الناس على الاخر يدا او

جبروتا يمنع بهما او يحجر على وجوده وحريته ، يقول القرآن الكريم يحث المسلمين ويدفعهم الى مزيد من التعلق بالحرية : « فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة » •

وبرغم كل المناهج الانسانية التي يلجأ اليها الاسلام في الحرص على ان تكون هناك طبقات رقيقة واخرى سيدة فانه يوجد في تاريخ الاسلام من التشريع الاسلامي الوضعي والذي عمل فيه الفكر الاسلامي عمله على يد المسلمين ما يعتبر مادة فكر تقدمي واسلوب تطبيق للقضاء على كل اشكال الرق وهو المصرف الخامس من مصارف الزكاة وهذا باب واسع وكبير جدا يسع كل عبيد الدنيا لو ذهبوا اليه يطلبون بهداية الاسلام حق الحياة والحرية فيما لو كانت للمسلمين قائمة حق في دنيا الناس •

لقد عين الله على المسلمين في اموالهم نصيبا معينا وقدر له اهل الحاجة ووجوه الانفاق وما عين له مال المسلمين من وجوه للخير العام لا يمكن ان تصرف في غيرها مهما كانت الضرورة • ومن مصاريف الزكاة باب ارصد لتحرير الرقاب والعمل على اشاعة الحرية اينما وجد المسلمون وكانت لهم دنيا وسواء كان تحرير رقاب المسلمين ام غيرهم فان الحرية مطلب اسلامي يسعى اليه الاسلام ويدفع ثمنه مهما كان نوع هذا الثمن وهكذا يمضي الاسلام في نهجه الانساني المسالم يصنع الحرية للحياة في كل مظهر لها حتى يكون انسان الحياة الحرة الكريمة الانسان الذي يتحمل عبء المسؤولية وعبء التكليف •

وبعد ان يضع الاسلام الانسان المكلف المسؤول المنوط به المسؤولية كل المسؤولية والمكلف في كل ما وسعه في اطار من الحرية التي ترفض كل اساليب الحجر الحديثة تحت اسر من الدكتاتورية واللاتوقراطية او حرية الحزب او الجبهة الى اخره •• يقدم الاسلام الانسان الى الحياة لينتقل

بها الى الامام خطوة او خطوات وانما ليثب بها دفعات ودفعات فمـاذا فعل انسان الاسلام او ما الذي يمكن ان يفعله انسان الاسلام للحيـاة بهذا الروح وقد اصبح الحال من التعقيد المادي والاجتماعي بسبب مـا ورط فيه العلم الانسانية بحيث بدا انه لا يرجى لعمل الخير ادنى تأثير فيما تسير فيه الانسانية الى الهاوية التي يرسمها الاستعماريون الرأسماليون للانسانية وللحياة في الصفحات التالية ملامح عامة في ايجاز عن انسـان الاسلام حين هيأ له الاسلام تصوره العقائدي عن قيمة وجوده الحركي في هذه الحياة بالاخذ والعطاء .

من الجوانب الايجابية في التوجيه الاسلامي

الانسان الذي صنعه الاسلام للحياة مثالا للتقدم ونموذجا لفدائية الارادة الانسانية هو ذلك الفرد الايجابي الذي يربط وجوده بمجتمعه ولا تعزله عنه انانية أو ذاتية خاصة تحجب امكانياته او تبعده عن اداء ما يمكن ان يوكل اليه القيام به في خدمة مجتمع يهدف الاسلام دائما الى ترقيه وتقدمه استجابة لسنة التطور وايمانا بأن طريق الحياة منطلق الى كل جديد من اجل خير الانسانية ورخائها واشاعة السلام واستقراره .

وايجابية انسان الاسلام حين لا يعزل نفسه عن واقع الحياة والانخراط فيها لا تعرف الكينونة المستقلة ولا الانطلاق الفردي الطائش وايضا ولا الموقف الجامد الذي يعبر عن صلف وغباء ، او الموقف الهزيل الذي يفصح عن نكوص الفرد وتهربه من تحمل عبء دور يوكل اليه تجاه ما يجري حوله وانما انسان الاسلام فرد في مجموع كبير هو الحياة كلها . ولا ايمان لانسان الاسلام بما يقدم من جهد او طاقة الا ان يكون في خير هذا المجموع وهذا الاساس السلوكي في عقيدة المسلم وتربية الاسلام لابنائه مستمد اصلا من عقيدته الدينية بكل مكوناتها وشمولها حين عرف المسلم ان كل الافعال انما تتجه الى اله واحد يحاسب على الخير والشر وحين آمن المسلم ان الاسلام يربط افراده جميعا في وحدة عالمية بعقيدة واحدة تتجه ومكوناتها الى فاعلها الاول ومبدعها الخلاق وحده.

« ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم وخمسة الا هو سادسهم ولا ادنى من ذلك ولا اكثر ا لاوهو معهم اينما كانوا ينبئهم بما عملوا يوم القيـامة ان الله بكل شيء عليم » •

وايجابية المسلم حين وكل اليه امر العمل والانطلاق به ما وسعتـه طاقته يختلف عن غيره من الافراد فهو بتصوره الاسلامي يجد في نتاج عمله ثمرتين يباشر احداهما بحسه وجوارحه حين يكون في واقع مادي وبروحه وقلبه حين يناط به معنى من الامور التعبدية ، وثمرة مختزنة في اعمـاق نفسه يلقاها عند ربه ليحيا بها الحياة الثانية التي يؤمن بها وتقوم عليهـا معاني جمة في عقيدته « وأما من آمن وعمل صالحا فله الجزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً » •

ومع ايمان المسلم بضرورة ان تكون مجابهته للواقع هي ثمرة ما يمكن ان يكون مناط سؤاله وثوابه وعقابه ، فانه فوق ذلك يؤمن ان كلمجريات الحوادث انما هي تسير بقوانين الهية تعمل عملها دائما اذا ما كانت طبيعتها المضي او النفاد بشكل أو بآخر على اي وجه من الوجوه دون ان يكون لطاقة الافراد بل ولا لوجودهم جميعه ما يمكن ذكره ، فلقد علم الاسلام انسانه بالمثال ان امرا من الامور العظام بل موقفا رهيبا وعميقا تعـرض له صاحب دعوة الاسلام عليه السلام في بدء امر الدعوة حين اشتد هجوم العدو وأرادوا التخلص منه والقضاء عليه وعلى دعوته ، ووجهت الدعوة الى حماية النبي ومؤازرته من جماهير اتباعه والمؤمنين به ومن الذيـن وجهت اليهم الدعوة جميعا ، ومع كل ضمانات المؤمنين الصادقينوايمانهم، ينزل القرآن ليؤكد لهم ان جهودهم عوامل مساعدة فقط وان ما يقدمونه انما هو شكل من اشكال الالتزام ذلك ان امر المطلوب وهو النصرة قد تم ووقع قبل ان يباشره « •• ألا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذيـن كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنـا

فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم » ••

والمسلم بأساس من هذا المعتقد يرى في ربه هذه القوة الايجابية فترتبط به نفسه ، ويرى انه بما يعمل انما يؤدي واقعا مقصودا لله ، فاذا لم ينهض بهذا الواقع على اكرم وجه وافضل سبيل فانه انما يفصم نفسه عن الله ويبعد وجوده عنه •

ومن هذا المنطلق وجه الاسلام المسلمين الى استغلال كل ما لديهم بالخلق والابتكار والابداع على ان لا يكون تقليدا او تخبطا وانفلاتا بغير هدى وراء متاهات من التشتت والتفتت وانما بالمنهج العلمي الذي يضمن سلامة الاصول العامة وما يترتب عليها ويحفظ الوجود العام ماديا وبشريا ويرقيه ويثريه حتى لا يكون الضياع المفاجىء •

« وللذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاء لم يجده شيئا وجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذ اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » •

وهكذا يؤكد الاسلام للمسلمين موقف الايجابية المبدعة والخلاقة حين يتحرر صاحبها من التقليد ويعمل عامل الثقة والايمان عمله بما يكفل ان يكون انسان الاسلام هو تلك الارادة التي تنطلق تعبر عما هي معدة له اصلا وهو ربط علاقة الانسان بربه « •• سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم آنه الحق » •

والاسلام في جميع ما يهدف اليه حريص كل الحرص في تعاليمه على

عمل النوع البشري وتطوير جهده وامكانياته وآيات كتاب الاسلام في ذلك كثيرة ويرى الاسلام الى حد الالزام ان الوسيلة التي لا بديل عنها لتحقيق ما تصبو اليه البشرية من تقدم في ظل خير وسلام حقيقيين انما هي في العقل الانساني ذلك العقل الذي يتأبى على الانغلاق او غلو المذهبية المجحفة وانما العقل القلبي الذي يملأ الوجدان ولا يعرف الاسلام للانسان عقلا هاديا سواه « .. ألهم قلوب يعقلون بها ام لهم آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمي الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » ..

وهذا العقل الاسلامي هو مركز التفكير في ملكوت السموات والارض وهو الذي يرهف السمع حين يقف الانسان المسلم يتلقى بقلبه من السماء يسمع آيات رب الارض والسماء فلا اقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، « فيهتز كل وجوده وتنفعل اعماقه ، لا بتمتمة وأدعية وتعاويذ لا تفعل في النفس اكثر مما تحدثه ظواهر العباد الوثنية حين يتقرب اليها دعاتها والمؤمنون بها ، وانما انسان الاسلام حين تمتلىء نفسه بمثل ذلك التوجيه لو تعلمون » يدرك ان امكانية علم مواقع النجوم قيمة مدعو اليها الانسان المسلم قبل غيره فيكون منطلقه البحث العلمي عن هذا المجهول الذي سيسلمه الى ابعاد وابعاد يصبح بعدها انسان الحياة العلمية والارتقاء بها هو انسان الاسلام .

يقول الاستاذ الامام الاكبر الشيخ المرحوم محمود شلتوت في كتابه « من توجيهات الاسلام » المطبوع عام ١٩٥٩ الادارة العامة للثقافة الاسلامية بالازهر صفحة ١٣٣ :

لقد ارتفع القرآن بالعقل وسجل ان اهماله في الدنيا سيكون سببا في عذاب الاخرة فقال حكاية لما يجري على السنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والعمل به : لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير .

وكذلك ارتفع العلم وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة « شهد الله ان لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط » ثـم جعلهم وحدهم الذين يخشون الله من عباده بما ادركوا من اثار قدرتـه وعظمته فقال بعد ان لفت انظار الناس الى نعم الله واياته « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

يقول الشيخ محمود شلتوت :

وكان من مقتضيات الاسـلام دين العقل ودين العلم انه حـذر اتباع الظن وجعل البرهان والحجة اساس الايمان « .. قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان انتم الا تخرصون » .. وما لهم به من علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا ـ ولاتقف ما ليس لك به علم انالسمع والبصر والفؤاد كل اولئـك كان عنـه مسؤولا » . .

وقد رفع من شأنه فعبر عنه بالسلطان « ان الذين يجادلون في اياتنا بغير سلطان اتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين امنوا » .. ان الذيـن يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم في صدورهم الاكبر ما هـم ببالغيه » ، وهكذا كان العقل ، وكان العلم والبرهان في نظـر القرآن ، وهكذا تقترن ايجابية الانسان المسلم بالعقل والعلم حتى لكأن تلازمـا ضروريا يربط سلوك المسلم تجاه كل حياته من فكر او عمل بالعقل والعلم فلا يسمح الاسلام لافراده أن يكونوا عشوائيين او مقلدين أو متواكلين، وانما بالمنهاجية التي تفكر وتخطط وتدرس ثم تنزل الى الواقع لتجنـي ثمار خير متوقع لا مفاجآت مجهول لم تكن تدرك من اسبابه مقدمـات وجوده بينما عدم العلم بها هو مصدر كل ما يكون من مضاعفات قـد تكون قيدا لفرض تخلف وتأخر وضعف في شكل ما من اشكال الحيـاة

العامة في المجتمع • وخوفا من ان تكون بيئة الانسان مرتعا لكل ما يترتب على امراض كتلك ، فان ايجابية التوجيه الاسلامي هي التي علمت المسلم منطق التطور والتفسير العلمي للتاريخ للوقوف على كل اسرار ما في التاريخ الانساني من تناقضات او صراعات عملت فيها الانسانية الاولى جهدها فكان على الذين من بعدهم ان يتقوا المخاطر ويحذروا التخلف • لقد ادرك المسلم الاول قيمة العلمية التاريخية وأثر منهجها حين قال له القرآن « ••• اولم يسيرو في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » •

فانطلق على هذا الاساس يقدم للحياة وللانسانية كلها كل يوم الابداع والتجديد •

ولو عمل المسلمون بما حاول نهجه الاولون وواصلوا بالمعرفة العلمية الانطلاق في ملكوت السموات والارض لا تتموا ما قدم الاولون في مجال الزيادة البناء الضخم لمجالات الثورة الاجتماعية والاقتصادية والتطوير العمراني الذي امتد واتسع حتى عمق بالمثال الذي لم يكن له من مثيل في حضارات العالم المعمور قبل الاسلام ولم تستطعه امكانيات التقدم المادي بعد الاسلام حين كانت بلاد المسلمين على امتداد كل قارات العالم يحكمها رجل يمثل امثل النظم الديموقراطية وارقى اشكال البساطة الاجتماعية عندما يأتي رجل من عامة جماهير الشعب ويقول له ان ابن الامير قد اعتدى علي وضربني لا لسبب الا انه سابقني فسبقته فجاء بابن الامير ليقتص منه ، وليضرب امام جمع من جماهير الكادحين من مثل اولئك الذين اهين امامهم ودون تعقيد او كمهانة يتأكد بالتطبيق ان الناس جميعا امام منهج الاسلام كأسنان المشط ولا فضل لواحد منهم على الاخر الا بمقدار ما يقدم للحياة من خير وما يبذل من جهد ومشقة في خدمة الحياة • وعلى نفس النهج الاسلامي فان كل ما يقدمه المسلم من سلوك

ومظاهر عبادة انما هو في الاصل والاساس فوق الالتزام المطلق لمعنى التدين للبناء ولخير الانسانية لا للهدم او للعمل الفئوي او الطبقي ، وما يقدمه المسلم من جهد انما هو في خدمة الحق والحياة والحق بمعناه المطلق هو كل مبتغى المسلم حين يعمل « •• والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » ••

والعمل الصالح كمظهر ايجابي في حياة المسلم هو مبتغاه الوحيدالذي لا يعرف له متكئا سواه وهو كل ما يرجوه فيما يقدم من جهد او تضحية ومن اثر ذلك ان المسلم مهما عمل فيه التوكل وهو ليس من اساسيات الاسلام فانه ما ان ينخرط في سلك الجماعة فان اساسا عميقا من مكوناته يدفعه دفعا الى انكار الذات والتفاني في اداء ما يعمل ، وما اسرع ما تعمل الحوافز النفسية عملها في اعماقه حين يتلى عليه من كلام صاحب الدعوة عليه السلام « يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ الى النار وعليها فيصبح المسلم اقوى ما يكون حين يندمج مع الجماعة يعمل لها ويؤمن بها ، ذلك ان اعماق المسلم مستعدة دائما لان تعيش كل تقدم بل وتقوده وتبعث فيه كل عوامل الخلق والابداع من اجل غد تقدمي يحفظ للانسانية كل مظاهر التكريم الانساني والانطلاق نحو خير الانسان وسعادته .

المبحث الثاني

الاسس النفسية في علاقة الفرد بالجماعة

القرآن ومنهجه في التربية النفسية للجهاد

الجوانب السلوكية في شخصية المسلم

مجابهة الاسلام للحرب النفسية

اخطار الحرب النفسية ضد المسلمين

الاسس النفسية للدعوة الاسلامية

الاسس النفسية في علاقة الفرد بالجماعة

يقول الحق تبارك وتعالى :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك واعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين » (آل عمران ـ ١٥٩) •

توضح الآية الكريمة للنبي الامين المصطفى صلى الله عليه وسلم الطريق الى قلوب الناس ••• أن يلين لهم ولا يكون فظا غليظ القلب والا انفضوا من حوله وتتبدد دعوته وتتوه كلمة الله بين الناس لا ينصتون ولا يسمعون بل منفضين مستدبرين ثم تردف الآية الكريمة طريق كلمة الله الى اسماع الناس وقلوبهم آن آعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر •

فلين العريكة اذن وتجنب الفظاظة والغلظة ثم العفو عن المخطئين وطلب المغفرة للضالين ومشاورة الناس في أمورهم ترفق القلوب وتفتح الآذان لكلمة الله وتمهد الطريق الى الارتباط بها والايمان بصاحبها عز وجل وحاملها عليه الصلاة والسلام •

وصاحب الدعوة أي صاحب دعوة تقوم مهمته على تحويل أذهان

الناس وتطوير مفاهيمهم وربطهم بما يقول •• وقد تختلف الدعـوة بين مجرد بيع سلعة ما الى تطوير مبادىء الناس وعقائدهم الدينية او السياسية ولما كان علم النفس هو علم دراسة السلـوك الانساني فقـد استخـدم وطبقت نظرياته على أوسع مدى فيما بعد الخمس الاول من هذا القـرن أي منذ أعقاب الحرب العالمية الاولى •• استخـدم في الترويج للسلـع التجارية وفن الاعلان واستخدم كذلك في الدعايات المذهبية السياسيـة كما استخدم كسلاح أساسي في المعارك منذ قديم الزمان تحت اسم الحرب النفسية او حرب الاعصاب •

ولقد أيد الله سبحانه وتعالى أنبياءه بالمعجـزات ليربط أقوامهـم بالرسالات المنزلة عليهم وكأمثلة ونماذج نقول أنه أيد موسى عليه السلام بقوة السحر التي بزت سحر سحرة فرعون وأنه أيد عيسى بالقـدرة على الكلام طفلا وليدا ثم كان محمد صلى الله عليه وسلم •• وكانت معجزته الكلمة ••• الكلمة التي تعيش وتبقى ما بقي ذهن انسان ، الكلمة التي تخلد أبدا مضيئة هادية عالية لا يأتيها باطـل من أمامها ولا من خلفهـا « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » • (الحجر ــ ٩) •

وكما أيدت كلمة الله محمدا الرسول العظيم من قبل تستطيـع أن تأخذ بيد كل من حملها تؤيده وتزكيه وتشد أزره وتفتح له آذان الناس وقلوبهم وصدورهم •

فكلمة الحق تبارك وتعالى في القرآن الكريم انما هي دعوة لتحدي العقل والذكاء البشري كلما سبح في لججها كلما فاز بالصيد الوفير وكلما غاص في أعماقها كلما أصاب من لآلئها ومرجانها ما يغني ويسمن في الدنيا والآخرة ومن هنا دعانا ذو الجلال والاكرام أن نتدبر في ملكوته ونستغرق في التفكير في ابداعه جريـا وراء المعرفة وسعيـا وراء العلـم ، وآيات

القرآن الكريم وعباراتــه اذا ما ناقشناهــا مناقشة موضوعية مجــردة باعتبارها لغة وعلم نجد أنها تشد قارئها وتربط المتبصر فيها وتأسر المهتم بها باعتبارها مواد لغويــة وعلمية وفقهية وفلسفية عميقة الغور تكــاد تتأجج بالحياة واذ تنفلق لنا كل يوم آفاق جديــدة لتفهمها واستيعــاب مراميها ، ومن هنا نستطيع أن نقول أن آيات القرآن الكريم تصلــح أن تكون وحدها سبيل حامل أعباء الدعوة الى من يتفكر ويتدبر من الناس بل لعلها سبيله الوحيد ، ذلك أنها تثير في النفس الانسانية حبالاستطلاع والرغبة في المعرفة باعتبار أن مرونتها لها خاصية مقابلــة كل امرىء عنــد حدود ذكائه وقدرته على الفهم ، وحب الاستطلاع من الدوافع الهامة في النفس الانسانية لانها في الحقيقــة المسئولــة عن التطــورات العلميــة والاجتماعية التي عاشها الانسان .

وهناك مثل عربي مشهور ... (جوع كلبك يتبعك) أي احتفــظ بحاجة الناس لك يقبلون عليك ومن هنا تقوم الحقيقة الكبرى في ربط الفرد والجماعة . فآيات وعبارات القرآن الكريم تثير في الحقيقة أكثر من دافع لمن يقبل عليها في الاستزادة من فهمها وتدبر ما تحتويه من معان وآفاق .. ومن هنا كان القرآن عاملا أساسيا من عوامل الربط . لكن لدى العامة .. عامة الناس الذين تلهيهم الحياة الدنيا عن واجب البحث والتقصي والجري وراء المعرفة .. هؤلاء العامة من الناس يشغلهــم عن أمور دينهــم وعن حاجتهم للقرآن الكريم مشاغل كثيرة من جد ولهو ولهؤلاء يحتــاج الامر أن نتحسس طريقنا اليهم بدعوة الاسلام ليحسن ايمانهم ويصلح دينهــم ليتخذوا من صلاحهم في الدنيا سببا وسبيلا لصلاحهم في الآخرة . وحتى نستطيع أن نناقش أمر هؤلاء يحتــاج الامر منا أن نلــم ببعض الألفــاظ المستخدم كل منها بمعنى معين في رحاب علم النفس ...

الدافـــع النفســـي : Psychologycal Drive

هو القوة الالهاميـــة التي تنبىء عن حاجـــات الفـــرد سواء أكانت احتياجات بدنية فيكون الدافع فسيولوجيا او احتياجات اجتماعية ليكون الدافع اجتماعيا • وطريقة الاعلان عن حاجة الانسان تكون بفرض حالـــة من التوتر ، مسببا ألما اذا ما كان الدافع فسيولوجيا مثل الجوع والعطش أو بسبب التوتر قلقا وانزعاجا وعدم ارتياح مثل الحرج او الخجل •

الادراك : الاستيعـــاب Perception

هو وصول الانسان لحالة الاقتناع او المعرفة بوجود مؤثر ما وقـــع في دائرة حساسية أحد حواسه (النظـــر ــ السمع ــ الشم ــ اللمس ــ الذوق) •

ويتأثر الادراك بمؤثرات موضوعية (خارجية) مثـــل خداع البصر والتمويه كما يتأثر بمؤثرات (ذاتية) تجعل المؤتمر الواحد يؤثر بأعمـــاق وفي اتجاهات مختلفة لدى مجموعة من الأفراد حتى لو تأثروا به معا • كما أن هناك بعض حـــالات المرض الهلوسة يدرك المرء فيها أمورا لا وجـــود لها • وهي طبعا حالات من الادراك الخيالي ألوهمي الكاذب •

الانفعـــال : Emotion

اختلفت في تعريفه المدارس النفسية المختلفة بل حتى فيداخل المدرسة النفسية ذات الافق العام الواحد نجد خلافا في تحديد معنى الانفعال •

الا أن الجميع قد اتفقوا على أن الانفعال يعتبر حالة بالغة التعقيـــد النفسي العصبي العضلي تتضمن تغييرات شاملة فيالتنفسوالنبض والافراز اللاقنوي (الافراز النابع من الغدد الصماء أي اللاقنوية) •

ويمكن القول أن الانفعال رد الفعل النفسي الذي ينتقل بمقتضـــاه الانسان الى حالة شديدة من التهيج والتوتر يخـــرج بمقتضاه عن حـــدود عاداته وتعلقه وما يتوقع منه •

والانفعال يدل فيما يدل على الاهتمام البالغ والتركيز حول الحديث الذي أدى اليه .

ننتقل بعد هذه التعريفات الى صلب موضوعنا بعد أن نأخذ منها أضواء تنفعنا في متابعته .

ولقد قلنا بأثر الدوافع على توجيه نشاط الانسان واهتمامه والدوافع اما أساسية غير متقلبة يولد بها الانسان ولا ينقلها عن غيره وهي بطبعها الدوافع التي تؤدي الى صيانة حياة الفرد مثل الخوف والجوع والعطش او تؤدي الى حفظ النوع مثل الدافع الجنسي والامومة والدوافع الاساسة كما رأينا أربعة نكررها فنقول انها الخوف ثم الجوع والعطش ثم الجنس ثم الامومة .

فالخوف يؤدي الى حفظ حياة الفرد عن طريق دفعه للابتعاد عن مصادر الخطر من حوله وهو في هذه الحدود ظاهرة طبيعية ولازمة للحياة وبدونها يفقد الانسان حاجته للحرص على حياته وتجنيب نفسه أي ألم أو أي أذى .

وقد يتطور الخوف تطوراً مرضيا ليكون خوفا شاذا مبالغا فيه لا يتفق مع الاوضاع العامة في الحياة قد يكون في ظاهره بعض المنطق ولكنه في مدله ودقته ينبيء عن طبيعته وسواسيته لا شك في أنها تنبيء عن مرض نفسي مثل الخوف الشاذ من القذارة مما يدفع الانسان الى غسل كل ما يقع تحت يده من مفاتيح ونقود وحوائط ويسرف في النظافة حتى يجعل من ذاته عبدا متفرغا لها أو يكاد .

او الخوف من الظلام او من المرتفعات او المناطق المغلقة او الخوف من المناطق المفتوحة او الاماكن المزدحمة والخوف من الوحدة وهكذا ...

وفي الحقيقة هناك رأي نرى أن له قدره وأهميته يتخذ من الخوف أصلا أساسيا للمتاعب النفسية بصفة عامة وفي هذا الموقف قد يحتاج الامر الى التعرف على الشجاعة فنعرضها بأنها القدرة على استخدام كل الامكانيات المتوفرة بالايجابية الكافية لمواجهة خطر ما .

ويكون الجبن هو مواجهة الخطر بسلبية تحرم الانسان من الاستفادة من امكانياته المتوفرة وقتذاك .

ومعنى ذلك أن الخوف يقوم في حالات الشجاعة كما في حالات الجبن وبالتالي لا يقوم الخوف كمعكوس للشجاعة او مضاد لها وعلى ذلك يكون الفرق بين الشجاع والجبان في مجرد السيطرة على الخوف والقدرة على حسن التصرف الايجابي باستخدام الامكانيات المتوفرة لمواجهة الخطر ومن هنا كان حسن التدريب وارتفاع مستواه كفيلا بحصر معالم الشجاعة في النفس البشرية ورفع مستواها . وبالتالي يكون العمل الايجابي الذي لا يتضمن استخدام الامكانيات المتوفرة مجرد حماقة خرقاء لا شجاعة فيها بالرغم من رأي العامة في ذلك وهذه النزعة تقوم اول ما تقوم جريا وراء اثبات الذات والاعتداد بها تحت ضغط والحاح من مشاعر بالنقص كما قد تقوم استجابة لمشاعر كامنة بالاثم او استمتاعا بايذاء الذات أو جريا لا واعيا نحو الانتحار والموت .

وبهذا نستطيع ان نقول اننا استطلعنا في دراسة مركزة الخوف كدافع أساسي .

ولو أنه ليس في النية الاستطراد في دراسة سائر الدوافع الاساسية غير المتقلبة حيث يكفينا هنا منها الاشارة الا انه حري بنا أن نستطلع معا الدافع الجنسي لأكثر من سبب :

١ ــ ارتباطه بالنشاط الشخصي والحياة الخاصة لكل منا .

٢ ـ الحاحه علينا في مراحل العمر المختلفة .

٣ ـ موجة التحلل اللااخلاقي التي تكاد تنزع عن الانسان انسانيته والتي تغطي الانتاج الادبي والفني في ضوء المدنية الغربية .

٥ ـ وقوع كثير من الشباب تحت ضغطه فرائس القلق النفسي والوسوسة والشكوك المرضية وما يقال عن افتقاد الارادة والخوف من المرض ومشاعر النقص والذنب غير الواعية .

والدافع النفسي دافع أساسي طبيعي لا غبار عليه في حدود الاخلاقيات التي ارتضاها المجتمع وأقرها الدين . وعلى ذلك يكون وصم الدافع الجنسي بالحيوانية وبالهيبية فيه زيف وتضليل كما أن فيه اعلان عن متاعب نفسية يعاني منها من اختار هذه الصفات للدافع الجنسي .

وحري بنا في مجال دراستنا ان تتسع صدورنا وتنفتح آذاننا لنلم بالحقائق من حولنا فالدافع الجنسي لم يخلقه فينا الا الله سبحانه الخالق البارىء ولا يمكن أن يقصد به الا الخير . الخير للفرد والجماعة على السواء . فاذا ما اتجهنا به الى السوء فلا يعني هذا أنه دافع سوء ... وانما يعني أننا أسأنا توجيهه ... تماما مثل نعمة الطعام ينعم الله بها مثلا طعاما لذيذا وفيرا مستساغا ... فيقبل عليه النهم منا ويشبع ويزيد ويمتلىء ويستمرىء الزيادة وتصيبه التخمة والمرض وعسر الهضم فلا تعني هذه النتيجة أن الطعام ليس بنعمة كبرى من نعم الله أو أنه كان طعام سوء .. وانما يعني أننا أسأنا التعامل معه فأفسدنا على أنفسنا الفائدة منه ...

فالدافع الجنسي قصد به حفظ النوع ، وقد عني القرآن الكريم بالنكاح فذكرت مادته في الآيات الكريمة ثلاثة وعشرون مرة نظم فيها النشاط الجنسي وقنن له وبين الحرام فيه وبين الحلال وبين أين ينبني

الانسان صلاته الجنسية وتوسع علماء وأئمة الشريعة في الشرح والتفسير وتخريج مواد الشريعة الغراء من فيض الذكر الحكيم والاحاديث الشريفة والامثلة الطيبة التي ضربها لنا سيدنا المصطفى عليه الصلاة والسلام بسنن استننها وعلينا أن نتبعها ابتغاء مرضاة الله وصلاح أمرنا في الدنيا والآخرة وقامت على هذا التنظيم المتماسك المتين حقوق الناس على بعض وحقوقهم من بعض كما تم حفظ النسب وجعل من النكاح أسلوبا لربط وتوثيق صلات الناس بالنسب مع اعطاء الفرصة لسلامة الانجاب ومقاومة تسلل العلل من الآباء بالوراثة ولذلك وجدنا أئمة الكتب الاسلامية تتخذ من النكاح بابا هاما من أبواب الدراسة والتعرف بأهداف الاسلام وأسلوبه وفي احياء علوم الدين للامام الغزالي نجده يخصص للنكاح كتابا قائما بذاته أورد فيه بعض الاحاديث الشريفة التي تحض على النكاح فيه منها ...

« النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني » .
« النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي » .
«من ترك التزويج مخافة العيلة فليس منا » .
« من نكح لله وأنكح لله استحق ولاية الله » .
« من تزوج فقد أحرز شطر دينه فليتق الله في الشطر الثاني » .

وقد استعرض الامام الغزالي آراء العلماء في النكاح فقال .. أعلم ان العلماء قد اختلفوا في فضل النكاح فبالغ بعضهم فيه حتى زعم أنه أفضل التخلي لعبادة الله واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلي لعبادة الله مهما لم تتق النفس الى النكاح توقانا يشوش الحال ويدعو الى الوقاع وقال آخرون الافضل تركه في زماننا هذا وقد كان له فضيلة من قبل اذ لم تكن الانساب محظورة واخلاق النساء مذمومة ولا ينكشف الحق فيه الا بأن نقدم أولا ما ورد من الاخبار والآثار في

الترغيب فيه والترغيب عنه ثم نشرح فوائـد النكاح وغوائله حتى يتضح منها فضيلة النكاح وتركه في حـق كل من سلم من غوائله او لم يسلـم منهـا •

أما الفوائد فقد أجملها في خمس هي •••
الولد ـ كسر الشهوة ـ تدبير المنزل ـ كثرة العشيرة ـ مجاهـدة النفس •

كما أجمل آفات النكاح في ثلاث هي •••
العجز عن طلب الحلال ـ القصور عن القيام بحقهـن والصبر على اخلاقهن ـ الانشغال بالاهـل والولـد وحسن تدبير معيشتهم عن الله تعـالى •

ومعنى هذا أن الحديث والدراسة انما تدور حـول الزواج وهـو التكوين الاجتماعي الوحيد الذي يسمح فيه الاسلام بالنكاح •

وقد احتاج الامر لدراسة النشاط الجنسي حتى انتهوا الى علم جديد أسموه علم الجنس Sexology له بحوثه الاكاديمية ودراساته الا أنه لـم يرتق بعد الى حد وضع القوانين العلمية وتثبيتها كحقائق قائمة •

ولو عدنا الى الدافع الجنسي نجد ان الانسان عادة يجد في التفريغ الجنسي تخليصا له من اي توتر يصيبه الا ان التفريغ الجنسي لا يؤدي فعلا الى الخلاص من أي توتر أو انفعال آخر ولكن المتعة التي تصاحب هـذا التفريغ هي التي جعلت الكثيرين يتصورون عن خطأ أن متعة التفريغ فيها من الترضية ما يقضي على أي توتر أو على الأقل يتغلب عليها ••• وهنـا قامت عادات جنسية كثيرة تشيع بين الناس كوسواس ملح شديد الالحاح لا يجدون منه فكاكا ويعدون باللائمة على ما يسمونه قـوة ارادتهم فيرون

أنهم أعجز وأضعف م ن الخلاص من هذه العادات التي تعتبر عادة الاستمناء الذاتي أكثر شيوعا وبمقتضاها يحصل المرء عن طريق التعامل مع بدنه حد التفريغ الجنسي •• وهكذا يزج المرء بنفسه في حلقة مفرغة يتأرجح فيها بين العزم على الخلاص من عادته أيا كانت وبين العودة الى ممارستها وفي كل نقيض يصطدم بانفعال سلبي ينبىء عن عدم الرضا •• وفي هذه العملية ، يدخل كثير من الايحاء الذاتي وكثير من الانتماء على أساس أن كثيرين يشاركونه عادته ومن ناحية أخرى يجد نواةً دينية وتحذيرات اجتماعية تزيد شقاء وعذابا مما يعرضه للتدهور والوقوع فريسة لمتاعب ومشاكل نفسية قد يكون لها مدلول أو أكثر ذو طبيعة جنسية وقصارى القول أن هناك أسبابا كثيرة تدفع بالمرء الى البحث عن المتعة الجنسية كتعويض عما يكابده عادة في حياته ولعل أهمها :

١ ــ السرية فممارسة النشاط الجنسي يتطلب السرية فيخلص بذلك المرء من مراجعة الآخرين ونصائح الاكثر فهما وحسن توجيههم •

٢ ــ السهولة فلعل استثارة الدافع الجنسي والاستجابة له من أيسر ما يستطيع اليافع ان يقوم به أينما كان لدرجة أن هناك من يمارسه بانتظام حتى في قاعات الدراسة •

٣ ــ ميل اليافع الى التجربة والاستطلاع خصوصا في أعقاب البلوغ اذ يجد أنه قد فاز بامكانيات يتوق التعرف على كنهها ومداها •

٤ ــ طبيعة الراحة التي تصاحب التفريغ الجنسي اذ أنها بطبيعتها تستغرق انتباه الفرد وتنتشله من الظروف غير المؤاتية التي يمر بها ولو أنها تلقي به في وهدة الشعور بالاثم وعذاب الضعة والضياع ومواصلة الاخفاق •

يطول الحديث عن الدافع الجنسي حتى يخرج به عن مجال بحثنا ولو عدنا الى الأسس النفسية لربط الفرد والجماعة نجد أنه الى جوار الدوافع الاساسية الاربعة دوافع أخرى يكتسبها الانسان من التعامل مع المجتمع حيث تتفاعل خبراته مع دوافعه الاساسية ليتفرع منها مزيد من الدوافع حيث يكون لكل منها وقعه وأثره في السلوك الانساني فيما بعد.

وعلى حامل الدعوة أن يتعرف على الدوافع الغالبة لدى البيئة التي يتعامل معها على أساس أن هذه الدوافع الغالبة لا تمثل حاصل الدوافع لدى كل فرد من أفراد الجماعة وانما تمثل تفاعل الدوافع لدى الافراد خصوصا من كان منهم له أثره أو يسيطر بقدر ما على اتجاهات آراء الجماعة او تسلم له الجماعة بشكل او بآخر بقيادها . ولو راجعنا أية حملة اعلانية نجد أنها تكاد تقوم على نفس الاسس التي يجدر بحامل الدعوة أن يتبعها مع فارق بسيط أن الحملة الاعلانية تطلب من الانسان ماله يدفعه مقابل السلعة التي تروجها .

١ ــ أما حامل الدعوة فله مطمع لدى الانسان أعز كثيرا من مجرد مال أيا كان قدره .. بل لعل مطمعه هو أعز ما لدى أي انسان عقيدته ومبادئه ، ولذلك كان لزاما عليه أن يكون قدوة تحتذى في حدود الدعوة التي يدعو لها يعيش متمسكا بأهدافها مترسما خطاها متثبتا بحدودها لا يخرج عنها ولو بينه وبين نفسه حتى يؤمن الناس بصدقه في دعوته وحتى يتبعونه على الدرب اذا ما ارتضونه رائدا لهم ، فمن المستحيل أن ينجح انسان في دعوة لا يأخذ هو نفسه بها .

٢ ــ وبمجرد قيامه بواجب الدعوة وقعت عليه مسئولية اقامة فرص التفاهم والتلاقي بينه وبين الناس عليه هو أن يقيم جسور تفاهم بينه وبين الناس وعليه هو أن يصونها ويرعاها ويعمل أبدا على زيادتها ولا يرضى

بانتقاص واحد منها ولعل من أهــم أساليبه في ذلك البشاشة ... « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » والبشاشة تستوجب :

أ ــ المـرونـة
ب ــ سرعة الخاطر
ج ــ حسن التصرف
د ــ الامـانـة
هـ ــ الدقة في التعبير
و ــ حسن استخدام اللغــة
ز ــ سعة الافق الثقـافي
ح ــ الاصرار حتى النجاح
ط ــ المـرح
ي ــ الصبر على أعباء الناس
ك ــ الـذكـاء

٣ ــ وعلى حامل الدعوة ان يثبر ويحصر احتياجات الناس عن طريق التعرف على الدوافع الغالبة لديهم ويتخذ من هذه الاحتياجات سبيلا لربطهم بالدعوة على اساس من ايجاد وايضاح نقط التلاقي بين هذه الاحتياجات وبين تفاصيل الدعوة .

٤ ــ ويعمد حامل الدعوة الى تحليل هذه الاحتياجات لعناصرهـا الانسانية وكشف منابعها الاصيلة لامكان ايجاد حلول منطقية لكل منهـا وهو امر معقد يتطلب اقامة صلات طيبة بالمسئولين عن مرافق الخدمـات بالبيئة وكذلك على طبع السلطان بها واقامة صلات حسنة بين أوسع دائرة انسانية في البيئة ليجعل حامل الدعوة من كلمته وزنا يتعذر اهمالـه او التهاون في الاخذ به في حدود ما تنطق به من حق ومراعـاة حاجات أغلب الناس .

٥ ـ الجدير بحامل الدعوة ان يتعامل مع اكبر عدد ممكن مـن الحواس في دعوته ، فكل حاسة ترتبط بدعوته او تنفعل بها انما هي رباط يربط الناس به .

٦ ـ لا يكتفي حامل الدعوة بالدوافع الغالبة بل يجعل من ديدنه ان يثير هو بنفسه دوافع من مصلحتـه ان تثور على اساس ان تكـون بطبيعتها لها ارتباط بدعوته فكل دافع يتجه الى الدعوة انما هو جسر متين ثابت يربط صاحب الدافع بالدعوة .

٧ ـ وفي نشاط حامل الدعوة وتحركاته يكون اسلوبه اجتذاب وتحدي معرفة الافراد وذكاءهم وثقافة كل منهم والتحدي هنا لا يعنـي المنافسة او المعركة وانما يعني اثارة مكامن هذه القوى لدى الافراد حتى يجد في ارتباطه بالدعوة صورة مـن صور التفوق والامان الاجتماعـي يتضمن الاعتراف بامكانياته وقدراته الجديرة بالاحترام .

٨ ـ واخيرا جدير بحامل الدعـوة الا يتوقف ولا يجعـل لنفسه موعدا للعمل يتحرك خلاله فيجعل من الدعوة حياتـه لا يكف ولا يتوقف ولا يكل عن الترويج لدعوته في كـل مكان ولدى كل الناس وفي كـل وقت وبقدر ما يجعل حامل الدعوة من دعوته هدفا لحياته قاطبة بقدر ما يجد فرصا ارحب لتحقيق النجاح .

ان ربط الفرد والجماعة بدعوة ما هو المسألة الكبرى والامانة التي لا يحتملها الا قادر أمين مؤمن .

القرآن ومنهجه في التربية النفسية الجهاد

(١) « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

(البقرة — ٢١٦)

(٢) « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدر قوم مؤمنين » .

(التوبة — ١٤)

(٣) « فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرةومن يقاتل في سبيل الله فليقتل او يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » .

(النساء — ٧٤)

(٤) « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وازواجكم وعشيرتكم وامــوال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ولا يهدي القوم الفاسقين » .

(التوبة ٢٤)

« ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأمولهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض .

(٥) والذيـن آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » •
(التوبة ــ ٧٤)

(٦) « ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغني عن العالمين » •
(العنكبوت ــ ٦)

(٧) « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم • وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » •
(الصف ــ ١٠ : ١٣)

من الآيات البينات الكريمات ومن كثيرات غيرها جاءت في الذكر الحكيم يجد المؤمن ان الجهاد في سبيل الله انما هو فرض لا يحسن الايمان الا به (التوبة ــ ٧٤) والدفاع عن النفس والدفاع عن الوطن والدفاع عن الناس والدفاع عن العرض انما هو جهاد في سبيل الله •

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » •
(الحج ــ ٣٩)

« واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم كذلك جزاء الكافرين » • (البقرة ــ ١٩١)

ولو رجعنا للتاريخ الاسلامي الاول لوجدنا ان صبر المسلمين وصمودهم ثم جهادهم بالمال والنفس وحسن بلائهم في القتال ، كل هذا

كان الاسلوب الاسلامي لتثبيت كلمة الله على الارض ولتكون كلمتــه عز وجل هي العليا • ومن ابرز سمات فرض الجهاد انه بالتطوع لا قسر فيه ولا اجبار ••

« نقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا والله اشد بأسا وأشد تنكيلا » •

(النساء ــ ٨٤)

والحديث الى النبي الكريــم الا يسوق الناس سوقا للقتــال وانما ينتهي أمره معهم فيه عند موقــف التحريض والحض والحــث فلا يكلف بالقتال والجهاد الا نفسه •

ويطمئن الله تبارك وتعالى المؤمنين الذيــن قد يضيقون بالقتــال ويكرهونه فيقول لهم •• « عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » فهو وحده يعلم •• وهم لا يعلمون •

والمهم في القتال في الفهــم الاسلامي ان النصر لا يأتي بقعود الناس وتخليهم عن القتال بدعوى ان النصر من عند الله يؤتيه ولا شك القائلين بما يقول فالنصر لا يستحقه •

(١) الا العاملون له الشارين الحياة الدنيا بالآخرة (النساء ــ ٧٤)

(٢) الذين احسنوا الاستعداد لقتال المعتدين •••

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا مــن شيء في سبيل الله يوف اليكم وانكم لا تظلمون » •

(الانفال ــ ٦٠)

(٣) المتآلفون لمواجهة العدو لا يتخلف منهم أحد •

« •••وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة وأعلموا ان اللــه مع المتقين » •

(من التوبة ــ ٣٦)

(٤) المعبأون للقتال كل امكانياتهم فلا يبخلوا على نصر الله بقـدرة من قدراتهم او طاقة من طاقاتهم ، لا يبخلون بمال او حياة .

« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا ، بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

(التوبة ـــ ٤١)

(٥) المتماسكون المنتظمون في المعركة فلا يفرقهم لقاء العدو .

« ان الله يحب الذين يقتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» .

(الصف ـــ ٤)

(٦) الزاحفون المقبلون على القتال

« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهـم الادبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا فالقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .

(الانفال ـــ ١٥ ، ١٦)

(٧) الغلاظ القساة على المعتدين

« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا ان الله مع المتقين »

(التوبة ـــ ١٢٣)

(٨) الثابتون الذين لا يبقون من عدوهم شيئا الا ضربوه

« اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذيـن آمنـوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان » .

(الانفال ـــ ١٢)

(٩) الحذرون الذين لا يقتلون الآخذون سلاحهم حتى وهـم في الصلاة الذين لا يأمنون لعدو غفلة أو مكرا .

« واذا كنت فيهم فأقمت الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة اخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم والذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى ان تضعوا أسلحتكم وخـذوا حذركم ان الله أعد للكافرين عذابا مهينا » .

(النساء ــ ١٠٢)

ولكم صورت هذه الآية الكريمة بالذات موقفنا يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ . فلقد غفل من أمروا منا أن يكونوا على حذر وتقاعسوا وكانت هذه الغفلة هي ما وده المعتدون الآثمون فمالوا ميلتهم وانفرط منا ما انفرط وكـان منهم ما كان والسبب هو أننا نسينا الحذر ولم نأخذه مع ان رئيسنا والقائد الاعلى نبه بوجوب الانتباه لما قد يحدث يوم الاثنين الخامس من يونيـه بالذات فمن لم يأخذ حذره يومذاك من المسؤولين انما فرط في دينه يوم فرط في تنفيذ ما صدر اليه من اوامر ما كان مثله في حاجة اليها لو راعى جانب الله ولو اخذ بأصول الوقاية التي تعتبر مسؤوليـة مباشرة مـن مسؤوليات القيادة على مستوياتها المختلفة .

(١٠) الصابرون المتصابرون المرابطون الصامدون [١] .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

(آل عمران ــ ٢٠٠)

(١١) الثابتون الذاكرون الله عند لقاء عدوهم [٢] .

---

(١) ، (٢) ــ راجع « الفلسفة الحديثـة في الميزان وتأسيس القواعـد في القرآن » ــ دكتور محمد بن فتح الله بدران

« يا أيها الذين آمنوا اذ لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » •

(الانفال ــ ٤٥)

(١٢) الاعداء الذين لا ينقض عهدهم ولا يخونهم حلفاؤهم •

« ان شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون • الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون • فأما تثقفهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون • وأما تخافن من قوم خيانة فأنبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين » •

(الانفال ــ ٥٥ : ٥٨)

اثنتا عشرة آية كريمة ترسم طريق النصر للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولو ترجمنا معانيها في نطاق العلوم العسكرية نجدها تضم مبادىء التكتيك العسكري ــ وهو علم تحريك الجنود في مواجهة العدو ــ بل وتزيد عليها •• انها ترسم طريق النصر أوصاه الحق تبارك وتعالى لنبيه الكريم انتصارا له وللمؤمنين وتأييدا لهم في معاركهم أمام اعدائهم تثبيتا لأقدامهم ورفعا لكلمته عز وجل لتكون دائما هي العليا فنصر الله يؤتيه من يشاء لا يمكن ، بعد ان وعينا هذه الآيات الكريمات•• لا يمكن ان تتصور ان النصر مثلا قلادة يطوق الله بها عنق من يشاء ••• انما النصر عناد ومكابرة وصبر واصرار وعمل وجد وشراء لجانب الله بما نملك من اموال وأنفس وطريق النصر قتال وصراع وقتل ومعاناة وثبات وتنظيم ووقاية وحرص وحذر حتى من الاصدقاء أو الحلفاء •• ولا تعني الحرب عند المؤمن الا قتال حتى النصر •• فلا تسليم •• ولا ادبار ولا مصالحة الا بعودة الحق الى أربابه •• المظلومين يعوضون عن ظلمهم•• والمبعدون عن ديارهم يعودون الى ديارهم وأصحاب الارض يتولون أمر

أرضهم ويستعيد كل ذي حق حقه وبعدها .. بعد ان تعلو كلمة الله وتعود مكانتها العليا نستطيع ان نتقبل السلام ..

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » .

(الانفال ــ ٦١)

فاذا ما كان القتال حق والجهاد فرض ، فما هي الأسس والآثار النفسية المترتبة على القيام بأعباء القتال وواجبات الجهاد ؟؟

والاجابة على هذا السؤال تستوجب منا سؤالا اخر هو أي من الناس هو الذي يقدم على القتال ؟ أيهم هو الذي يحمل مسؤولية الجهاد ويتقبل أعباءه ويحتمل شرفه ويستحق ثوابه ؟؟

١ ــ لا بد أن يكون ايجابي الطابع لا يؤجل .. ولا يسوف .. ولا يتناكص وانما يبادر ولا يسلم المبادرة ليد غريمه .. وهو الذي يتصرف . وعلى غيره ان يواجه ما يفعله .. هو الذي يتحرك ... وعلى غيره ان يتقي شره .. هو الذي يضرب وعلى غيره ان يدافع ويحتمل أو يهرب !! ..

ولا يحتمل الطابع الايجابي الا انسان توفرت فيه الشروط الاتية :

أ ــ العزيز على نفسه الذي يفرض عزته على الناس .

ب ــ الواثق من نفسه .

حـ ــ المحيط من العلوم والفنون بالقدر الذي يتقي به مفاجآت عدوه أيا كان هذا العدو وأيا كان قدر علمه .

د ــ الحذر الذي لا مأمن له .

هـ ــ اليقظ المتابع لخطوات أعدائه وحلفائه على السواء حتى يأمن شر خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

فاذا ما كتب الله علينا القتال وهو يعلم أنه كره لنا دس فيه كل هذا الخير ليحق قوله العزيز .. « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم »..

فاذا ما واجهنا سؤال عن الأسس والآثار النفسية للجهاد فان جوابنا يجب أن يتضمن كل ما تقدم من مطلع السؤال حتى الان ثم تزيد ..

٢ ـ العزة التي خص الله سبحانه وتعالى بها نفسه ونبيه والمؤمنين .

« ويقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » .

(المنافقون ـ ٨)

والعزة ليست كبرا ولا غرورا ولكنها قابلية وجدارة بمواصلة النجاح وليست العزة ترفا ولا جاها يورث ولكنها قدرة وكفاءة واصرار على بذل الجهد .

والشعور بالعزة على هذا النحو قد يكون احد الاهداف الاساسية من حكمة فرض القتال والجهاد فالعزة تقتضي من الانسان الذي يصبو اليها .

أ ـ ألا يشغل باله بالهين من الامور وانما يهتم بالهام منها .

ب ـ ان يربط الانسان نفسه بأهداف تزيد من قدره أمام نفسه وأمام الناس .

ج ـ أن يقوي نقط الضعف في تكوينه البدني والذهني والعلمي والنفسي .

د ـ أن يعوض معالم الانحسار والعاهات في تكوينه .

هـ ـ ان يحتفظ بنفسه دائما بين صفوف القادرين بدنا وعلما ومالا ليعطي للناس مما أعطاه الله .

و ـ يحسن تمضية وقته فيما ينفعه في الدنيا والاخرة وينفع الناس .

واذا ما استطعنا ان تقوم المجتمع الاسلامي اليوم كافة على ضوء هذه النقط الستة ، استطعنا ان نعرف اين نحن افراد هذا المجتمع من العزة التي خص بها الله عز وجل ـ حتى لا ننسى ـ نفسه ونبيه والمؤمنين .

٣ ـ والمقاتل ثابت الجنان لا يفزع ويهلع ولا يضطرب لا تبدد المفاجأة قدراته ولا يحطمه الفشل لأن المقاتل يرى ان المعركة مستمرة الى ان ينتصر لا يخاف لدم اهرق ولا يرعبه أرواح أزهقت ولا يرعبه أشلاء تناثرت ولا يقعده افتقاد الصحاب والانصار ولا يرجعه نكوص الحلفاء وتخلفهم فالمقاتل المؤمن لا يعتمد بعد الله الا على نفسه اذا أعوزه السلاح فالصبر سلاحه .. واذا افتقد العدة فالايمان عدته . نفسه مطمئنة لا يصيبها الجزع من أمامها ولا من خلفها . والاطمئنان النفسي هو غاية الصحة النفسية ولا سبيل لانسان لا تستقر نفسه على صخرة الاطمئنان ويجد طريقا للبلاء الحسن في القتال أو قدرة على الصبر .

٤ ـ المقاتل سريع البت حاسم لا بلبلة ولا توجس ولا وساوس ولا هواجس .. له نظرة عميقة موضوعية ثاقبة لا مجال عنده للعاطفة او على الاقل هكذا يجب ان يكون .. فاذا ما كان القتال مكتوبا علينا فعلينا بالتالي ان نكون أكفاء له بكل ما يجب ان يتصف به المقاتلون . والحسم وسرعة البت والخلو من الوساوس لا يمكن ان تكون صفات ومزايا يتحلى بها الانسان عند اقباله على القتال وكأنها بعض عدته وسلاحه .. ولكنها صفات يجب ان يعيش بها الانسان حياته حتى يستطيع ان يستفيد منها عند ملاقاته عدوا

في قتال ففرض القتال يتضمن اذن فيما يتضمن ان يعيش الانسان حياته العادية في السلم حاسما سريع البت كيما يكون كذلك في ميادين القتال وساحة الجهاد المفروض ٠

٥ ـ والقتال يستتبع ويستوجب جمع المعلومات عن العدو وفي جمع هذه المعلومات ما يفيد ولا شك في امور التجارة وتبادل المنافع ، فالقتال اذن ليس شرا كله حتى ولو كرهناه وانا نرى اننا في معركتنا الضارية مع الاستعمار نقيم المعارض في معاقله مثل المانيا الغربية والولايات المتحدة الامريكية وننشيء صلات تجارية ـ لا شك في فوائدها لنا ـ مع السوق الاوروبية المشتركة ، كما ان قتالنا الحامي مع حكومة الاحتلال بفلسطين استوجبت زيادة طاقاتنا الانتاجية صناعيا وزراعيا والتزود بمرونة تجارية كنا في حاجة اليها وكان الوقت سيمضي طويلا قبل ان نكتسبها الا ان ظروف المعركة والحاجات القتال انقصت الوقت مما فيه نفع لنا لا شك فيه فتحت ضغط احداث المعركة وما أصابنا فيه ارتفع ميزاننا التجاري وتعدت قيمة صادراتنا لأول مرة قيمة وارداتنا في النصف الاول من عام ١٩٦٩ م لأول مرة منذ نحو ثلاثين سنة وما زالت الزيادة من يومها مضطردة مستمرة ٠٠

٦ ـ ويستوجب القتال حسن التعبئة والتخزين والتخطيط لمواجهة ايام المعركة العصيبة وحسن رعاية التعليم والصحة لاعداد كفايتنا البشرية للقتال خير اعداد وهو سلوك جماعي عاشته الامة الاسلامية في المائة سنة الاولى من حياة الرسالة المحمدية حتى اذا ما اصابت الترف العباسي في الشرق والنعيم الاندلسي في الغرب اقتضاها الامر نحو سبعمائة سنة تهاوت فيها دولة الاسلام وتمزقت وتبعثرت قواها في

ظل شعور مضلل كاذب بالامن نهانا الله عنه كما سبق وبينت الآيات البينات التي قدمنا ولقد عاش حلفاء الغرب نفس الاسلوب قبيل الحرب العالمية الثانية حتى ان هتلر بقواه الواهنة نسبيا اذا ما قورنت بالقدرة العسكرية الان استطاع بالخداع والتضليل ـ التهديد بالحرب ان يحقق سبعة مكاسب سياسية كانت تستحق كل منها معركة وحربا لا يقوى عليها لا هتلر ولا الشعب الالماني بأسره وما استطاع هتلر ان يحقق بالكلام والتهديد ما حقق الا لأن الحلفاء الغربيين كانوا على غير استعداد للقتال ولهذا رأينا كيف اقتحمت جيوش الالمان ونجحت أينما التقت بجنود حلفاء الغرب حتى أمكن لهؤلاء حسن التأهب وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة واذا بالقدرة العسكرية الالمانية تنكمش بعد تمدد وتنحسر بعد فيضان وتنسحب بعد تقدم وتدبر بعد اقبال حتى التهم اعداؤها الوطن الالماني التهاما . فالقتال يستوجب حسن الاستعداد للقتال كفيل أن يوقف قوى العدوان عند حدها ولعل من الطريف في هذا المعنى أن نقول.. لنحسن الاستعداد للقتال حتى نكفي أنفسنا شروره !! ..

ولعل حسن الاستعداد للقتال هو مشكلتنا المباشرة مع الاستعمار منذ كسرنا احتكار السلاح عام ١٩٥٤ فالاستعمار يود لو يعطينا من السلاح ما يشاء في أي وقت يشاء وبالكمية التي يشاءها لنستخدمه في الحدود التي يرتضيها ويشاءها أي أنه يتمنى لو كانت قدرتنا القتالية جزءا من مشيئته ونحن نأبى الا أن تكون قدرتنا الدفاعية في حدود (اعداد ما نستطيع من قوة لنرهب بها عدو الله وعدونا ...) قدرة تحقق لنا المنعة وتفرض السلام فرضا على المعتدين علينا .. سلام لا تعوزنا فيه العزة ولا نفتقد فيه الامن والكرامة سلام يرتضيه الله عز وجل لعباده المؤمنين فالسلام يطالبنا ان نرحم غيرنا ويأبى علينا ان نطلب الرحمة الا من الرب الخالق الباري سبحانه القادر على كل شيء .

الجوانب السلوكية في شخصية المسلم

١ ـ بادىء ذي بدء فانه من المتفق عليه دائما وبلا خلاف ، ان اي قائم على أمر الاسلام ليس له الا قدوة واحدة هي رسول الله صلى الله عليه وسلم . واذا ما كان الكلام سهلا فان التطبيق صعب بل انه يبلـغ درجة التعذر والاستحالة . الا انه ينبغي ألا يغيب عن بالنا ان المقصـود لا يمكن ان يكون محاكاة الرسول الكريم (ص) ليكون الفرد صورة طبق الاصل من اخلاقه الكريمة وصفاته الحميدة ورجاحة تفكيره وعمق ايمانه وحسن تأدبه عليه الصلاة والسلام ، فأنى لفرد أيا كان أن يدعوه قومـه بالامين مثلما فعلت قريش فلم تسبغ عليه الوصف وانما استقت من مسلكه ما وصفته وأسمته به فنادته بالامين بعد أن أدبه ربه رب العزة والجلالة ، فأحسن تأديبه وقبل ان يحمل أعباء الدعوة والرسالة . وان البحث في صفات النبي الكريم واخلاقه (ص) ليحتاج الى دراسة قائمة بذاتها ، واني لذلك اترك الان لكل حامل دعوة واجب وحق البحث والتقصي في صفات الرسول الكريم واخلاقه لابراز الصورة النهائية التي يستطيع استخلاصها للصفات النبوية والاخلاق المحمدية التي لم يدب بها قدم على الارض الا قدماه عليه الصلاة والسلام . ولذلك أورد هنا في ايجاز وتركيز كاملين بعضا من اهم عناصر الصورة الاخلاقية التي كان عليهـا رسول اللـه ومصطفاه لينهل منها ما يطبق من بديع الصفات وكامل الشمائل .

أ ــ فلقد كان عليه الصلاة والسلام ••• أمينا •• أمينا في قوله امينا في عمله امينا مع نفسه وأمينا مع الله ، عز وجل ، على السواء •

ب ــ ولقد كان •• متعففا •• يقبل الهدية (ويردها) ويرتضي الصدقة• ولم يقبل هدية يعجز عن ردها •

جـ ــ ولقد كان ••• مشفقا عطوفا •• لا يدع اليتيم ويحض على طعام المسكين ولا يقسو الا لحق •• وان قدر عفا •

د ــ ولقد كان •• عادلا متسامحا •• يقتص للحق ولو من نفسه حتى لأقسم يوما او أن ابنته سرقت لقطع يدها ولكن اذا ما لحقه أذى فانه يصفح ويتسامح وينسى الاساءة حتى لقد اطلق يوم الفتح رجال قريش ولم يكن بينهم الا آثم في حقه (ص) ومعتد عليه وعلى أهله وماله •

هـ ــ ولقد كان •• كيسا لبقا ••• يدعو الى مخاطبة الناس على قدر عقولهم ووصفته الآية الكريمة فقالت انه لو كان فظا غليظ القلب لانفض الناس من حوله •

و ــ ولقد كان ••• عاملا •• يؤمن بالعمل ويعيش به وله • فلقد عمل صبيا ولقد عمل شابا •• ولقد عمل وهو زوج خديجة (ر) بكل ثرائها وغناها ولقد عمل وهو رسول وزعيم فلم تغنه الرسالة ولا الزعامة ولا سيادة قومه عن العمل من اجل قوت يومه •

ز ــ ولقد كان •• مجاهدا في سبيل الله من لحظة فاز بالرسالة الى أن قبضه الله اليه ••• فلقد جاهد بلسانه وبفكره بعقله وقلبه كما جاهد بسلاحه وباحتماله وصبره لما لاقى من أذى وجوع وهجرة •

وهو الرسول الوحيد الذي جرح في معركة في سبيل الله • ومن وصف هند بن هالة للرسول الكريم [1] أنه (ص) كان خافض الطرف نظره الى الارض اطول من نظره الى السماء جل نظره الملاحظة يسوق اصحابه ، يبدر — وفي رواية العلوي يبدأ — من لقي بالسلام •

ومن وصفه لمنطقه (ص) •

كان متواصل الاحزان دائم الفكرة لايتكلم في غير حاجة ، طويل السكتة ويتكلم بجوامع الكلم ، لا فضول ولا تقصير دمث ، ليس بالجافي ولا المهين يعظم النعمة وان دقت ولا يذم منها شيئا • لا يذم ذواقا ولا يمدحه • لا يقوم لغضبه اذا تعرض الحق شيء وحتى ينتصر له • لا يغضب لنفسه ولا ينتصر له واذا ترح غض طرفه جل ضحكه التبسم • وعن الحسين (ر) [2] ان أباه كرم الله وجهه قال يصف الجد صلىاللهعليهوسلم وكان مما قاله :

كان دخوله لنفسه مأذون له في ذلك فكان اذا أوى الى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء : جزءا لله تعالى وجزءا لاهله وجزءا بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة والخاصة

وكان من سجيته في جزء الامة ايثار اهل الفضل باذنه وقسمه على قدر فضلهم في الدين فمنهم ذو الحاجة ومنهم ذو الحاجتين ومنهم ذو الحوائج فيتشاغل بهم فما أصلحهم والامة من مسألته عنهم وأخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغوني حاجة من لا

---

(١) من دلائل النبوة ومعرفة احوال صاحب الشريعة لابي بكر احمد بن حسين البهقي اصدار المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ص ٢٤١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٢ وما بعدها .

يستطيع ابلاغي حاجته فانه من أبلغ سلطانا حاجة من لا يستطيع ابلاغهـا اياه ثبت الله قدميه يوم القيامة •

ومن قوله فيه (ص)

كان يختزن لسانه الا مما يعنيهم ويؤلفهم ولا ينفرهم ويكرم كريـم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير ان يطوي عن احد بسره ولا خلقه • يتفقد اصحابه ويسأل الناس عما في النـاس ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه معتدل الامر غير مختلف ولا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا لكل حال عنده عتاد ، لا يقصر عن الحـق ولا يجوزه • أفضل الناس عنده أعمهم نصيحة واعظمهم عنده منزلة احسنهم مواساة ومؤازرة • وكان (ص) لا يجلس ولا يقوم الا على ذكر ولا يوطن الاماكن وينهى عن ايطانهـا • واذا انتهى الى قـوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك • ويعطي كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه • من جالسه أو قاومه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجة لم يرده آلا بها أو بميسور من القـول • وقد وسع الناس منه بسطه وخلقه ، فصار لهم ابا ، وصاروا عنده في الحـق سواء • مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيه الاصوات، ولا تؤبه فيه الحرم ولا تنثى فلتاته متعادلين يتفاضلون فيه بالتقـوى • متواضعين يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيـه الصغير ويؤثرون ذا الحاجة •

ولقد كان عليه الصلاة والسلام دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب ، ولا فحاش ولا غياب ولا مزاح • يتغافل عما لا يشتهي ولا يؤنس منه ولا يحبب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكثار وما لا يعنيه ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم احـدا

ولا يعيره ولا يطلب عورته ولا يتكلم الا فيما رجى ثوابه • واذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير فاذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده •

وكان سكوته على أربع : الحلم والحذر والتقدير والتفكير •

فأما تقديره ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس •وأما تذكره ففيما يبقى ويفنى •

وجمع له (ص) الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستفزه ، وجمع له الحذر في أربع : أخذه بالحسنى ليقتدى به ، وتركه القبيح لينتهى عنه واجتهاد الرؤى فيما اصلح امته والقيام فيما جمع لهم الدنيا والاخرة•

ولقد أكدت الروايات المتواترة على ألسنة ثبت صدق أصحابها وسلامة حافظتهم ودقة كل منهم في النقل والتعبير كل ما جاء على لسان هند ابن أبي هالة وما كان أبو الحسين رضي الله عنهما الا صادقا •

هذا هو الرسول المصطفى حامل امانة الدعوة وامام الدعاة الذين ان فاتهم الاقتداء بهم فقد فاتهم كل النفع « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثير » •

(الاحزاب ــ ٢١)

قد يصعب على بعضنا وقد يتعذر على البعض الاخر محاكاة سيرة الرسول الكريم بين الناس بل انه لصعب متعذر فعلا ولكن هذه الحقيقة لا تثني احدا عن بذل غاية جهده في التمثل بالسلوك النبوي الكريم الذي لا جادة الا جادته ولا نهج الا نهجه ولا طريق الا طريقه للبلوغ بأمانة الاسلام بين الناس المكان الذي يرتضيه الله ورسوله من نفوسهم •

١ ـ الايمـان :

لا يمكن ان يدعو لأمر الا من يؤمن به والا كان ظاهر دعوته الكذب وباطنها الضلال والاسلام دين سماوي منزل من لدن عزيز حكيم رحمة بالناس ومقيما لهم ما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم . وشاءت حكمة العزيز البارىء ان ينزل الاسلام على مراحل تـدور كلها حـول الحقيقة الازلية الاصيلة وهي الايمان بوحدانية الخالق الاحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وتلاعبت الاقوام بما أنزل اليها وغيرت وبذلت في كلمات الله مرحلة بعد مرحلة حتى تفجر نور الاسلام على لسان خاتم الانبياء وامام المرسلين مصطفى العزيز الخالق ومختاره محمد بن عبدالله عليه الصلاة والسلام ... تفجر نور الاسلام قرآنا عربيا مباركا مصونا لا يتقبـل الزيف ولا الزيغ ... « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

(الحجر ـ ٩)

واقتضى الاسلام ان نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخر ولا يحتمل الايمان بالاسلام أن تقضي عنصرا أو بعض من عنصر من عناصره الخمسة .

وغاية الايمان وأعز صوره هو اليقين المطلق غير المحدود الـذي يرتضيه العقل ويطمئن له القلب بلا استثناء او استدراك . وهو امر عزيز على الانسان ان يدركه قبل انقضاء الجزء الاكبر من حياته اذا ما طالت بالقدر الكافي . ولعل المعوق الأكبر لرسو الانسان على شاطىء الايمـان هو التناقض الذي أورث الانسان الصراع النفسي المستمر المتصل بـين النفس اللوامة والنفس الامارة بالسوء ، النفس التي ألهمت التقوى وتلك التي ألهمت الفجور واللتين تشير اليهما علم النفس بعنصرين من العناصر

الثلاثة للنفس البشرية وهما الأنا الاعلى للنفس اللوامة والهــو للنفس الأمارة بالسوء • فهذا الصراع الازلي بين الخير والشر في نفس الانسان هو المناخ الملائم للوسواس الخناس فيثبت وسوسته في صدور الناس مدعما جانب الشر مؤيدا الامر بالسوء لهذا كانت العبادات ملاذ الانسان وأمله ووسيلته في ترجيح الكفة الاخرى من الميزان كفة النفس اللوامــة (الأنا الاعلى) بقدر ما يتمسك الانسان بعباداته وفرائض دينه وبقدر ما يؤديها بصدق واقبال وجد نابع من شعوره بالاحتياج لها •

٢ ـ المعرفــة والعــام :

لا يستطيع ان يدعو داعية الا الى ما يعرف ويعلم•• يعرفعن يقين•• ويعلم كل دقيقة وتفصيل لما يدعو له ، والا كانت الدعوة ادعاء وكان الترويج لها تضليلا وشطارة • لذلك كانت سنة رسول الله مرجعا اساسيا من مراجع الاسلام لانه سنة أعلم من تعلم لانه اول من تعلم بعد ان اصطفى واختبر وشرف باصطفائه وشرفنا باختياره • وكانت الدعوة بالنسبة له (ص) مجرد تعليم ومواصلة تعليم وكان عليهالصلاة والسلام يختار الدعاة للقبائل ممن حسن اسلامهم وعمق ايمانهــم وعرفوا عن الاسلام والايمان ما يكفي لتعريف الناس وتبصرتهم •

وفي الدعوة للاسلام لا يقف العلم عند حــدود الفقه الاسلامــي وشريعته بعلومه المختلفة من عقيدة وتفسير وحديث وتاريخ اسلامــي ، فحاجة الدعوة تتطلب الالمام بعلوم النفس والاجتماع والاقتصاد السياسي والفلسفات وتاريخها وملامح الحضارة الحديثة ومقوماتها ومعالم التطور التحدي المحلي والعالمي وروابط هذه الاتجاهات ومتناقضاتها مع الاسلام باعتباره ثورة دائمة التأجج يستعر أوارها باستمرار تحمل في طياتها قوى الدفع والتجدد والتطور التي لا تكتفي بأن تجعل من الدين الاسلامي

الحنيف مجرد ركيزة متألقة يضيء بها الماضي بل تسلط عليه الامال وتعقد على تعاليمه الرجاء ليكون دائما شمس المستقبل الذي يؤجج فيه الضوء والدفء والحياة والامل .

والعلم يجعل الدعوة الاسلامية ليست مجرد سلسلة من الوعود أو الوعيد في الحياة الاخرى ، فطلب العلم فرض من فرائض الاسلام الذي يعتبر الدين الذي لا يحصل تناقضا مع العلم ولم يناقضه في أي عصر من عصوره ، وبالافادة من ضوء الدين وأفقه مع العلم يستطيع المؤمنون أن يفيدوا في دنياهم وآخرتهم على السواء وفي طيات العلم ، يجد الاسلام اكثر من سبب ووسيلة لمواصلة رسالته على الارض في المناخ المادي والعلماني الذي يكاد يطغي على الناس اجمعين تحت اعلام المنطق وجدية التفكير التي أصبحت أروج بدع العصر الحديث التي يسوقها أبالسة الانحراف والتضليل جريا على الايمان والتقوى والفضيلة . فخرقوا استار الفضيلة تحت اعلام التضليل العلمي وزعموا ان الأباحية والجنس هما المنطلق الاساسي للنشاط الانساني وتهاوت تحت وطأة مزاعمهم معاقل اخلاقية كثيرة وبخست القيم الانسانية وأصبح العري والتحلل من معالم التقدم الحضاري وأضحى اللواط مقننا يحميه القانونويرعاه في اكثر بقاع العالم تقدما وحضارة .

ومن هنا تبرز حاجتنا لمواجهة التضليل العلمي بأداتين هما العلم المطلق الطاهر المبرأ غير المنحرف كأداة .. والقيم التي يقدمها الدين الاسلامي لتوقع الانسان في مدارج التطور والارتقاء هي الاداة الاخرى .

٣ ـ المرونة :

ولا يمكن ان تعني المرونة هنا تفريط في قواعد الدين الحنيف وحدوده ولكنها تعني بالتأكيد عدم الجمود المتزمت امام نصوص اخرجها

نفر من الناس تواترت في كتب التراث فليس قرآن غير القرآن وما من سنة الا السنة النبوية الشريفة وغير هذين المصدرين لا يزيد ــ ان صح ــ عن ان يكون مجرد ضوء أو مشورة يقدمها صاحبها في ظرف محدود بذاتــه لا تربط احدا ولا تلزم احدا • فليست احكام الشرع ملكا او ميراثــا لأحد لا يمكن ان تكون التفاسير والشروح حوائل تحرمنا حق الاغتراف المباشر من فيض القرآن الكريم والنهل من صادق منابع السنة الشريفــة • وفي هذا يقول الامام الشيخ محمد عبده (1) « اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على أنه اذا تعارض العقل والنقل ، اخذ بما دل عليه العقل ، وبقي في النقل طريقان ، طريق التسليم بصحة المنقول مــع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الامر الى الله في علمه ، والطريــق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل •

ومن أبواب المرونة المشورة وتبادل الرأي ولا يعني كلامنا هنــا رفض آراء السابقين جزافا وانما يعني مجرد الوقوف عند حد مراجعــة العقل والاستفادة من حدس الايمان الحي والضمير السليم •

٤ ــ الابتعــاد عــن الشبهــات :

الانسان بين الناس سيرة والسيرة تقوم على اثنين •

أ ــ احتكاك ومعاملة •

ب ــ ملاحظة بعيدة وأوصاف تتناقلها الالسنة والاذان •

ويعني هذا ان ٥٠ ٪ من سمعةالانسان ــ بل أكثر ــ تقوم علىملاحظة

---

(1) أنظر كتاب الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية بقلم الامام ــ الطبعة السادسة سنة ١٣٧٥ هـ . اصدار المؤتمر الاسلامي ، ص ٥٩ .

الناس وما تتناقله ألسنتهم وآذانهم دون ما تدقيق أو تمحيص ولو أنه أمر يحمل في طياتـه الغيبة والنميمـة الا ان مقتضيـات العصر بالاسلوب الذي نعيش عليه تجعل الحكم على اخلاق الناس ونقد سلوكهم لا يمكن ان يتم على ضوء الحقيقة المحضة ومن هنا يقتضي الامر ان يسلك الداعية بين الناس مسلكا يجعله منهم بل يجعله مرجعهم يلوذون به ولا ترتقي اليه اتهاماتهم • لقـد رفض النبـي الكريم (ص) الصدقة وقبل الهدية وضمير الانسان وحده هـو الذي يستطيع التفريق بين الاثنين ومع امواج الحياة برزت الرشوة مستهل اختلاط الامر بين الناس في الهدية والصدقـة والرشوة والداعيـة الذي يقيم هدى وتوفيقا بين الناس لا يقبل منها شيئـا فالانفة والعزة والترفع سمات ترفع قدر صاحبها بين الناس لان فيها واد للشهوات ندرت أمثلته ونماذجه في حياته المعاصرة •

وللابتعاد عن الشبهات يجعل للداعية من الناس جميعا احبابا له لا يقرب منهم أحدا ولا يتخذ منهم خونا ولا صديقا فكلهم عنده سواء حتى من اقترف منهم ذنبا على ان يعاتبه ليعلمه ولكن ليس له أن يقاطعه أو يخاصمه فالذنب يؤذي صاحبه قبل ان يؤذي الناس ويثير الذنب خطـأ الداعية ولا يثير غضبه •

وحري بالداعية ان يدير مصالحه بين الناس بنفسه فلا يكلها الـى احد ولا يشترك فيها مع احد حتى يكون مسلكه بين الناس واضحا محددا لا تشوبه اطماع الشريك أو سوء تصرفه • وخير ما يوصف به داعية هنا الزهد فهو يقيه شر ألسنة السوء وشر نفسه التي قد تأمر به •

٦ ـ أمور كثيرة يصعب تحقيقها لدرجة تقترب كثيرا من التعذر في مجال تزويد القائم على امر الاسلام والداعية له بما يلزمه نفسيا واخلاقيا

ليكون جديرا بالرسالة التي ربط نفسه بالقيام بأعبائها • يكثر فيها الغرم ويقل فيها الغنم وهو امر جدير بتدبر المديرين والمخططين لأمر الدعوة لتهيئة امور الدنيا لحامل اعباء الدعوة ليخلص هو قـــدر طاقته لأداء واجبه دون ان تدفع اسرته واولاده الثمن من فرص قد تكون متاحة لو تفرغ الاب راعي الاسرة لأمور الدنيا •

الا ان هناك أمرا غير مقبول •• لا تقبل مناقشته ولا يقبل مراجعتــه وهو ان يقول الداعية ما لا يفعل ويسري على لسانه كلمات وعبارات ليس لها في قلبه منزلة ، واذا قال قائل انه من العسير ان يتفضل حامل أمر الدعوة بمصالحه عن الناس فاننا لا نقدم له القدوة في الرسول الكريم (ص) أو صحبه الأعزة بالايمان وتابعيهم من أئمة العارفين ، فان في دنيانا القدوة تجدها في رجال القضاء والنيابــة بما ترسمه لهم تقاليد المهنة من الترفع الالزامي وتنكب الشبهــات والابتعاد عنها •

مجابهة الاسلام الحرية النفسية

١ ــ في معركتنا الشاملة التي نعيشها يشن علينا عــدونا حربا نفسيــة يستهدف منها :

أ ــ الانبهار بقدرته وبراعته العسكرية والاحساس بصعوبة مواجهتها .

ب ــ التشكك في قدرتنا على احراز نصر .

ج ــ الشك في قدرات ونوايا وامكانيات قيادتنا .

د ــ التأكد من ثبات موقف حلفائه وانصاره وتأييدهم له غير المشروط وغير المحدود مع قدرتهم على الوفاء باحتياجات انتصاره .

هـ ــ ارتماؤنا في احضان المعسكر الشرقي مما يجعل منا عدوا لكـــل حلفاء الغرب .

و ــ فض اجزاء الوطن العربي من حولنا على اساس عدم قدرتنا علــى تحقيق آمال الشعوب العربية في النصر .

ز ــ اقناع اصدقائنا بعدم جدوى صداقتنا ومعاونتنا لعدم امكاننــا الوفاء بالتزامات الصداقة .

ح ــ اقناع اصدقائنا بعدم كفاءتنا في استخدام الاسلحة الحديثــة أو حتى القدرة على حمايتها من الوقوع في ايدي العدو .

ط ــ اقناع الرأي العام العالمي انه بهجماته المتواصلة انما يدفع عــن نفسه عدوانا يزعم اننا نعد له وندبر منذ عام ١٩٤٨ .

٢ ــ من الواضح ان العدو في معركته النفسية انما يستخــدم الاساليب والوسائل الاتية :

أ ــ الاتصال الدبلوماسي والمصالح السياسية والاقتصادية المشتركة.

ب ــ الاتصال الشخصي بقادة وزعماء العالم السياسيين .

حـ ــ الاتصال المباشر بقادة الرأي والفكر .

د ــ نشر الكتب المملوءة بتزكية وجهة نظره .

هـ ــ الاذاعة والتليفزيون بكافة اللغات للالتقاء بالشعوب .

و ــ استخدام الصحافــة ووكالات الانباء للعمل لمصلحته والترحيب بوجهة نظره .

ز ــ القتال الفعلي في المواجهة والعمق الذي يحقق اغراضه .

ح ــ الضغط على سكان الارض المحتلة وارهابهم لتنفيذ سياستــه العاجلة والطويلة المدى .

ط ــ دس الأكاذيب والاشاعات المضللة والنكات المنحرفة في الاوساط المحلية للشعوب العربية بقصد تفتيت جبهات المقاومة ولدى شعوب العالم بقصد كسب تأييد وجهة نظر العــدو والترحيب بانتصــاره والاشفاق من خذلانه .

ي ــ بث الدعايات لاثارة عوامل الشقاق بين الفئــات المختلفة مــن الشعوب العربية مع اثارة نعرات العصبية والعنصرية وممالأة وتأييد أحد أو بعض أطراف النزاع بطريقة مباشرة او غير مباشرة طبقــا لظروف كل نزاع .

٣ ــ أ ــ اذا ما كانت الحرب هي حالة نزاع بين دولتين أو أكثر يعمــد فيها كل من طرفي النزاع الى فرض وجهة نظره على الاخر ولــو استخدم في ذلك القوة المسلحة وكافة ما يتراءى له من اعمال القهر

والقسر فان الحرب النفسية لا يمكن ان تخرج عن مضمون الحرب الشاملة باعتبارها :

ب ـ تعريف : الحرب النفسية هي كل ما يتخذه احد طرفي نزاع من الاجراءات التي يجعل بمقتضاها الطرف الاخر في حالة انفعالية لا يستطيع معها استخدام كل امكانياته بالشكل والاسلوب والنتائج المعقولة المتعارف عليها .

حـ ـ ومن هنا كانت ضربة يوم ٥ يونيه ١٩٦٧ التي قام بها العدو تعتبر ضربا من ضروب الحرب النفسية اذ جعلتنا في حالة انفعالية لم نستطع معها استخدام كافة امكانياتنا التي كنا قد أعددناها للمعركة حيث أحسنا الاعداد ولا يقابل هذه الضربة من ناحيتنا الا وقفة الشعب يوم ٩ يونيه ١٩٦٧ والتي أصر عليها في اليوم التالي ١٠ منه حيث قدم الشعب للعمركة زادا وسلاحا خفيا لم يضعه احد محل اعتبار لا العدو ولا حتى قيادتنا العسكرية .

د ـ ويمكن تحليل هذا الزاد وهذا السلاح الى العناصر الاتية :

(١) ايمان الشعب بمعتقداته الدينية وتأييد الله عز وجل .

(٢) اعتزاز الشعب بنفسه .

(٣) ثقة الشعب في قيادته السياسية .

(٤) ما اكتسبه الشعب في تاريخه الطويل مما استقر في اللاوعي الجماعي منه من خبرات وتجارب تؤكد ان الحروب لا تكسب ولا تفقد في معركة واحدة .

(٥) يقين الشعب باللاوعي الجماعي ان الصبر والاصرار والصمود انما هي بديل سليم مؤقت لعدم كفاءة القيادة العسكريةوافتقاد السلاح.

هـ ـ أي نزاع دولي ينتهي الى تصادم يمكن تقسيمه الى عناصر التصادم الآتية :

(١) القتال المسلح سواء أكان التسليح تقليديا او كيمائيا ، أو بيولوجيا أو ذريا •

(٢) الدعاية وحرب الكلمة •

(٣) المعركة الاقتصادية •

(٤) المعركة السياسية •

ولما كان تعبير (الحرب النفسية) الشائع انما يقصد به حرب الكلمة المعروفة لدى العامة باسم (الدعاية) فجدير بنا ان نعرف •••

تعريف الدعاية أو حرب الكلمة هي الاستخـدام المدبر (المخطط) لكافة وسائل الاتصال للتأثير على عقول وعواطف وتصرفات مجموعة من الناس تجاه غرض محدد •

٤ ـ من هذا التعريف لحرب الكلمة أو الدعاية مما شاعت معرفته على أنه الحرب النفسية يمكن تقسيم هذا الاسلوب من المعركة عدة تقسيمات نبدأها هنا :

ا ـ التقسيم الحقلي :

وهو التقسيم الذي يحدد حقول العمل في حرب الكلمة وهي تنقسم الى :

(١) الجبهة الداخلية : وتضم كافة الشعب من المدنيين •

(٢) القوات المسلحة : وتضم أفراد وحدات وتشكيلات القـوات المسلحـة •

(٣) الرأي العام العالمي : ويضم هذا الحقـل شعوب العـالم من صديقة ومحايدة ومعادية •

ب ـ التقسيم الادائي :

ويتضمن هذا القسم الاساليب المختلفة لنقل الكلمة الى الجماهير •

(١) الكلمـــة المسموعـــة :

أ ـ في الاذاعة والتليفزيون •

ب ـ في الندوات والمحاضرات •

جـ ـ في الاسطوانـــات •

(٢) الكلمـــة المكتوبـــة :

أ ـ في الكتب والمراجع ذات الدراسات العميقة •

ب ـ في النشرات المبسطة •

جـ ـ في الصحف والمجلات •

وهذا التقسيم يقتضي المقارنة بين أثر الكلمـــة المسموعة والاخـــرى المكتوبـــة •

فالكلمة المسموعة تتميز بأنها :

أ ـ تنقل انفعال المتحدث الى المستمع •

ب ـ تثير الحماس والانفعال بسهولة فهي تناقش العاطفة قبل •

جـ ـ يتأثر بها أكبر عد دمن الناس خصوصا اذا ما كانت مذاعة •

د ـ أثرها مؤقت ما لم يتفاعل بها جموع المستمعين لتصبح جزءا من العقل الجماعي أو عقيدة الجماعة •

هـ ـ أكثر مرونة في أنه من الممكن اجراء التعديـــل والتبديل فيهـــا لمواجهة الظروف الانفعالية للمستمعين خصوصا اذا ما كـــان الكلام موجها لجمهور يواجه المتحدث •

و ـ من الممكن زيادتها ايضاحا وتفسيرا خصوصا اذا ما أتيحـــت

المناقشة بين المتحدث والمستمعين ٠

أما الكلمة المكتوبة فتتميز بأنها :

أ ــ محدود أثرهــا على قرائهــا ومن يتــأثرون بهــا ومــدى كفاءة هؤلاء في نقل الكلمة المكتوبة ٠

ب ــ تخاطب العقل قبل العاطفة فتأثيرها أبطأ الا أنه أثبت ٠

جـ ــ ثابتة لا يسهل الاضافة اليها أو تعديلها ٠

د ــ كلما ازدادت الكلمة المكتوبة عمقا كلما احتاجت لمستوى أكثر تخصصا من القراء ٠

هـ ــ يمكن الرجوع الى نصها كلما احتاج الامر (ولو أن الكلمة المسموعة يمكن الرجــوع الى نصهــا اذا ما تم تدوينــه أو تسجيله) ٠

جـ ــ التقسيم المنهجي :

وهو التقسيم الذي يحدد طبيعة الكلمة والصورة التي تكون عليها، والكلمة من ناحية المنهج تنقسم الى :

(١) تقديم حقائق :

في صــورة :

أ ــ خطاب أو حديث أو مناظرة أو ندوة ٠

ب ــ عرض وجهة النظر في دراسة في كتاب ٠

جـ ــ اجمال وجهة النظر في نشرة أو في موضوع صحفي ٠

د ــ تقديم الفكرة في قالب قصصي مقروء ٠

هـ ــ تقديم الفكرة في قالب روائي يمثل في الاذاعــة أو المسرح أو السينما أو التليفزيون ٠

و ــ تقديم الفكرة في قالب أغنيــة ٠

ز ــ تقديم الفكرة في قالب نكتــة تثير السخريــة والاحتجــاج والضحــك •

ح ــ تغليف الفكرة في غــلاف من الاسرار وبثها في صورة اشاعة تحمل خبرا •

(٢) الدعوة لفكرة او عقيدة :

في الصورة التي تقدم فيها الحقائق الا أنها تحتاج اختيار ركائــز عقيدية من قــادة الرأي والقادرين على الاتصال بالناس واقناعهم أو ممن يستفيدون من سيادة الفكرة أو العقيدة المدعو لها •

(٣) فضح اكاذيب :

أ ــ تقديم الحقائق الواقعة في تسجيل صوتي أو صورة أو تقديــم شهود العيان للتحدث الى الناس مباشرة عن طريق الاذاعة والتليفزيون أو في ندوات عامة أو بطريق غير مباشر عن طريق الصحافة في صورة حــديث موجه لصحفي مشهور أو في مؤتمر صحفي •

ب ــ تقديم بيان يوضح الحقائق والاسباب التي أدت بالعــدو الى مجافاتها •

(ولقد درج الحلفاء الغربيون لمواجهة الشائعات بواسطة عمل محلي تقوم به مراكز سميت « عيادات الاشاعة » تقــوم بضبط الاشاعة فــور صدورها ودراسة أهدافها ومراميها وتخطيط العمل المضاد محليا مع تبليغ مضمونها للمستوى الاعلى) •

جـ ــ التقسيم التكتيكي أو المواجهة : وهو التقسيم الذي يجعل من الدعاية أو حرب الكلمة عملا ايجابيا يؤدي الى مكسب أو خسارة له أهدافه دائما وله تخطيطه في حدود التقسيمات المختلفة الاخرى مواجهــة تصرفات العدو قبل قيامه بها •

(١) **الوقـايـة :**

وهي عملية مواجهة تصرفات العدو قبل قيامه بها ووضع الحوائـل المادية والمعنوية والذهنية التي تحول دون استجابة الافراد والجماعات من المدنيين لدعايات العدو أو تأثرها بها •

وهي علاوة على الحوائل الالكترونية التي تمنع وصول دعايات العدو الى اسماعنا ، تتضمن مجموعة من الاجراءات نركزها في الآتي :

أ ـ في حدود الامن الداخلي تزال أي قيود للحرية الفرديـة أو الجماعيـة •

ب ـ تثبيت دعائم التجانس الثقافي من أجل الارتباط بعقيدة واحدة بالنسبة للمعركة ولازالة الفوارق الاجتماعية •

جـ ـ سلامة الادارة والتنظيم ليكون كل فرد من امة جزءا من آلة شاملة تعمل للنصر في تنسيق وتكامل •

د ـ تثبيت قواعد العدل الاجتماعي وتكافؤ الفرص •

هـ ـ الاحتفاظ بجسر من المعلومات الصحيحة بين القيادة والقاعدة لتفادي الهبوط عن حد الثقة •

و ـ الارتباط بالأساليب التي ارتضاها الشعب لنفسه في تنظيـم الحكـم •

(١) **الـدفـاع :**

وهو مواجهة تصرفات العـدو الفعليـة عقب قيامه بها لازالة آثارها وتمييع نتائجها على الاقل وهي تتضمن :

أ ـ دراسة وتحليل تصرفات العدو ونضجها أولا بأول •

ب ـ الكشف عن أهداف العدو ومطامعه من حقوق الشعب •

جـ ـ حماية الفرد والجماعة من الفراغ الذهني أو التبرم •

د ـ ايضاح وحسن تبرير تصرفاتنا أولا بأول •

هـ ـ تقوية روابط الافراد والجماعات مع الزملاء في المحيط العالمي.

(٣) الهجوم :

وهو مبادرة أفراد العدو بحملات دعائية بقصد وضعهم وقادتهم في حالة انفعالية تحولهم من الاستفادة من امكانياتهم المتاحة بالقدر المعقول المتعارف عليه . ويكون الهجوم الدعائي (أو النفسي) بواحد أو أكثر من الاتجاهات الآتية :

أ ـ اشاعة الفرقة الذهنية بين فئات العدو المختلفة والعمل على اجتذاب ولاء واحد أو أكثر من هذه الفئات ودفعهم للعمل لصالحنا .

ب ـ التشكيك والتهوين من مصادر أمن العدو من ناحية كفاءة قيادته واستمرار ولاء حلفائه .

جـ ـ اثارة الانفعالات المتعارضة بالتتابع وفي سرعة ومفاجأة .

د ـ تثبيت أسباب الخوف ومبرراته لدى أفراد العدو وجماعاته .

هـ ـ فضح مخططات العدو السرية وكذلك تنظيماته وتشكيلاته وكافة الاسرار التي يحرص عليها . ويتم ذلك في الحدود التي لا يضيرنا تقييد العدو لكل ذلك .

و ـ اشاعة الفرقة بين العدو وبين الرأي العا مالعالمي .

ز ـ تعتبر شعوب الدول الحليفة للعدو هدفا سهلا نسبيا لفرض تحول الدول الحليفة عنه .

ح ـ العمل على الفوز باعجاب وتقدير واحترام الرأي العام العالمي باحترام قواعد القانون الدولي المشهورة واحترام حقوق الانسان وعدم مجافاة معتقداته الدينية والانسانية .

واذا ما قصرنا الحديث في هذا التقسيم التكتيكي أو المواجهة على

قطاع الجبهة الداخلية من المدنيين فهناك قطاعان بالغا الاهميــة لا مجــال لمناقشة أسس المواجهة في أي منهما هنــا وهما قطاع القــوات المسلحــة والرأي العام العالمي ولو أن المبادىء العامة واحدة ولا تكاد تتغير الا في أضيق الحدود •

٥ ـ مبــادىء الدعايــة وحــرب الكلمــة :

تقوم الدعاية أو حرب الكلمة على عدد من المبادىء والاسس جدير بالقائمين بها عدم الخروج قدر الطاقة عن واحد منها وتطبيق أكبر عدد منها في كل عملية دعائية سواء أكانت وقائية أو دفاعية او هجومية •

وباعتبار أن حرب الكلمة هذه حرب خفيــة بطبعهــا والا انكشفت دعايات الدول والشركات الكبرى ونفذت سحرها وتأثيرها على الجماهير فتعتبر كل أبحاثها سريــة لا ينشر منها الا ما قد يخــدم بعض الجــوانب التجارية حتى أن الابحاث التي تجري في الموضوع من العسير متابعتهــا علميا للتحقق من استكمال الاسلوب العلمي لقبول أو رفض بعض أو كل هذه المبادىء والاسس الا أنه اقتباسا من مبادىء الحــرب ومن مبــادىء الدعايات التجارية واستخلاصا من تصرفــات جوانب النزاع في الحــرب العالمية الثانية وفيما أعقبها من نزاع بين قوى الغرب وقوى الشرق نستطيع أن نضع المبادىء التالية على أنها مجرد فروض قابلة لمزيــد من المراجعــة والمتابعة قبل تثبيتها كمبادىء نلتزم بها • ونجملها فيما يلي :

أ ـ المحافظة على الهدف :

لكل عملية دعائية أو غير دعائية هدف مقصود منها تحقيقه وضيــاع الهدف في ضباب الاحداث او الانحراف عن الهدف الى ما نرى أنه أكثر بريقا يحرمنا من تحقيق أهدافنا ويبدد جهودنا الى ما لا يجدي • فالمحافظة على الهدف هي خطوتنا الاولى والثابتة بل لعلها القاعدة الاساسية لتحقيق هذا الهدف •

ب ـ المبـاداة :

هي العمل بحرية وانطلاق لاختيـار الاهـداف والاساليب تاركين للعدو الملاحقة والمتابعة لمواجهة تصرفاتنا ٠

جـ ـ العمـل الهجومـي :

وهو أهم أساليب حرمان العدو من المبادأة والضغط عليه لمواجهـة هجماتنا والعمل تحت ضغط منها مما يحرمه من القدرة على الهجوم ويتطلب العمل الهجومي العمل في أكثر من جبهة وبأكثر من أسلوب ٠

د ـ الوقـايـة :

بقصد حماية أفراد الشعب وجماعاته من هجمات العدو أو محاولاته الهجومية ومن أهم عناصر الوقاية :

(١) جمع كافة المعلومات التفصيلية عن العدو وظروفه المعيشية ٠

(٢) حرمان العدو من الحصول على أي معلومـات عن ظروفنـا المعيشيـة ٠

هـ ـ الحشـد :

بقصد تأليب كافة القوى والامكانيات ليكـون ضغطنا على العـدو أشد ما نستطيع والحشد يكون بالاساليب الآتية :

(١) تأليب الحلفاء والاصدقاء لكشف أساليب العـدو ونوايـاه ومجافاته لقواعد العدل والانسانية ٠

(٢) بذر بذور الفرقة لدى الشعوب في الدول الموالية للعدو للضغط من أجل انحراف هذه الدول عن ارتباطها بالعدو ٠

(٣) بث الفرقة بين أفراد العدو وجماعاته من أجل ايجاد قاعـدة تعمل على الاقل على احباط خطط العدو ان لم يستطع تأييد خططنـا ٠

(٤) استخدام كافة امكانيات الاعلام للوصول لكافة الاذهان باللغة والاسلوب المناسب لكل ذهن .

و ــ الاقتصاد في القوة :

وهو مبدأ لا يتعارض مع مبدأ الحشد وانما يدعو الى العمل على تحقيق أبعد النتائج بأقل مجهود أو تكاليف ممكنة .

ز ــ المفاجأة :

هي استخدام الوسيلة والاسلوب والوقت غير المنتظر لدى العدو مما يجعله أقل استعدادا لمواجهة أساليبنا الهجومية والوقائية والدفاعية على السواء مما يدفعه الى التوقف بعض الوقت أو التورط في أخطاء يمكن أن نفيد منها .

ح ــ الصدق :

باعتبار أن الحرب النفسية هي حرب الكلمة وهي الدعاية فأي خروج عن الصدق يفقد كلمتنا وزنها المحلي والدولي على السواء الا أن الصدق يجب أن يكون في حدود الامن القومي فالصدق الذي يفيد العدو يكون سلاحا له علينا ويجب أن نحجبه عنه .

ط ــ المرونة :

وهي سهولة التغير والتطور لمسايرة الاحداث وتعطي المرونة لخطط حروب الكلمة قدرة لا بديل لها في التحرك والتشكل وعدم الاصطدام بالاحداث أو الآراءوانما نختمها لصالحنا أو نبدي معالم الخطأ أو الانحراف فيها وتتطلب المرونة عدم الارتباط بغير الحقيقة التي يمكن اثباتها أما الحقيقة التي يغيب عنها الدليل عليها فجدير بنا ألا نقلها وفي أيدينا ما نستطيع به اثباتها .

والمرونة تفوّت على العدو أية مبادرة يفوز بها .

٦ ـ أضواء من القرآن :

ان لب موضوع الدعاية أو حرب الكلمة وهو ما اشتهر بين النـــاس باسم الحرب النفسية ، انما يكمن في مبادئها أما تقسيماتهـــا وتخطيطاتهـــا وأساليبها فلا شك أنها تخضع لظروف قد تتغير فيتغير تبعا لها تلك التقسيمات والتخطيطات والاساليب ولو رجعنا الى ملاذ كل مؤمن وهو القرآن الكريم لوجدنـــا أن المبادىء التي سبق أن قدمنا أنما اشتقت من آياته الكريمة وكأنها تترجم عنها ولنبدأ بأول المبادىء وهو :

المحافظة على الهدف فنجد أنه ترجمة مباشرة لمبدأ النية في العبادات الاسلامية فالنية هي ربط الفرد باقامة أحد الفروض والعبادات ليلتـــزم فعلا ذلك الفرد باقامة ذلك الفرض والعبادة .

ثم لنرجع الى هذه الآية الكريمة :

« فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظـــا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين »

(آل عمـــران ـــ ١٥٩)

والامر واضح بوجوب المشاورة والمراجعة والدرس والتمحيص حتى اذا ما انتهينا الى أمر يتضمن مواجهة كافة الاحتمالات ووضعت تفصيلات تنفيذه في خطة بسيطة واضحة حدد بها العزم والنية ... هنا فقط نتوكل على الله ونطلب منه العون والقـــوة والنصر حيث نكون قد عملنـــا على استحقاقـــه .

فالآية الكريمة أمر الهي واضح بوجوب التراحم والتشاور والارتباط بالهدف ثم أخيرا التوكل على الله سبحانه القادر المعين ، فالارتباط بالهدف والالتزام به أصبح بمقتضى الآية الكريمة هدى من الله وفرضا لا مناص من الاخذ به وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

اخطار الحرب النفسية ضد المسلمين

كان خليقا بنا أن ندرس الحــرب النفسية أصولهــا ووسائلها وأن نتعرف على كلمة الله فيها ، ونحن العرب نقاسي شرورها منذ نيف وثلاثمائة سنة حيث كان الغزو التركي ، نحن المسلمين نعــاني أحابيلها وأباطيلهــا وضغوطها وتحريفها للحق منذ امتد خنجر الأثم بيــد أبي لؤلؤة المجوسي الى صدر أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه من ١٣٥٠ سنة .

فنحن كمسلمين وكعرب تكاد الحرب النفسية بصورها الشتى قرون وراء قرون كان العدو فيها واحدا على مداها الطويل وهو القوى المناهضة للاسلام بعناصرها المجوسية واليهودية والكنسية فهي القــوى التي قتلت عمرا رضي الله عنه وهي التي فتحت نار الفتنة أيا م عثمان بن عفــان وهي التي أججت نيران الخــلاف والحرب الأهلية أيام ابن أبي طالب وهي التي أقامت أو ساعدت على قيام الدولة الاموية وهي التي أخرجت الخــوارج وهي التي عاونت على قيام دولة بني العباس وهي التي ملأت تاريخ العرب والاسلام بالمؤامرات وهي التي قوضت ملك العرب في الاندلس وهي التي ألبت اوروبا وأغرتها بهجمات الحروب الصليبية وهي التي دفعت نابليون ومن بعده بريطانيا الى الشرق العربي وهي التي أقــامت دولة الاحتــلال الصهيوني في فلسطين وهي التي تعمل على فرقة كلمــة العرب والمسلمين

حتى اليوم وهي التي تثير الشقاق والخلاف والشك والريبة بين الشقيقات من الاقطار العربية وهي التـي تمتص دمـاء وامكانيات العـرب من آبار البترول لتدعم بها الاعتداء والعدوان واهدار دم المسلمين والعرب مـن مسلمين ومسيحيين على السواء ••• وهي هي نفس القوى ما زالت تحاول أن تحرّف كلم الله في قرآنه المبين وهي التي زجت بما يسميه بالاسرائيليات في تفاسير الذكر الحكيم وفي السيرة النبوية وفي الفلسفة الاسلامية وهي التي عملت طـوال هذه القرون الطويلـة على حجبنـا عن مسايرة ركب الحضارة فاذا بنا اليوم متخلفين عن عصرنا القرن العشرين بمائتي سنة أو تزيد في مضمار الحضارة والقلم والمعرفة وكان هذا أسوأ ما فعلوا بنا وأكثر معالم نجاحهم فينا ولن يزالوا يحاولون معنا ضغطا وشقاقا وليس لهم من هدف الا أن تصمت ألسنة تقول « الله أكبر » وتخمد قلوب تخفق « أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله »

« ••• ولا يزالـون يقاتلونكـم حتى يردوكم عـن دينكـم إذا استطاعوا ••• » (البقرة ــ ٢١٧)

نسميها كيفما شئنا •• المجوس •• اليهود •• الصليبيين •• اوروبا كلها •• فرنسا •• بريطانيا •• الصهيونية أو الولايات المتحدة الامريكيـة أو الاستعمار أو الامبريالية فكلها واحـد بسماته وأهدافـه وان اختلفت الوسائل تحت الظروف •

المهم أن نكون على يقين أننا في حرب مستعرة فرضت علينا واستمرت طول هذه القرون المتصلة وليس لها من هدف الا وجودنا • واذا ما كان ايماننا بالله ورسوله وملائكته وكتبه واليوم الآخر هو ما يبغون اخمـاده الا أن وجودنا كجماعة حية هو مقصد عدوانهم ولن تكفوا الا أمام اثنين •

أولهمـا :

النجاح لا قدر الله في القضاء علينا كما فعلوا مع الهنـود الحمـر بأمريكـا •

ثانيهمـــا :

اقتناعهم تحت ضغط من قدرتنا الذاتية بتعـــذر القضاء علينــــا أو حرماننا من نعمة الايمان بمجاراتهم في التحلل من عقيدتنا • وذلك بالثبات على الايمان والترابط فيوحدة تجعل منا كلا واحدا لا بنفصمولا يتشقق• ولعل من المفيد أن أهم وسائلهم في حربنا هي :

١ ــ التفرقة العنصريــة وهي دعوى أبليس الكبرى التي استحق عليها أن يكون رجيما •

٢ ــ التسلل الى معتقداتنا ودس التزييف والأباطيل عليها للفصل الذهني بــين الأجيــال الحديثــة وموروثاتها عن الأجيـــال السابقــة •

٣ ــ اثارة نعرة سخيفة مضحكة عن أن العصر هو عصر العلــم وان العلم يتعارض مع الدين ، وفي هذا يجب أن يغرب عــن بالنا أن النشاط العلمي ما هو الا محاولات انسانية للوصول الى الادراك والمعرفة التي دعت اليها آيات القرآن الكريــم في مئات المواضع فالعلم لا يتعارض مع الاسلام •

٤ ــ الضغط علينا وتحدينا بالعلم وبالسلاح على أساس تخلفنـــا وضعفنا وتفرق كلمتنا مما يغريهم بنا ويزيدنا ضعفا •

٥ ــ اثارة الشكوك والريب فيما بيننا حتى لا تتوحد كلمتنا حتى لا نقاتلهم كافة كما يقاتلوننا كافة كما أمرنا الله •

وهناك أسباب أخرى كثيرة ووسائل شتى لا يتسع مجالنا لمناقشتها ولكن يقوم هنا سؤال هام هو سبب تقديم هذا الملحق وهو :

ماذا يفعل حامل كلمة الله والداعي بدعوة نبيه المصطفى (ص) ازاء كل هذا ؟

هل يرى أن الأمر أمر سياسة وحرب وهو رجل سلام واسلام بينما الاسلام هو الهدف ؟..

هل يتقاعس رجل الاسلام عن حماية الاسلام والزود عنه والجهـاد في سبيل الله عبادة وفرضا بالمال والنفس على كل مؤمن مسلم ؟..

هي معركتنا اذن .. معركة المسلمين .. معركة كل من يقرأ القرآن ويؤمن به قد تبدأ بالدعوة الى النظافـة والصحة والقيام بسائر العبادات وتقوى الله في كل ما يفعل المسلم ولكنها لا تتوقف حتى تنتهي بالمسلم .. كل مسلم الى قول فصل ... أما مؤمن مجاهد .. واما منافق متقاعس . ولا مناقشة في هذا ولا محاولة تبرير .. ولا سياسة ولا دبلوماسية ولكن يجب ألا يغيب عن البال أن هذه الدعوى لا يقصد منها مواجهة العنصرية بالعنصرية ولا التعصب بالتعصب ولكنها سماحة الاسلام نسوقها وتماسك المسلمين تتشبث به وندفع دائما بالتي هي أحسن حتى اذا ما كان افتئات رفضناه .. واذا ما كان عدوان رددناه نقاتلهم حيث قاتلونا ونخرجهـم من حيث أخرجونا ونقتلهم في ذلك حيث نثقفهم لا نبغي منهم عنتا ولا بنانا حتى اذا ما جنحوا للسلم والسلم لا يعني استلاب حقوقنا أو غلبتنا علـى أمرنا وانما السلم يعني ألا تهدر حقوقنا أو تستباح حرماتنا فاذا ما جنحوا لهذا السلم الذي نرضي جنحنا له فنحن المسلمين قوم لا نعتدي الا بمثل ما اعتدي علينا لأننا الأعزة بايماننا ولأننا الاعلون ما دمنا مؤمنين .

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلوكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتديـن » .

(البقرة ١٩٠)

ومرة أخرى نتساءل ماذا يفعل حامل كلمة الله والداعي بدعوة نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم ؟

١ ــ عليه أن يدرك حقيقة المعركة ومدى عمقها ويدرس تاريخهـا

وينأى عن دعوة العنصرية والتعصب ويذكر دائما أنـه ليس كل أعدائنا من غـير المسلمين وأنه ليس كل أصدقائنا مـن المسلمين فقط فهناك من يقولون أنهم يدعون بدعوة الاسلام ثم هم في جانب الأعداء أغلظ قلبا وأشرس عدوانا كما أن الى جوارنا من الاصدقاء ممن لا يؤمن بايماننا ومع ذلك تربطنا به روح وطنية تجعله يقف وطالما وقف أمام العدوان الصليبي وقفة القاتل الصامـد المصر ردا لكيد العدو . كمـا أن هناك أقوامـا كفروا بكهنوت الكنيسة وما ارتكب في بلادهم في ظلالها من مظالم كادت تستلب من الانسان انسانيته ومع ذلك ربطوا سفينتهم بسفينتنا وجعلوا من قدرتهم زادا لنا وعتادا نصرة لنا . وعليه أن يسعى بـين الناس ليدركوا من هـذا مـا أدرك .

٢ ــ عليه أن يدعو الناس للطاعة . فالطاعة ألزم مـا تكون وقت المعركة التي لا تحتمل ترددا أو تقاعسا أو تريثا أو تهاونا ...

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » .

(النساء ٥٩)

« وأطيعوا الله ورسولـه ولا تنازعـوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » .

(الانفال ٤٦)

في الآية الاولى يقرن الله عز وجـل بين طاعة ولي الامـر بطاعة الله ورسوله الأمين وولي الامر عندنا اخترناه بأنفسنا ولم يفرضه علينا أحد وفي نظامنا السياسي من أسلوب النقد

الذاتي والمساءلة ما يجعل كلامنا على بينة من أمره فلا نملـك
بنص الآية وفي ظروف تنظيمنا السياسي وما كفله لنا من حرية
أبداء الرأي والمراجعة الا أن نلتزم جميعا بأمر ولي الامر منـا
ونصدع بـه .

وفي الآية الثانية أمر صريح بطاعة الله ورسوله .. والرسول اذ ذاك هو قائد المعركة وتنهي الآية الكريمة المسلمين عن التنازع او التباغض حتى لا تذهب ريحهم . فالطاعة طاعة القائد هي ألزم لوازم المعركة وبلا طاعـة لا يمكن ان تكون معركة .

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال رسول الله (ص) .

« الغزو غزوان فاما من ابتغى وجه الله واطاع الامام وانفق الكريمة وياسر الشريك * واجتنب الفساد فان نومه وتنبهه أجر كله . واما مـن غزا فخرا ورياء وسمعة وعصى الامـام وأفسد في الارض فانه لن يرجـع بالكفاف » .

(الترغيب والترهيب من الحديث
باب الترغيب في اخلاص نية الجهاد)

والحديث الشريف جعل طاعة الامام أي القائـد أساسا في استحقاق المجاهد لفضل جهاده ومثوبته .

٣ ـ وعليه ان يدعو الناس الى التماسك والوحدة بل والفناء في التشكيل ليكون من جمع المسلمين وحدة متماسكة لا سبيل للعدو خلالها لا بالسلاح ولا بالقول فمن يسمح لعدوه ان يوسوس في صدره وسوسة الشيطان ويبثه ألغاما من الشكوك ومتفجرات مـن الريب وسموما مـن التحفظ والانكماش كمن يسمح لعدوه أن يشق لنفسه بسلاحه طريقـا في صفوف المسلمين بل لعل الوسسة أفعل وأقسى على المسلمين من السلاح لأنها تؤدي الى فرقة كلمتهم وانفراط تماسكهم وتحلل عقدهم .

---

* ياسر الشريك أي عامل الشريك باليسر والسماحة .

« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » .

(آل عمران ــ ١٠٣)

« ... وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » .

(التوبة ــ ٣٦)

٤ ــ وعليه ان يدعوا الناس الى الصبر والتصابر .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

(آل عمران ــ ٢٠٠)

والصبر هو قبول الاذى مؤقتا من أجل تحقيق هدف وما احلى النصر هدفا وما اجمل الصبر في سبيل الله أسلوبا وما امتع الذي ينتهي بنصر والنصر اما على العدو نصرا عسكريا او سياسيا او اقتصاديا او في أي لقاء من لقاءات المواجهة واما نصر بلقاء الله ورضاه عز وجل وهو المجزي من يقاتل في سبيله أحسن الجزاء .

« يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين .

(الصف ــ ١٠ ــ ١٣)

والآيات الكريمة انما تمثل مشروع عقد فيه بيع وشراء أي تجارة تفصيلها .. ايمان بالله ورسوله وجهاد في سبيل الله بالمال والنفس يقابله

غفران من الذنوب ودخول الجنة في مساكن طيبة مع ضمان النصر من اللـه وبشرى من الله الناصر القادر على الفتح القريب • فالصبر هـو الصمود في المعارك وتقبل مكارهها وأذاها فمن فقد صبره انمـا اسلم مصيره الى عـدوه •

٥ ـ وعليه ان يذكر ولا ينسى ان جهاد المؤمنين وحربهم لا ينتهي الا باحدى الحسنيين الشهادة او النصر فليس لمؤمن ان يغلب على امره وهـو الاعز وليس لمؤمن ان يركن الى هزيمة وهو الاعلا وليس لمؤمن ان يرضى بظلم او يسكت على أذى •

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة ومـن يقاتل في سبيل الله فيقتل او يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » •

(النساء ـ ٧٤)

ونلاحظ ان (فيقتل) مبني للمجهول بضم الياء وان (يغلب) بفتـح الياء وكسر اللام •

اذ ليس لمؤمن يقاتل في سبيل الله الا ان يغلب وينتصر او يقتل فـلا هزيمة ولا قرار لمؤمن •

« اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » •

(الحج ـ ٣٩)

لقد وردت مادة (الظلم) في القرآن الكريم ٢٨٩ مرة يكفي ان نوضح رأي الله عز وجل في من يظلم فتذكر الآية ٢٥٤ من سورة البقرة التي تنتهي بقوله تعالى •• « ••• والكافرون هم الظالمون » •

سئل النبي الكريم (ص) أي المؤمنين أكمل ايمانا قال « الذي يجاهد بنفسه وماله ورجل يعبد الله في شعب من الشعاب وقد كفى الناس شره » •

رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي •

(الترغيب والذهيب في باب الجهاد في سبيل الله) •

فالجهاد بالنفس والمال في سبيل الله هو أكمل صورة للايمان صدق رسول الله •

٦ ـ وعليه ان يدعو الناس أن يصموا آذانهم عن سماع ما يقول الاعداء اذ لن يقول هؤلاء الا ما يؤذي قضيتنا حتى ولو ارتاحت اليه اسماعنا • ومن يعير عدوه أذنه انما يمنحه مدخلا الى عقله يعبث به ويحرفه ويظلله ويبث فيه من المخاوف والشكوك ما يسهل مأموريته في المعركة والعدو انما يوكل امر أقواله لمتخصصين متفقهين في عرض ما يقولون ليجذب الاسماع ويثير الاهتمام ولا يلبث بحكم خبرتهم ان يلين ويفسح في ذهنه مكانا لآرائهم وأقوالهم قد يتأذى هو بها ولا يتأثر وانما يصبح كحامل الميكروب ينقل المرض الى غيره دون أن يشكو هو أعراضه او يعاني منه شيئا • والاستماع الى ما يقول العدو من غير المتخصصين انما يعني :

أ ـ اهتزاز الايمان •
ب ـ افتقاد الثقة في النفس وفي الجماعة •
ج ـ الخروج او الاقبال على الخروج عن صفة الجماعة •
د ـ تلمس أسباب النكوص ومبررات القعود •

وعلى أية حال ماذا يتوقع انسان أن يسمع من عدوه غير ما يؤذيه ويفسد عليه موقفه ومعركته ؟ وهذا التساؤل يدفعنا دفعا لمناقشة الشائعات التي يروج لها العدو ويرددها • من يرضى منا ان يلبس لباسه بما يقول • وأقوال العدو وشائعاته وما يبتكره المترون والمنحرفون انما هي الغام ذهنية تفتت العضد وتفتت الوحدة وتصدع الصف وتثير الخور والخوف وتشغل العقل والبال عما يأتيه العدو ويفعله •

فليس عندنا لاقوال العدو وسائر الشائعات الا ان نأدها حيثما لقيناها حتى لا يحمل واحد منا وزر ترويجها حيث يريد العدو ويتمنى

وكأني بذلك الواحد تطوع للعمل لصالح العدو وخلف صفوفنا وبين ظهرانينا وكأنه منا وهو علينا بل هو أسوأ علينا من العدو وأكثر أذى من جواسيسه وأفدح شرا من مدرعاته وطياراته .

واني لاذكر هنا واقعة الافك وكيف طلب الى ام المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أن تتوب عما اقترفت اذ ما كانت تورطت فيه فعلا أي ان الشائعة حولها ارتقت حتى شارفت مرتبة التصديق وكأنها أمر واقع ولاذت أم المؤمنين بأبويها رضي الله عنهم أجمعين فلم يجد ما يجيبا به لأن الشائعة على جسامتها تقرع آذانهما وهما لا يملكان التصديق التام أو التكذيب البات فتوجهت المظلومة الى زوجها صلى الله عليه وسلم وقالت :

ـ والله ما أتوب الى الله مما ذكرت ابدا . والله أني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس ، والله يعلم أني بريئة ، لأقولن ما لم يكن . ولئن أنكرت ما يقولون ، لا تصدقونني .

وارتجت السماوات والارض لأنة المظلومة وما تعاني من حرج وأشرق نور الحقيقة من ثنايا آيات بينات تحصل دليل البراءة والطهارة لأم المؤمنين عائشة وتصون أعراض الناس وتشترط شهادة أربعة من اجل اثبات ما قد يرجف به الراجفون وتنعى على من يقولون ويرددون ما لا يعلمون ولولا فضل من الله ورحمة لمسهم بما قالوا عذاب اليم .

« ان الذين جاءوا بالأفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا اذا سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا قالوا هذا افك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فاذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم . اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون

بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم • ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا ان نتكلم بهذا سبحانك هذابهتان عظيـم • يعظكم الله ان تعودوا لمثله ابدا ان كنتم مؤمنين • ويبـين الله لكم الآيات والله عليم حكيم • ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون » •

(النور — ١١ / ١٩)

وهكذا يحرم الله علينا تحريما بينا الا نقول مالا نعلم وينذر من يفعل ذلك منا بعذاب اليم • وما الشائعات ونقلها وترديدها الا قول الانسان مالا يعلم مهما بدت امامه الامور واضحـة مذكرة سبحانه وحده عليم بمـا في الصدور •

٧ — عليه ان يدعو الناس الا يأبهوا لنكوص المنافقين والمترددبن وان يحض الواحد منهم الباقين على القتال ويحرضهم دون ان يشترط قيامهم معه وحده فلا يكلف الانسان بالقتال الا نفسه •

« ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » •

(النساء — ١٤٥)

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنـم وبئس المصير » •

(التوبة — ٧٣)

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله او ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون » •

(آل عمران — ١٦٧)

« فقاتل في سبيل الله لا تكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلا » •

(النساء — ٨٤)

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين وان يكن مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

(الانفال ـ ٦٥)

هن خمس آيات كريمات اخترتها لنعرف امر المنافقين ونعلم مسئولية القتال ومسئولية الداعي له اين تنتهي . ففي الاولى تحذير صريح بان النار مأوى للمنافقين في أسفل درك منها . وفي الثانية تحريض وأمر للرسول الكريم ولكل من يدعو دعوته أن يجاهد الكفار والمنافقين ويغلظ عليهم ويهدد أولئك بالنار وبئس المصير والتحريض هنا والامر بالمجاهدة انما يقوم لاسباب جدير بنا أن نلم بها وهي :

أ ـ ليجعل من حياة الكفار والمنافقين عناء لا يطيقونه ويضيقون به علهم يقلعون عما هم فيه .

ب ـ ليحذر الناس شر التورط فيما تورط فيه هؤلاء الكفار والمنافقون من عناء في الدنيا وعذاب في الاخرة .

حـ ـ ان اشتراك الانسان في مجاهدة ما تدفع به للانحياز لصف ورأي يتعذر عليه بعد ذلك قبول خلافه ففي المجاهدة اذن وقاية للمجاهدين .

وفي الآية الكريمة الثالثة ينعي الله عز وجل على المنافقين أن يقولوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم وأن يتعللوا بالأسباب المختلفة والمبررات المكذوبة للتحلل من شرف قتال المعتدين .

وفي الرابعة يطلب القرآن الكريم من النبي ومن كل مؤمن ألا يكلف بالقتال الا نفسه فلا يدفع الناس دفعا للقتال اذ لن يحمي الصبر على مكاره القتال الا المؤمن الذي حسن ايمانه وباع ماله ونفسه لله عز وجل .

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة

يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم بـه وذلك هو الفوز العظيم » .

(التوبة ــ ١١١)

وفي الاخيرة يأمر الله رسوله أن يحرض المؤمنين على القتال دفاعا عن ديارهم وردا لعدوان المعتدين فهو قتال في سبيل الله وبعده ويعد المؤمنين بالنصر على من يفوقونهم عدا عشر مرات فالعشرين يغلبون مائتين والمائة يغلبون ألفا .

« ... وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

(الروم ــ ٤٧)

٨ ــ وعليه أن يدعو الناس أن يوقفوا النزاع والخلاف بين الحلفاء حتى لا تتهدد الوحدة وتتصدع الجبهة ويتفرق الشمل وتتوزع العصبة فيكون بعضنا على بعضنا بدلا من أن كلنا على العدو .

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فـان بغـت احداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ان الله يحب المقسطين » .

(الحجرات ــ ٩)

سبحان الله . كان الله لنا نحن العرب نحن المصريين . لقد كان عزمنا يوم الاسراء من عام ١٣٩٠ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ في سبيل الله اذن . لقد قضى قائدنا وزعيمنا في سبيل الله اذن وهو الداعي لدأب الصـدع الذي تبدى في الاردن وهو المبادر لوقف القتال هناك بين العرب والعرب وهو الذي تحمس فنسي مرضه واندفع ونسي حاجته للتطبيب والراحـة ليصون دم العرب والمسلمين المهرق .. ودفع في ذلك حياته ودفعنا معـه قائدا وزعيما شق علينا أن نراه يغيب . ولعل المبادرة الجديدة في فتح صفحة

جديدة مع حكام العراق هي من باب ازالة أسباب الفرقة بين العرب والمسلمين وفي سبيل وحدة الصف العربي المسلم في مواجهة العدوان الاستعماري الصهيوني في أرض العرب وبعد فلعل خير ما تختم به هذا الحديث أن نذكر القول الكريم •

« قل للذين كفروا أن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وأن يعودوا فقد مضت سنة الأولين • وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير • وان تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير » •

(الانفال ــ ٣٨ / ٤٠)

الاسس النفسية للدعوة الاسلامية

١ ــ باعتبار أن الاسلام هو دين الفطرة الانسانية فلم يكن من المفروض بذل أي جهد للدعوة له الا أن الفطرة الانسانية ليست بالنقاء الذي يجعلها حرة التعبير صادقة الاحساس فهناك قوى كثيرة ، خصوصا في القرن العشرين ، تؤثر على فطرة الانسان وتحرمها براءتها ونقاءها وطهرها ويمكن اجمال هذه القوى في الآتي :

أ ــ الطوفان العلمي الذي فاجأ الحياة الانسانية مع مطلع هذا القرن •

ب ــ الثورة الاجتماعية التي بدأت تواجه العالم منذ القرن الثامن عشر لتتبدى في صورتها المحددة الواضحة في العقد الثاني من هذا القرن •

حـ ــ الحربان العالميتان وقد عانا منهما العالم بفارق بين بدايتها لا يزيد عن ٢٥ عاما [1] وما صاحبهما من :

---

(١) بدات الحرب العالمية الاولى في اغسطس ١٩١٤ وبدات الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ •

١ ــ اختلال في القيم الأخلاقية •

٢ ــ الطفرة التكنولوجية التي طوعت الآلة لاحتياجات الانسان وزادت كثيرا من معدل التطور والرقي •

٣ ــ سهولة ويسر الاتصال مما جعل العالم يعيش بنبض خيري واحد •

٤ ــ روح العنصرية والتعصب التي أخذت تتكشف عنها الحياة الانسانية وضراوة عملية استقطاب القوى البشرية والعلمية حول القطبين المتنافرين •• الرأسمالية والاشتراكية •

٥ ــ انحسار قوى المد والتجدد الاسلامي في طيات الخلافة العثمانية التي عجزت أن تقدم للاسلام جديدا والتي ما لبثت أن أفلست هي نفسها في أعقاب الحرب العالمية الاولى •

٦ ــ التمزيق السياسي الذي عاناه العالم الاسلامي فتبددت الكلمة وتفرقت الفلسفة وفقد الصف الاسلامي مقوماته أو كاد •

٧ ــ تشيع قوى الاستعمار الغربي وتدعيمه وتزكيته لتشكيل فرق الانحراف الاسلامي من باطنية وقادشية وغيرها وافساحه المجال لانتشارها بين شعوب الاسلام المتخلفة ثقافيا مثل مسلمي أفريقيا وآسيا •

د ــ التناقض الحضاري في الحياة الانسانية في طيات الخلاف السياسي ؛ وما تخلف عنه من اهتزاز المثل الانسانية العليا وشحوب وجه الدين بصفة عامة تحت ضغط الامعان في التناقض مع انحياز الانسان بصفة عامة ــ تحت وطأة الحاجة ــ للكسب المادي المباشر •

هـ ــ نجاح الصهيونية وأترابها في الترويج للخلاص من الارتباط العقيدي الديني والوطني والقومي على السواء •

و ــ حاجة الحركة الاشتراكية العالمية باعتبارها الثورة الانسانية الاجتماعية الشاملة في ثوبها الشيوعي الى انكار الحاجة للدين ــ ولقد كان التعفن الديني في بلاد كروسيا والصين ــ من الأسباب الرئيسية للتخلف القومي بصفة عامة بل كان الدين دائما سلاحا أحسنت السلطات التضليل باستخدامه لتعطيل هذه الثورة وتأجيل موعدها ، ولم تعن هذه الثورة لأكثر من سبب من الاستفادة من الدين كمنطلق أساسي للاصلاح الاجتماعي الثوري وقد يكون لافتقادها حقيقة رأي الاسلام في العدل الاجتماعي واضطراد النمو الثوري من أجل الجماعة كان سببا رئيسيا من أسباب اغفالها هذا المنطلق الحيوي للثورة والاصلاح الاجتماعي بصفة عامة •

ولا شك أن على دعاة الاسلام في كل وقت ومكان الافادة من نقط التلاقي بين الايمان الاسلامي وبين أهداف وأسلوب الثورة الاشتراكية التي لا تكاد تتعارض مع هذا الايمان الا في اليسير من التفاصيل التي يحمل كل من المنطقين الاسلامي والاشتراكي امكانية الالتقاء الفكري فيها من أجل صالح المسلمين والعالم كله على السواء •

٢ ــ ليس المقصود من هذه الدراسة مناقشة علمية أو فلسفية أو نفسية للدعوة الاسلامية بقدر ما هو مقصود تقديم خطة عمل صالحة للتنفيذ باعتبارها مجرد مشروع مقترح لما يمكن أن تكون عليه حال الدعوة لدى واعظ أو امام لجماعة محدودة تمثل محلة أو قرية أو حيا محدود المعالم كمجتمع مستقر •

٣ ــ يحتاج تنفيذ المشروع الى كثير من المرونة وهو على أي حال يقوم على أسس ثلاثة هي :

أ ــ عدم التعارض مع القوانين واللوائح الحكومية •

ب ــ عدم التعارض مع التنظيمات الشعبية ومجال نشاطها •

حـ ــ عدم التعارض مع المثل العليا لدى الجماعة .

فالمشروع لا يقوم على دعوة غير المؤمنين للايمان بالاسلام وانما يقوم على اصلاح اسلام المؤمنين واصلاح أمور دنياهم وآخرتهم على السواء .

٤ ــ ان التعامل مع انسان ما بنجاح يتطلب التعـرف على معالمـه النفسية وأثر كل من القوة الدافعة للنشاط والقوى الموجهة له على سلوك الانسان مما يمكن تفصيله في الآتي :

أ ــ طبيعة (الهو) والدوافع والقوى الدافعة للنشاط ومدى الحاحها وقوتها وأثرها الخاص على السلوك العام لذلك الانسان .

ب ــ قدرة (الأنا) على السيطرة على منابع النشاط الانساني ومصادر توجيهه ومدى نجاحه في الالتقاء مع المثل العليا للانسان أو على الأقـل عدم تعارضه معها وكذلك مدى التقائه مع المثل العليا الغالبة للجماعة .

حـ ــ طبيعة (الأنا الأعلا) واتساع الأفق لديه بالمعرفة والخبـرة ومدى سيطرته على سلوك الانسان والزام هذا السلوك بأحكامه أي أحكام الأنا والأعلا .

د ــ الآثار الانفعالية والوجدانية لتعامل هذه القوى الثلاث معـا فيما بينها ومقامها كمجموعة مع البيئة المحيطة .

هـ ــ وقع هذا الانسان على الجماعة التي يعايشها وأثره في توجيه نشاط أو انفعال جانب منها وقدر هذا الجانب .

٥ ــ واذا ما كان التعامل مع جماعة من الناس لها تجانسها وتشكيلها الاجتماعي مما يجعل منها الجانب البشري في بيئـة معينـة تطلب الأمر التعرف على المعلومات الآتية :

أ ــ المستوى الثقافي العام وطواعيته للتطور والتشكيل والملامـح

الغالبة عليه والعناصر المكونة له وخلفية كل عنصر التاريخية وطبيعةتشكيله النفسي والاجتماعي • وهذه الدراسة تتطلب تغطية النقط الآتية :

١ ــ أصول واتجاهات منابع كل عنصر من عناصر تكوين المواجهة الثقافية العامة •

٢ ــ أثر ووزن كل عنصر من هذه العناصر في تكوين المواجهةالثقافية العامة •

٣ ــ الروابط القومية والأنثروبولوجية (١) لهذه العناصر وقدرتها على التشكل والتكيف والتطور •

٤ ــ الآثار الانفعالية والوجدانية لكل من هذه العناصر على المزاج العام للجماعة واتجاهاتها السلوكية •

ب ــ الفروق الثقافية وطبيعة فواصلها وهو أمر يناقش طبيعة الروابط الثقافية في الجماعة وما يعتورها من فجوات وانفصامات وما تجمله من عناصر الدعم والتوكيد وأثر ذلك على فرض التجانس الثقافي المحلي للجماعة وهو أحد العناصر الأساسية الهامة لتشكيل الهيكل البيئي للجماعة وما يتطلبه هذا التشكيل من تكافل وتعاون وتكامل • وتتطلب هذه الدراسة مناقشة النقط الآتية :

١ ــ تحديد عدد ومدى الخلافات الثقافية وأثر كل منها على حالة الهيكل البيئي العام للجماعة •

٢ ــ تحديد أفق واتجاه كل عنصر ثقافي يدخل في تشكيل الواجهة الثقافية العامة •

٣ ــ العوامل المؤثرة على وجود هذه الفروق الثقافية سواء أكانت

---

(١) الانتروبولوجي هو علم دراسة تاريخ الحضارة للانسان .

تؤثر بالايجاب او بالسلب على وجود هذه الفروق ، ووقع كل عامل منها .

٤ ــ مدى تأثر الانفعالات الفردية والجماعية بهذه الفروق ومحصلة هذه الفروق على الحالة الوجدانية للجماعة .

حـ ــ المشاكل الاجتماعية الغالبة لدى الجماعة والعوامل المؤثرة على هذه المشاكل (بالايجاب أو بالسلب) . وليس من المستطاع حصر هذه المشاكل التي تتغير وتتلون تبعا لتغير البيئة والجماعة . ومع ذلك فاننا نقدم هنا أكثر المشاكل الاجتماعية الحاحا في مجتمعنا في مصر وهي تكاد تتكرر بأسبقياتها في المجتمعات المتطلعة التالية :

١ ــ المشاكل الأسرية من قلة التفاهم والطلاق ومعركة السيطرة داخل الأسرة والمتاعب النفسية وآثارها على الأسرة .

٢ ــ مشاكل العمل من فرص عمل وكفاية انتاجية ومشاكل عمالية من تعيين ونقل وعلاج وخلافه .

٣ ــ مشاكل الشباب من جدية وايجابية وأوقات فراغ وانحراف وانفعالات جماعية وغيرها .

٤ ــ مشاكل العقيدة وظواهر الالتزام بالفرائض وهي قطاع يتيم لا يكاد يجد من يهتم بحل مشاكله وان كانت تقدم خدمات ايحائية تقدم خدماتها بطريقة غير مباشرة . وهذه هي صلب واجبات الداعية .

٥ ــ مشاكل تربوية فالتربية وهي أضخم عملية استثمار ممكن أن يقوم بها جيل من الاجيال فما زال الجانب الاكبر منها يمارس بالهواية التطوعية غير المتخصصة ولا المسؤولة .

٦ ــ مشاكل اقتصادية من رفع مستوى المعيشة وزيادة الدخل للفرد وللأسرة وظروف الأسر .

٧ ـ مشاكل صحية من وقاية ورعاية وعلاج المرضى وحالات المستشفيات ودور العلاج ورعاية وعلاج المغتربين والافراد المنفصلين عن أسرهم •

٨ ـ مشاكل ثقافية ومحو الأمية من أجل رفع الحد الأدنى للثقافة العامة ومحاربة البدع والطقوس الاجتماعية والدينية التي لا تتناسب مع سلامة العقيدة ولاصلاح المجتمع •

٦ ـ الكشف عن العناصر القيادية في الجماعة فهذه العناصر هي الكفيلة بتحريك المجتمع بما تملك من قدرات دافقة وموجهة • وهي عناصر لها مواهبها الخاصة في القيادة والتحريك والتوجيه ، ولا شك أن الخبرة والعلم والثقافة تساعد مساعدة فعالة جدية في اكتساب جانب من هذه القدرات الا ان المواهب الذاتية والقابلية الشخصية هي الاصل في احراز المركز القيادي بين الجماهير وبدونها لا تكاد تجدي عناصر الخبرة والعلم والثقافة شيئا • وتتميز الشخصية القيادية بالملامح الغالبة الآتية :

أ ـ القدرة على الاستماع الى الاخرين واستيعاب ما يقولون •

ب ـ القدرة على الافصاح عن خلاص ما يدور في اذهان الناس في عبارات تتميز بأنها :

١ ـ واضحة ميسرة الفهم مبسطة •

٢ ـ مركزة مختصرة مقنعة •

٣ ـ مثيرة تدفع المستمعين الى الانفعال •

ح ـ القدرة على ضبط الانفعالات الذاتية مع اثارة انفعالات الآخرين •

د ـ القدرة على اقناع الناس بأنه نعم القدوة التي تحتذى •

ه ـ القدرة على سرعة بناء العلاقات والتفاهم مع الناس •

٧ ـ وضع أسبقيات عمل لمواجهة احتياجات ومشاكل البيئة • وهي

مرحلة أساسية من مراحل التخطيط اذ أنها تبرز خطـوات عمـل يؤدي اقترانها بالحاجات الملحة لدى الناس والتي تفوزباهتمامهم أكثر من غيرها، يؤدي ذلك الى التزام الناس بالخطة العامة وارتباطهم بأسلوب العمـل • وعلى ذلك تقوم الاسبقيات بصفة عامة على عاملين :

أ ــ مدى اهتمام الناس بالمشكلة وجهودهم للخلاص منها •

ب ــ امكانية التغلب محليا على المشكلة •

٨ ــ تكوين لجان المسجد لخدمة البيئة :

واذا ما ارتأى مجتمع المسجد تشكيل لجنة أو أكثر لخدمة البيئـة لا يمكن أن يعتبر مجرد التشكيل هدفا في حد ذاته بل لا تزيد عن أنتكون مجرد خطوة في الاسلوب أو مجرد مرحلة في خطوات العمل • واذا ما كان قد تشكل وتكون لجنة أو اكثر فينبغي أن يحاط هذا التشكيل بالملحوظات الآتية :

أ ــ عدم التعارض بأي درجة من التنظيمات الحكومية والشعبيـة القائمة بل الأجدر الافادة من القائم منها طالما يقوم على نفس الاهـداف بصفة عامة فيجذب ليعمل في رحاب المسجد ان تيسر •

ب ــ يقوم العمل في هذه اللجان على التطوع المحض ويتم التوسع في عضوياتها لاتاحة الفرصة لأكبر عدد من الناس للمساهمة في أداء الخير العام ومتابعة أحداث البيئة •

حـ ــ من المصلحة ولا شك الافادة من عناصر المتخصصين من موظفي الحكومة لتفادي تخطي القواعد والقوانين واللوائح المعمل بها • وبصفة عامة لا يجوز جمع أي مبالغ من المال الا بموافقة وزارة الشؤون الاجتماعية مع الالتزام بشروطها في ذلك •

د ــ مع أن الداعية أو الامام أو الواعظ من المفروض أن يكونالقلب النابض والعقل المفكر والقوة المحركة والموجهة لكل اللجان الا أنه ينبغي

له أن يبتعد عن مراحل التنفيذ لا هربا من مسؤولياتها ولكن للأسباب الآتية :

١ ـ امكانية متابعة التنفيذ وسلامة تقوية الجهود المبذولة ونقدها نقدا ايجابيا بناء • وهو بوقفته هذه انما يمثل وجهة النظر الشعبية العامة •

٢ ـ توزيع المسؤوليات المختلفة على افراد مختلفين فانه لن يستطيع أن يحمل أعباءها جميعا •

٣ ـ الابتعاد عن المظنة والشبهة التي تطوف عادة بأشخاص القائمين على التنفيذ ليظل هو دائما ملاذ الناس ومرجعهم للنقد والاصلاح •

٤ ـ لامكانية الافادة من تخصصات المتطوعين المختلفة وخبراتهم ، كل في جهة اختصاصه وخبرته • للحصول على أحسن النتائج وأسرعها بأقل فرص ممكنة للخطأ •

ه ـ اذ ما أوردنا هنا عددا من أسماء اللجان الممكن تشكيلها ، فلا يعني هذا ابدا ان نقتصر في العمل على هذا العدد وعلى أسماء اللجان لأن الأمر يجب أن يترك بالكامل لابتكار الأفراد في محيط البيئة ولا يقوم الداعية الموجه الا بواجب التبصير والايضاح وضرب الأمثلة • وعلى أي الحالات يمكن تشكيل بعض أو كل أو غير اللجان المقترحة الاتية :

١ ـ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر • ولا يتم ذلك الا في حدود القانون لمواجهة انحرافات تفصيلية منفردة مثل تكرار اعتداء الزوج على زوجته بالضرب أو عمليات الغش التجاري والتحلل من التسعيرة بأساليب لا يواجهها القانون أو الظهور بمظاهر لا تتفق مع المناخ الاسلامي الذي يرتضيه المؤمنون لأنفسهم مثل السكر والعربدة • التحلل من احترام أواصر الجيرة ومثل الارتداء الأزياء غير المناسبة أو التفوه بألفاظ السباب وبخاصة (سب الدين) •

٢ ـ لجنة المصالحات

وتقوم باصلاح ذات البين

١ ـ في داخل الاسرة •

٢ ـ لحل مشاكل الجيرة •

٣ ـ لجنة الاغاثة العاجلة

لمعاونة من تحل بهم مصائب مفاجئة مثل حريق المسكن أو انهياره أو فقدان رب الأسرة أو أحد عناصر اعالتها •

٤ ـ لجنة رعاية الجيرة

لاشاعة روح تبادل الخدمات والمجاملات والحرص على حريات البعض ازاء حريات الآخرين (مثل منع الصخب والضجة مع حاجة الجيرة للهدوء لوجود مريض أو طلبة يلزمهم الهدوء للاستذكار) •

٥ ـ لجنة خدمة المهاجرين والنازحين

ولو أن هذه اللجنة موقوتة بظروف الحرب الا أنها جديرة بالتكوين فور وقوع أي دمار شامل ، بسبب الحريق أو غيره من عناصر الطبيعة مثلما يحدث عادة في الريف وطبعا تشكل اللجان في القرى المحيطة في القرية المصابة • وواضح أن واجب اللجنة هو دراسة كل امكانيات الاسعاف الجماعي والفردي للمصابين ومد يد المعونة العينية لتخفيف أثر ما وقع ليشيع التكافل بين الناس بالبيئات على السواء •

٦ ـ لجنة تدعيم العقيدة :

وذلك باشاعة الاهتمام بأمرها وتثبيت معاني الايمان في قلوب الناس ورفع مستوى الايمان لديهم عن طريق التثقيف الديني العام وايصاله بقدر الطاقة لكل فرد حيثما كان لا يكتفي مثلا بالمترددين على المساجد •

٧ ـ لجنة رعاية السلوك العام :

وهي لجنة تحمي المجتمع من الانحرافات السلوكية للافراد أو حتى للمجتمعات الصغرى • دون ما مساس حقوق الفرد في الحرية والانطلاق الى الحدود التي لا تؤذي مشاعر أو حقوق الاخرين في الامن والسلام في ظل ما ارتضوه لانفسهم من مقاييس سلوكية ومن مثل عليا •

٨ ــ لجنة ربط البيئة بالاهداف والاساليب الوطنية القومية • وهي لجنة تقوم على مناقشة ودراسة الاهداف والخطط الوطنية والقومية وترجمتها الى أساليب عمل مقترحة في رحاب البيئة يقتنع بها الافراد ويلتزمون بتنفيذها ، ولذا كان هنالك تشابه وتكرار للجان التنظيمات الشعبية في ج•ع•م• ودول أخرى الا أن هذه الخطة لا تعني قطرا أو وطنا معينا بذاته كما أنها تعني وجوب مشاركة المسجد والدعوة الاسلامية مشاركة ايجابية في العمل الوطني على وجه العموم • وتوكيداً لايجابية الروح الاسلامية ودعوتها المقدسة الأزلية للتماسك والتضافر والتعاون على البر والتقوى وما فيه صالح الناس •

٩ ــ لجنة حماية حقوق الفرد والجماعة وهي لجنة تبرز معاني التكافل الجماعي في الاسلام امام مشقة أو ضرر أصاب فردا فالكل يعمل من اجل الواحد ليطمئن كل واحد في رحاب الكل • وهي ترجمة اجتماعية لحاجة المجتمع الاشتراكي اقتصاديا لما يسمى بالقطاع العام •

١٠ ــ لجنة محو الأمية ــ أو لجنة الخدمات العامة وهي لجنة أو لجان تتشكل لمواجهة مشكلة بذاتها تلح بوزن ثقيل على البيئة مثل مشكلة محو الأمية أو غيرها مثل مشكلة الوقاية من الآفات الزراعية أو مشكلة انتشار الحريق أو أي آفات صحية أو اجتماعية أخرى •

١١ ــ لجنة الصندوق وهي اللجنة التي تتولى النقود لمواجهة احتياجات الجماهير كما تتولى صرفها فيما خصص لها بموجب قرارات يصدرها الناس بحشودهم أو ممثلين في مجلس يختارونه ومن الصالح ولا

شك أن يصدر بيان حسابي بكل مبلغ صرف أو أضيف للصندوق مع بيان تاريخ وظروف اضافته أو تاريخ ونص قرار صرفه ليكون الناس على بينة تامة ودقيقة بظروف أموالهم العامة •

٩ ــ خطوات العمل :

أ ــ يعين الداعية اماما كان أم واعظا بمقتضى قرار في مستوى القرار الوزاري في ج•ع•م• وينشر القرار على الناس في لوحة خاصة بالمسجد أو المركز الثقافي الديني ومعه موجز عن سيرته وطبيعة دراسته والوظائف التي سبق ان شغلها وحالته الاجتماعية وأسماء أبنائه وبناته وأعمارهم ان وجد وكل ما يرى اعلانه للناس من شأنه •

ب ــ يعيش الداعية بين الناس بالمعروف يعود مريضهم ويجامل من أصابته منهم شدة ويشارك الناس أفراحهم وأتراحهم •

حـ ــ يختار أنسب الاوقات لتقديم دروسه الدينية وعظاته للناس من واقع مشاكل الناس ومتاعبهم التي يتعرف عليها من المصادر الآتية :

١ ــ لجان التشكيلات الشعبية •
٢ ــ محكمة الاحوال الشخصية والمدنية المختصة بالبيئة •
٣ ــ مكتب الشؤون الاجتماعية المختص والمدارس •
٤ ــ مركز أو قسم الشرطة المختص •
٥ ــ جمعيات الخدمة العامة الاهلية •
٦ ــ ما يستخلصه من مناقشة مع الناس ومعرفته بأحوالهموطبيعة اقبالهم على العبادة وعلى التكافل الاجتماعي •

د ــ الخدمة الذي يرى مناسبة للبيئة وبتحديد اللجان التي يرى لزومها ويدعو الناس بشتى الوسائل للتطوع للعمل من أجل الارتفاع بمستوى التكافل الاجتماعي وتبادل الخدمات ومواجهة الاحتياجات الفردية والجماعية •

هـ - يتخذ من غرض الحشود الجماعية منطلقا للتحدث الى النـاس ودعوة البعض وتشجيع الباقين للادلاء بآرائهم علنا فيما يقول مع تبصرتهم بفرص تحسين احوالهم وتعدد الحلول لكل مشكلة من مشاكلهم العامة والخاصة ، وهذه الحشود في العادة هي :

١ - التجمع بالمسجد للصلاة .

٢ - تجمعات الأندية والساحات الشعبية .

٣ - تجمعات مجالس الآباء في المدارس .

٤ - تجمعات النقابات والجمعيات الخاصة .

٥ - فرص الاحتفال بالمناسبات المختلفة .

و - يزور الناس في منازلهم ومحافلهم ويشجعهم كأفراد للمساهمـة في خدمات الدعوة ، كلا بالأسلوب الذي يناسبه .

ز - ينظم في حدود طاقات البيئة لقاءات مع صفوة الأئمة والدعـاة والمتخصصين في فروع العلم المختلفة للتحدث الى الناس فيما ينفعهم من أمور الدنيا والآخرة وحبذا لو عرض في هذه الندوات للمشكلات الملحة في البيئة لتقديمها وفرص حلها الى أذهان الناس في أحسن صورة .

ح - يجري دراسة شاملة للبيئة بمقتضى استمارة يعدها يوضح فيها العناصر الآتية :

١ - الاسم والعمل والحالة الاجتماعية والسن والمستوى العلمـي والثقافي وسابق الخبرات والعمل .

٢ - مشكلات الفرد الخاصة بحسب أسبقياتها من وجهة نظره .

٣ - مشكلات الجماعة بحسب أسبقياتها من وجهة نظر الفرد .

٤ - طبيعة ايمانه ومدى تمسكه بالفرائض وأهداف الدين .

٥ - مظاهر الانحراف السلوكي بين الناس حسب أسبقيات ظواهره طبقا لأهميتها .

٦ ــ مظاهر التمسك بأهداب الدين كما يراها في الناس مع وضع أسبقيات لها طبقا لأهميتها •

٧ ــ أسماء الناس التي يرى مساهمتهم في مشروع خدمات المسجد•

ط ــ من الاستمارات التي توزع على اكبر عدد من الناس بمعرفة متطوعين يجيدون القراءة والكتابة ، يستخلص النتائج التي تبرز :

١ ــ العيوب القائمة الواجب التخلص منها وعلاجها •

٢ ــ العيوب المتوقعة التي يجدر توقيها •

٣ ــ مظاهر الصلاح والهدى والتقوى التي يمكن الاستفادة منها والانطلاق منها :

أ ــ لتثبت هذه المظاهر ونشرها •

ب ــ للقضاء على العيوب القائمة والمتوقعة •

ي ــ يمكن الاستفادة من أخصائي الخدمة الاجتماعية والاحصاء في اعداد برامج تربوية تقوم على منهج راشد من ممارسة شعائر هذا الدين•

المبحث الثالث

الانسان في هذا الكون الرحيب

الادراك الحسن

الفكر جوهر الوجود الانساني

الادراك الحسي والادراك الفكري عند الانسان

التفاعل بين خواص الفعل والكون الطبيعي

العقل الانساني في مجـال المحسات

مناهج القرآن في النظر

النظر فيما بين الاشياء من علاقة

الانسان في هذا القرن الرحيب

١ ـ اذا تأمل الانسان قليلا في نفسه وفيما حوله بدا له بوضوح انه لم يخلق نفسه أيضا لم يخلق شيئا مما حوله،وان شيئا مما حوله لم يخلق نفسه •• وانه لم يخلق من غير شيء •• وان موجدا أوجده لا بد •

فاذا ذهبنا نناقش هذا الكلام بدا لنا منه ما يلي :

أولا : انه تتضمن حقائق بديهية صادقة بلا ريب ، ليس فيها ظل للظن ، أو القاء للوهم فليس ثمة من يقول مثلا انا خلقت شيئا مما حولي ، أو قد خلقت نفسي ••الخ ••

ثانيا : ان الكائنات المحسة كافة تفقد خاصية الايجاد ، اذ ليس فيها من قد أوجد نفسه فضلا عن ايجاد غيره ، وليس هو بمستطيع ذلك ••• كما انها ـ أي الكائنات تتضمن حقيقة قاطعة بأن خالقا خلقها ولا بد ••

ثالثا : ان هذه الحقائق البديهية اليقينية لم يبصرها مكتوبة على الكائنات بمداد في سطور وكلمات ، ولا بأي مادة ولا بأي نقش ، أو رمز •• أي لم يرها بعينه ولم يشهدها حاسة له ••

رابعا : بما أن هذه المعاني تمثل حقائق واقعة لا ريب فيها ، وبما ان المجواس لم تشهدها فكيف وقف عليها الانسان وعرفها ؟ انه لم ينزل بها وحي عليه •• ولم يلقنها له احد وكل ما هناك انه تأمل أو تفكر في نفسه وفيما حوله ، فاذا المعاني تستقر في وعيه ، كأنما يقرأ في كتابه ••

ـ وهذا يصل بنا الى حقيقة ضرورية قاطعة ، هي ان الكائنات المحسة تتضمن (حقائق معنوية) لا ترى بالحس •• وأن عقل الانسان ذو رؤية يرى بها تلك المعنويات ••• فاذا كانت عين الرأس تبصر المحسات الماديات فعين العقل تبصر في نفس تلك المحسات الماديات (الحقائق المعنوية التي قدمنا ••• فكأن الكائنات ألواح يقرأ فيها العقل حقائق معنوية بلا نقص ولا حرف ولا رمز حسي ما) ••

ويقترن بهذا ان الاشياء المحسة نفسها ، أي الكائنات التي تقع تحت حسنا في واقعنا العملي ، وتتصرف بها في معيشتنا ندركها بحواسنا الخمس السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس ، ولكن الحواس لا تنهض بادراك تلك المحسات وتمييزها وحدها ••

بل يتم ذلك بتعاون من العقل ، بكل منها دوره في ذلك •• والعين ـ مثلا ـ ترى شخوص الاشياء ، ولكن مبهمة ، والعقل هو الذي يزيل عنها الابهام ، اذ يميزها فيجعلها ـ مثلا ـ اجناسا ، هذا حيوان ، وهذا نبات ، وهذا جماد ، في تفصيل له مجاله ومراجعه • •

والذي نريد تقريره أن للعقل ضربين من الادراك : ضرب يشترك به مع الحواس لادراك أو معرفة المحسات ويسمونه « الادراك الحسي » وضرب يستقبل به عن الحواس ليدرك به الحقائق المعنوية المحضة التي قدمنا في الفقرة السابقة •• ونسميه الادراك المعنوي •

٢ ـ ومن الامور المسلمة أن كلا منا يواجه الكون حيث يولد بذهن خال كل الخلو من معرفة أي شيء •• وفي الوقت نفسه يواجه الكون بجهاز للمعرفة مرهف مدرك ، ، هو الحواس والعقل •• ومن اللحظة الاولى تقع الحواس على الكائنات المادية الخارجية او تتعرض تلك الكائنات لها ، فتنتقل صورها الى المراكز المعدة لاستقبالها في الدماغ ليؤدي العقل فيها

دوره ، وبتوالي الايام تتمدد التجارب ويكثر ما ينتقل من الاثار والصور، ويعمل العقل عمله •• فتحصل المعرفة بالتدرج في وعي الانسان • وقد قرر القرآن الكريم تلك الحقيقة أو تلك الحقائق بقوله تعالى : والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا •• وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون • والافئدة : جمع فؤاد وهو القلب •• وللقلب في اللغة استعمالان : استعمال حسي بمعنى العضلة الحمراء التي تعمل في تجويف الصدر لتنقية وتنظيم الدورة الدموية للجسم كله واستعمال معنوي بمعنى العقل الذي يفقه به الانسان حقائق الامور ويحصل به أصدق المعرفة على مثل ما في قوله تعالى « لهم قلوب لا يفقهون بها » أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ؟ •• وقد جاء من ذلك في استعمال الافئدة قوله تعالى : ولا تقف ما ليس لك به علم ، ان السمع والبصر ، والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا ••• وبما ان الآية الكريمة التي معنا تتحدث عن العلم وصلة الانسان به « والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا » فان ذكر « السمع والابصار والافئدة » في كسب العلم للانسان•• وبناء على ذلك نجد الآية الكريمة تتضمن من الناظر ما يلي :

أ ـ اننا خرجنا من بطون أمهاتنا الى هذه الحياة لا علم لنا بشيء••

ب ـ ان الله تعالى جعل لنا السمع والابصار والافئدة لتكون أسبابا لنا الى العلم أي انه تعالى جعل عقل الانسان وحواسه الخمس ـ السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق واللمس وسائل له الى المعرفة ، ولكنه ذكر السمع والابصار دون بقية الحواس اكتفاء بذكر الأهم منها •• فكأنه تعالى قال : والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تحملون شيئا وجعل لكم الحواس والعقول لتحصل لكم بها نعمة العلم ••

حـ ـ أن تحصيل العلم بتلك المواهب نعمة عظيمة يحس الانسان جمال أثرها في نفسه ، فلا يجد لديه ما يثني به علم المنعم الا وجد ان الشكر

يختلج في وعيه تأثرا وعرفانا ، ولذا ختمت الآية بقوله (لعلكم تشكرون)..

د ــ ان قوله تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) يتضمن ان للانسان ضربين من أدوات المعرفة ..

ــ ضرب ظاهر ، هو الحواس الخمس المعروفة .

ــ وضرب باطن ــ أي خفي ــ هو العقل ، أو القلب .. ومما يجب ذكره في هذا المقام ان القرآن سمى ملكات القلب المدركة « حواس » ومن ذلك قوله تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعــون بها » والمراد أعين القلوب وآذانها بدليل قوله في آية اخرى (فانها لا تعمــي الابصار ، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور . فهي في مقابل الحواس الظاهرة حواس داخلة أو باطنة) ..

ــ وكون الحواس العقل باطنة في مقابــل الحواس الظــاهرة يقتضي مخالفة كل منهما للاخرى في طبيعتها ، فسمع حواس القلب وبصرها يباين طبيعة السمع والبصر في الحواس الظاهرة ..

... والمشهود والمسموع في الحواس الظاهرة امر حسي ، والمرئي والمسموع بالحواس الباطنة أو غير حسي .. اي معنوي ..

.. وبعض حواس العقل يشترك مع الحواس الخمس ليدرك الحقائق المعنوية المقترنة بالكائنات المحسة على مثل ما قدمنا . . وقد ذكرنا ان الاول هو « الادراك الحسي » وان الثاني هو « الادراك المعنوي » ..

٣ ــ وواضح من الآية الكريمة ان الكون الطبيعي بكل ما يحتوي من كائنات هو المصدر الطبيعي لما يكون لنا من علم ، ذلك أنها لفتت الاذهان الى ان للحواس أثرا محموداً يستدعي الشكر إن هو كسب العلم، ومعروف ان هذا الأثر حدث من تعرض صفحة الكون للانسان ووقوع حواسنــا عليها ، والحواس ليست غدداً تفرز العلم ، وليس العلم خاصية ذاتية ، فبقي

انها وسيلة الى العلم ، وبما انها لا تقع الا على صفحة الكون ، فالكـون لا جرم مصدر ثقافة الانسان ذلك الى ان هذا هو عين واقع الانسان الذي تقرره تجاربه ، فأبصارنا وأسماعنا انما تقع على هذا الكون ، ولا تقع على غيره « وبوقوعها على كائناته من جماد ونبات، وحيوان، وانسان ، تكتسب العلم والتجربة والخبرة ، وذلك أمر مدرك بالبديهية ومن حاجة الى معرفة من نص قدسي » ..

ومع ذلك فان الله تعالى وجهنا في طلب العلم الى هذا المصدر بصريح قوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الآيـات والنذر عن القوم لا يؤمنون » ولا ريب ان النظر هنا هو نظر الملاحظـة والتدبر الذي تكون به الاستفادة وتحصيل العلم ، فاذا كان النص يتضمن دعوة الى تحصيل العلم « فهو يتضمن ان الكون كمصدر هذا العلم » (انظروا ماذا في السموات والارض) ...

وهذا النظر على ما قدمنا ـ ضربان هما : الادراك الحسي .. والادراك المعنوي ..

أ ـ فالادراك الحسي ـ أي النظر بالحواس مع مشاركة للعقل ـ يتناول من الكون أمرين : الاول : الابعاد التي يمكن ان يجول في هـذا النظر ، وهي آماد لا نعلم لها آية ولا يعلم حقيقتها الا الله .. وما عرف منها الى اليوم آفاق يعجز الخيال ان يتصور بعدها عنا .. ومن ذلك حين قطعنا المسافة التي بيننا وبين القمر اعتبرناه نصرا علميا طالما أطالت صحف العالم في الاشادة به ، مع تلك ان المسافة يقطعها الضوء في ثانيتين ، أي غمضة عين يسيرة .. فاذا علمنا ان النجوم والكواكب مقسمة في السموات الى « مجرات » وكل مجرة على حدة تحتوي على ملايين من الكواكب والنجوم .وملايين كل مجرة مخططة أو مقسمة في داخلها الى مجموعات « كل مجموعة مؤلفة من شمس ـ أي نجم ـ ومقدار مـن الكواكب

ترتبط بتلك الشمس تدور حولها على مثل نظام مجموعتنا الشمسية...[1]

وبناء على هذا تبعـد عنا مواقع نجـوم الكون أو تقترب بحسب المجرات التي توجد فيها « فنجوم مجرتنا اقرب الينا من نجوم المجرة التي تليها ، ونجوم المجرة التي تليها اقرب الينا من نجوم المجرة التي بعدها .. وهلم جرا » ..

اذا عرفت هذا وذكر ــ ان الضوء يقطع المسافة التي بيننا وبـين القمر ٦٠٠٠٠٠٠٠ ك م في ثانيتين ، فهل تستطيع تصور بعد الكوكب الذي يصل الينا ضوؤه في سنة كاملة ؟ وفي مائة سنة .. وفي ألف سنة ــ اي بسرعة الضوء ــ وفي عشرين الف سنة ضوئية .. وستين ألف ؟ .. وأول مجرة تلي مجرتنا تبعد عنا بمقدار سبعمائة وخمسين الف سنة ضوئية .. ومن المجرات ما يبعد عنا بمليون سنة .. ومائة مليون ، ومئات الملايين فاذا اقسم القرآن بمواقع النجوم ، فهو قسم ينطوي على اشارة الى ابعـاد هائلة تعتبر رموزا ضئيلة لسعة آفاق السموات ، اذ هي ابعاد لما عرفنا من فضاء كوني ، والذي عرفناه يبلغ بعده عنا خمسمائة مليون سنة ضوئية.. ويقر العلم ان وراء ذلك ما لا يحيط بعلمه الا الله ، وهو يدخل في مفهـوم قوله تعالى (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) ..

ولعل هذا يقرب الى الذهن سعة المجال الخطـير الذي أطلب الى الانسان أن يجعله مناط همته في طلب العلم ، ويدل في الوقت نفسه على علو قيمة الانسان عند الله تعالى ... كما يدل على مدى الركس الـذي

---

(1) لا يوجد في اللغة فرق بين النجـم والكوكب ، ولكـن علمـاء الفلك اصطلحوا اخيرا على ان الكوكب خاص بالجـرم السمـاوي الذي لا ينير بذاته ويستمد ضوءه من غيره كأرضنا وان يكـون النجم خالصا بالجـرم السمـاوي المضيء بذاته ويمد غيره بضوئه فسمي لذلـك شمسا كشمسنا ...

يرتكس اليه من يغمضون اعين عقولهم فلا يبصرون طبيعة الارض حتى تحت موطىء اقدامهم ... (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) .

والامر الثاني : الذي يتناوله الادراك الحسي من الكـون ، هو مـا تحتويه آفاقه التي لا يعلمه الا اله مـن الكائنات المحسة ، من نبـات ، وحيوان ، ومعادن وصخور وأشعة ... وقد أشار القرآن الى ما في تلك الآفاق من الحيوان بقوله : « ومن آياته خلـق السموات والارض ، وما بث فيهما من دابة » .. والدواب انما تحيا على ما تنبت الارض فهو نص يتضمن الكون من الكواكب ونجوم ، وقد استطاع الانسان أن يحضر الى الارض بعض نماذج لتلك الصخور والمعادن من القمـر ... هذا وثمت حقيقتان عقليتان مقترنتان بوجود كل كائن مادي تدركه حواسنا ، سواء أكان هذا الكائن من الجماد او النبات او الحيوان وهما تدخلان في سلطان الادراك الحسي وهما ...

الحقيقة الاولى : الفردية ــ او الوحدة، فان أي كائن يدركه حس الانسان، يرى فيه العقل حقيقة الفردية او الوحدة ، أي انه واحد او فرد.. ولا يمكن ان يرى الانسان شيئا دون أن يرى فيه العقل أنه فـرد . فاذا رأيت قلما . او شجرة او دجاجة ــ مثلا ــ فهو قلم واحد ، او دجاجـة واحدة ، حتى انك اذا رأيت جملة اقلام ، او اشجار ، او دجاج ، فـان العقـل يتبين في كل جملة منها حقيقة الفردية او الوحدة فالاقلام هي قلم واحد مكرر . وكذلك الاشجار والدجاجات ..

فجرم أي شيء حسي كبيرا كان او صغيرا ــ مقترن بحقيقة عقليـة هي الفردية أو الوحدة ولا بد ، فاذا ظهر جرمه للعين العادية ، ابصرت فيه عين العقل تلك الوحدة ، ولا بـد ولا يتصور الانسان ان يبدو له جـرم شيء ما دون ان يشهد فيه العقل تلك الوحدة ، كما لا يتصور ان تبـدو

لعقله وحدة ما مجردة من أي جـرم تلابسه . فالجرم والوحـدة شيئان متلازمان مقترنان ، لا تتصور رؤية احداهما دون الاخرى) أو انفصالها عنها . وأهمية تلك الحقيقة ان الوحدة هي الاساس الذي يقوم العـدد بتكرره . وان الانسان على العدد هو السبيل الى تعلمه علـم الحساب وحين اكتشف الانسان ان ١ +١ = ٢ . كان قد قطع في طريق حضارته خطوة رائعة ما لبث ان تلتها خطوات .. ورؤية الانسان لتلك الحقيقة مع انها غير ظاهرة للعين العادية) ترجع الى ان فيالعقل خاصية معدة لادراكها، ويمكن تسميتها الخاصة الرياضية .

واذا كانت « الوحدة » او « الفردية » حقيقة لا تدرك الا باحدى الحواس العقل الباطنة . واذا كان لادراكها شأنه الحضاري التنظيمي في حياة الانسان وضبط دوره في عمـارة الارض ، ولم يكتف النص الالهي بان يقول لنا : انظـروا الذي في السموات والارض ؟ والارض . بـل قال « انظروا مـاذا في السمـوات والارض ؟ أي شيء في السموات والارض ؟ .. فثمت شيء يغشاه الغموض غير الظاهر المجـرد الحس ، فجاء الاستفهام يوجه الى كشف هذا الغموض وجلائه ، وذلك بأن يجـد الانسان نظرة العقل في الذي رأته عينه العادية ، وذلك يبين لنا بعض أبعاد وأعماق قوله تعالى « انظروا ما في السموات والارض ؟ » .

واما الحقيقة الثانية : التي نجدها مقترنة بوجود كل كـائن مادي تدركهحواسنا ، فهي ان جرم أي كائنمنها يشغل حيزا منالفراغ ولا بد.. حيزا على قدر ذلك الجرم لا يزيد عنه ولا ينقص .. فحيثما أدرك البصر جرما ما ــ لكائن معدني أو نباتي ، أو حيواني ، جل او رق فان العقـل يشهده في نفس الوقت شاغلا لحيز على قدره وما لم يدرك البصر جرمـا ما ــ فان رؤية العقل لحيز ما تمتنع قطعا ، اذ هو الحيز فيما يدركه البصر

فقط .. أي ان شغل الحيز هو خاصية للمادة وحدها .. خاصية لاجرامها .. لكائناتها الحسية تلزمها ولا بد ، ولا تنفك عنها بحال ... [1] .

فضرورة الحيز خاصية لكل جرم مادي، وهي حقيقة بديهية يشهدها العقل ملابسة للجرم كما تبصر العين شخوص الاشياء المادية ولكنها حقيقة لا تدل على ذاتها بنفسها الا بملازمتها للمادة ..

وترجع أهمية تلك الخاصية الى أن أجسام الاشياء سطوح وامتدادات طولا وعرضا وارتفاعا .. وان أي جسم لا يحل في مكان ما الا اذا اتسع هذا المكان لامتداداته وسطوحه .. ولما تطورت علاقة الانسان بالاشياء ، وأراد اقتناءها والتصرف فيها اكتشف بالتجربة الطويلة الامد من مراعاة المواءمة بين امتداداتها وسطوحها وبين سعة الاماكن التي تعد لاضوائها .. وكان اكتشاف تلك الضرورة وما صاحبها من تجارب ساذجة ، هو المحاولات الاولى للذهن التي انطلقت منها قدراته على البناء الهندسي وجعل الامتدادات والسطوح اساسا لتقدير ما يراد من مرافق وانشاءات يعمر بها الارض وتتوافر أسباب الحضارة ...

فضرورة الحيز خاصية لكل جرم كما قدمنا ، وهي خاصية تمثل أو تعدد العلاقة بين امتدادات اي جسم والمكان الذي يحل فيه ، وابصار العقل لتلك العلاقة يبدأ أول أمره ساذجا غير واضح لا ينتبه اليه صاحبه، كما في الاطفال والبدائيين ثم تلح الضرورات ، وتتوالى التجارب ، ليتنبه الذهن ، ويحاول خاصته الهندسية فاذا تادانا النص الكريم أن نجاوز

(١) هذه التقديرات الفعلية البحتة توضح لنا كيف أن الله تعالى لا يحتاج الى حيز . اذ هو غير مادة وتصور المعادن لما لا تدركه الابصار ممتنع عقلا كما بينا أي مستحيل ...

الرؤية البصرية لنتبين بعقولنا : ما الذي .. أو أي شيء في السمـوات والارض ؟ فهو نداء يبعث العقول والهمم ان تجاوز طور البداءة الغافلة الى المجال الذي يستجيش نشاطها ، ويعقد الصلة الضرورية بين ملكاتهـا المختلفة وبين ما يقابلها في الكون منحقائق عقلية لا ندرك الا بها .. وذلك يعد جديدا؟ يرينا أفقا جديدا الى ما عرفنا منآفاقالآية الكريمةوأبعادها..

هاتان الحقيقتان الفردية والمكانية من الحقائق الفعليـة التي تلـزم الوجود الحسي فلا يراها العقل الا مقترنة به أي ليس لأيتهما قوام مادي مستقل تدرك به ... وقد قلنا انهما تدخلان في سلطان الادراك الحسي ، وكان المظنون في بداهة الرأي ان يلحقا بالمدركات المعنويـة ، ولكنـا وجدناهما أمرا بين الحس والمعنى . فيهما من المعنى التجرد من القـوام المادي وفيهما من الالية الحس قيامها بالحدود الرياضية .. وضوابـط المنطق الحسابي ، ذلك ان المادة نفسها هي المجال التطبيقيلخاصتيالرياضة والهندسة ، اذ يختص سلطانهما الماديات سطوحا ، وامتدادات ووحدات ويضبط علاقات التجاذب والدفع والضغوط بين كائناتها بما يخترع لذلك من أقيسة ، وصيغ حسابية ومعادلات لها من ميكانيكية الارقام ما يجعلها ذات أثر حاسم في احكام الصنع ودقة التقدير ، مثلا المادة بهذا تستغني عنه في تنظيمها ، ولا هو يجد له مجالا سواها .. فكانت تلـك الخصائص والاعتبارات قاضية بالحاق هاتين الحقيقتين بالمدركات الحسيـة ، دون المـدركـات المعنـويـة واذ ان الحقيقتـين بهـذا الـوصـف فهما من جملة الحقائق التي يتناولها الادراك الحسي حين ينبعث اداء الحق قوله تعالى (انظروا ماذا في السموات والارض ؟!) .

ومما قدمنا يتبين امران :

الامر الاول : ان الادراك الحسي ضربان .

ضرب تقوم به الحواس الظاهرة بمعاونة العقل ، ويتناول كل ما تقع

عليه الحواس الظاهرة مباشرة من ضروب المعادن ، والنبات ، والحيوان .
وضرب تستقل بادراكه الخاصية الرياضية .. ومنــه حقيقة الوحــدة ،
والمكانية . وباطلاق عوامل الادراك كل في مجاله ، يتسنى ان يعرف كل
ما تبلغه طاقاته ووسائله في العالم الطبيعي على اختلاف عناصره ونظم تأليفه
وتركيبه ابتداء من الذرة الى أضخم جرم سماوي .. وابتداء من الخلية
الى أضخم حيوان عرف في الارض ، أو يمكن أن يعرف في السماء في آي
كوكب ... وما الى ذلك من طاقات وقوانين .. تترابط بها الكائنات ،
ويتماسك بها بناء كل خلق في أحكام وتنسيق يصلــــح به امر كل شيء
وتتطوع منفعته ..

ومن هذه المعارف يتألف كل ما عرف الانسان ويعرف من علــوم
الكون أي علوم الطبيعة على اختلاف انواعها ، في الكيمياء ، والنبــات،
والحيوان ، والطب ، والفلك والظواهر الجوية ، والرياضة ، والهندسة ،
والذرة الى آخر ما هو معلوم من ذلك .

والامر الثاني : ان الحقائق العقلية ضربان : ضرب رياضي وقــد
ألحقناه بالمدركات الحسية وضرب معنوي وهو الذي سنعرض له الان.

(ب) هذه معالم لدور الادراك الحسي في تحصيل المعرفة من الكون
الطبيعي .. وأما دور الادراك المعنوي فنرجع في بعض الشيء الى مـــا
قدمنا من معنى (الحقيقة المعنوية) فقد قلنا ان الانسان اذا تأمل قليـــلا
في نفسه وفيما حوله ، بدا له يقينا انه لم يخلق شيئا مما حوله ، وانه ايضا
لم يخلق نفسه .. وان شيئا من تلك الكائنات لم يخلق من غير شيء ..
وأن خالقا خلقه ولا بد .

وقد ناقشنا ذلك وخلصنا منه بأنه حقيقة تعيينية ليس فيها ظل للريب

أو الظن •• وان الكائنات المحسة كافة تفقد خاصية الايجاد ، اذ ليس فيها من قد أوجد نفسه فضلا عن ايجاد غيرة ، وليس هو يستطيع ذلك •••

ومعروف بالبديهية ان أي عقل فعل فله فاعل ولا بد •• وان الأثر لا يكون بتة من غير مؤثر ، وان الفعل لا يوجد نفسه ، ولا يوجد من غير شيء •• وكذلك الأثر •• فاذا كان شأن الكائنات هو السلبية المطلقة على ما قدمنا ، واذ هي (فعل) واقع ماثل للعيان فهي متضمنة انها (مخلوقة لخالق) ولا بد •• وذلك معنى الحقيقة المعنوية وهو اللب الجامع لكافة مقوماتها على ما سيأتي ويمكن تسمية تلك الحقيقة بالخالقية • ومن البين ان الخالق في هذا التقدير لم تشهده عين ، ولا اي خاصية عقلية ، وأن يحصل التقرير ان العين لا تشهد أي كائن محس الا شهد في العقل فورا أنه (فعل) • لم يحدث نفسه من غير شيء فله فاعل لا بد •• فالذي شهده العقل عيانا هو حتمية وجود « الخالق » لأن الخالق ذاته سبحانه•• ونحن بهذا التقرير لسنا بحاجة الى ما يقدم أو يقيم الدليل على وجود الخالق • فان الدليل انما يطلب ليقود الى غير المشهور ، أما وجود الخالق للعقل عيانا كما قدمنا التماس الدليل عليه يمتنع بداهة ، اذ السلب مقترن في البديهة بوجوب وجوده تعالى ••

ونستطيع بهذا ان نفرق بين الحقيقة الحسية بنوعيها ، وبين الحقيقة المعنوية •• •فالحقيقة الحسية اما كائن حسي محض تشهد الحواس جرمه واما حقيقة عقلية ليس لها كيان مادي ، ولكن لها خصائص رياضية ذات حدود وضوابط آلية تقضي بالحاقها بحقائق الحس •• أما المعنوية فان العقل لا يشهد فيها أي ضابط أو منطق رياضي ولا شأن للحس بادراكها، وكل دور الحسي فيها انه يشهد الجرم المادي فيتولى العقل قراءة ما يبدو فيه من معنى الخالقية التي قدمنا •••

ولا بد أن نشير الى ظاهرة مشهودة لدى الكثيرين ، او الاكثريين ، تلك الحقائق الحسية أوضح في وعي الانسان من الحقائق المعنوية او ربما خفيت تلك الحقائق تماما فلا نجد لها أثرا في وجدان الناس أو تصرفاتهم .. ذلك لأن المدركات المادية تباشر حواس المرء ابتداء فيكون ادراكها اول ما يتبع في وعيه وبما ان تلك المدركات تتعلق بمعاش الانسان وتبعاته المختلفة التي يهتم بها ، فانها تستأثر بوعيه وانتباهه فلا يكاد يلتزم الى معنى ما يشهد العقل من حقائق ، اذ ان سلبية الكائنات الواضحة وايجابية الخالق البديهية ليست من ضرورات العيش او مما يجدي في المناقشة عليه ... وهذا مما يجب التنبيه اليه وادخاله في برامج تربيتنا لملاقاته ..

وقوام الحقيقة المعنوية ــ او الخالقية ــ ان الكائنات (خلق الخالق) أو (صنع صانع) فاذا شهد الحس كائنا ما كان حتما ان يشهد العقل فيه (فعل الخالق) قلنا في كل شيء نوعا من الرؤية ــ رؤية الحس التي عرفنا ورؤيا المعنى التي قوامها شهود صنع الخالق في الشيء ...

وهذا معنى دقيق وجهنا القرآن الكريم اليه بمثل قوله « أفرأيتم الماء الذي تشربون ؟ .. أأنتم انزلتموه من المزن ، أم نحن المنزلون ؟ » فالنص اذ يسأل « أفرأيتم الماء الذي تشربون » لم يرد رؤية الحس التي تشهد الجرم واللون والكم ، انما يريد رؤية (صنع الخالق) فيه وهو أمر معنوي بحت ، ولذا عقب على السؤال بقوله (أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟) ومن البديهي ان العقل بهذا التوجيه لا يشهد ان اقدامنا أنزل الماء من المزن ولا يشهد ان الماء انزل نفسه لسلبية المطلقة البيئة المقررة ، فلا يبقى من حقيقة يشهدها الا بأنه تعالى هو منزله ... ومثل ذلك قوله «أفرأيتم النار التي تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ » فان مصلحة الانسان في النار قد تدعوه الى الاشتغال وقضاء ما له من مآرب فيها ، فلا يغنيه من رؤيتها الا رؤية لونها وألسنتها الصاعدة .. فأراد تعالى التنبيه الى ما وراء اللون والمصالح الحسية

من حقائق هي مناط المصالح كافة ، ولب وجود لكل كائن ، تلك الحقائق هي صنع الله تعالى ..

في النار ، ولذا قال « أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحــن المنشئون » وحاسة الرؤية المعنوية في العقل لن تجيب عن هذا السؤال الا تنذير ايجابية للخالق . .

ومثله قوله تعالى (أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونــه أم نحــن الزارعون ؟) وقوله (أفرأيتم ما تخلقونه ؟ أم نحن الخالقون) ...

والخالقية بمفهوم ما مضى تتضمن حقيقتين اساسيتين ..

الحقيقة الاولى : سلبية الكائنات المحسة ..

والحقيقة الثانية : ايجابية الخالق ..

وسلبية الكائن الحسي يتمثل في أن العين لا تراه الا بصدقية العقل انه مسبب ــ بفتح الباء ــ عن سبب احداثه سواء أكان هذا الشيء من صنع الانسان ، أم كان ظاهرة طبيعية أم كان من كان من الكائنــات الطبيعة الجامدة التي جئنا فوجدناها تمــلأ الارض والسمــاء . فاما كان من صنع الانسان فمثاله انك قد تدخل غرفة المطالعة ببيتك فتجد كتابا كنت تقرأ فيه منذ قليل ممزقا . فيحضرك الغضب وتقول لفورك من فعل هذا ؟ وهذا السؤال لم يجر على لسانك الا بعد عملية عقلية سريعةجرت في ذهنك كلمــح البصر مؤداها ان هذا الكتــاب لم يمزق نفسه .. وهو لم يمزق غير شيء فلا بد من سبب سببه .. وحين يعمل ذهنك في تسلسله

المنطقي الى هذا ، تتطلع فطرة المعرفة في وعيك الى معرفة السبب ، فنطق لسانك لفوره : من فعل هذا ؟! • ومثال ظاهرة الطبيعة ان الملاحين القدامى حين رأوا ظاهرة المد والجزر ــ وهم في طور سذاجتهم ــ لم يقع في حسبانهم ان الماء قد رفع نفسه ، أو انه قد ارتفع من غير شيء ، بل ادركوا لتوهم وأبعدوا في تلك الظاهرة العجيبة انها مسببة عن ذلك ولما عجزوا عن معرفة السبب عزوا الفعل بادىء بدء الى كائن غامض خفي ••

ومثال كائنات الطبيعة الجامدة التي جئنا فوجدناها تملأ الكون ، القمر فكثيرا ما يسأل الطفل اباه ، أو أمه : من خلق القمر ؟ او من خلق السماء ؟ ••• ذلك ان عينه حين رأت قرص الشمس المنير ، ابصرت فيه فطرته العقلية لفورها انه لم يحدث نفسه وانه لم يحدث من غير شيء •• وان سببا احدثه ولا بد •• فتطلع حب المعرفة في فطرته الى معرفة السبب فسأل دون ارادة للتفلسف : من خلق القمر ؟

فالكائن الحسي أيا كان جنسه أو نوعه لا يراه العقل الا مجردا او خاليا ايجابية وانه ليس سوى (مسبب) عن سبب احدثه •

والخاصية العقلية التي تدرك حقيقة السبب في أي شيء يسمونها خاصية السببية ••• وقانون السببية فهي أنساب أو معيار عقلي خطير يبصر في الكائنات ارتباطا كل كائن بسبب أحدثه •• وهو ارتباط لا يدرك بالحس ، اذ هو « حقيقة معنوية » تدركهما تلك الخاصية رأي العين •• فاذا ابصرت العين العادية شيئا ما ، له جرم ، وله لون وله طول وعرض ، أبصرت فيه تلك العين الباطنة علاقته بسبب احدثه أي ابصر سلبيته • فليس معنى ذلك ان السببية تدرك (السبب) بل تدرك فحسب ــ علاقة في الشيء قوادها الضروري البديهي ان هذا الشيء أثر لم يحدث نفسه من غير شيء ، بل احدثه مؤثر ، أي احدثه سبب على ما بينا في الامثلة الثلاثة السابقة •

وأما ايجابية الخالق : فتبدو للعقل مقترنة السلبية الكائنات ... ذلك ان خاصية السببية اذ تبصر في أي شيء انه (مسبب) تبصر انه نشأ عن سبب ولا بد ...

والمعنى الضروري البديهي لذلك ان الايجابية مقررة لهذا السبب دون المسبب الذي كل شأنه ان غيره احدثه .. وقد قدمنا ان العقل اذ ابصر (فعلا) ما ابصر فيه ولا بد ان فاعلا فعله ، وكذلك اذ رأى خلقا ما ، فأي خلق لا وجود له فيالعقل مستقل عن الخالق.. فاذا رأى العقل في ذلك وجوب الخالق كما قدمنا رأى قطعا وجوب ايجابية ، فان وجود العقلحوائر الفاعلية أي ايجابية ..

واذ ان الكون فعلـه تعالى ، فهو فعـل ليس خاليـا مـن ضروب الامتياز ، فقد وصف نفسه تعالى بأنه ، خالق ، وبأنه صانع . والخلـق ، والصنع بيدء اثار الايجابية . دالة على ما يحيط الفكر من معانيالصفات..

فالخلـق ـ على ما في لسان العرب ـ هو ابتـداع الشيء على غير مثال سبق .. وخلق الله الشيء أوجده بعد ان لم يكن . وقال المصبـاح المنير : (واصل الخالق التقدير) فيقال خلق الخراز المجلد ، وخلق الخياط الثـوب ، اذ قدره قبل أن يقطعه ليصنع منه وعاء ، او عيبة ، او ملبسا . ولذا قال الاساس « خلق الله الخلـق ، أوجـده على تقـدير او جهـة الحكمة » .

وأما الصنع فهو أمر زائد على العقل، قال الراغبالاصفهانيفيالمردات (الصنع اجادة الفعل) ، كل صنع فعل ، وليس كل فعل صنعا ، ولا ينسب الصنع للحيوانات ، والجمادات كما ينسب اليها العقل ، واذا كانت اجادة الصنع تعني اتقانه واحكامه على ما يقول تعالى (صنع الله الذي اتقن كل شيء) ، فانها تعني أيضا ان افعاله تعالى هي صنائع خير ورحمة ربـى عباده عليها .

وبما ان القرآن نزل بلسان عربي وبما اننا بازاء نصوص لغوية اثبتت للخالق ما اثبتت ، فان الايجابية التي تبدو « خلق » الكون هو اقتدار الخالق على ايجاده بعد ان لم يكن .. والتردد بالايداع ــ أي بالاختراع كما تقول اللغة ــ على غير مثال سبق ومنه « بديع السموات والارض » ومع الايجاد والاختراع ، التقدير فانه تعالى لم يوجه الكون جزافا وهو سبحانه يقول (وخلق كل شيء فقدره تقــديرا ..) وهو تقدير أوجبتــه الحكمة كما نص الزمخشري في الاساس فنحن في خلق الكون بازاء معالم الحكمة تعالى ...

ذلك الى ان الايجابية التي تبدو (صنع) الكون تتمثل في آيات من الآيات سنعرض لها فيما بعد ، كما تتمثل ألوان من الخير والنفع أو ألوان من النعم يجد فيها الناس آثار يده تعالى ، وكرمه ، ووده ، وانعامه ونحوها من صفات الجمال تلك لمحة يسيرة نقيسها من آفاق ايجابية الخالق تعالى، واذا كنا عولنا في تقريرها على نصوص الكتاب الفريد لنا منمناهجالنظر في قدسيتها وجه جاحد او مجادل ، بل أردنا أن نستهديها حقائق تلكالايجابية لينفتح لنا القصد ، ولنرى ما تقرر لنا من مناهج النظر عجائب الخالقــة وعبرها .. ولعل القارىء يرى ان تلك النصوص كانت هي الهاديوالدليل الذي قادنا الى ما قاد اليه من الحق .. أما صدق تلك النصوص فـــي ذاتها فصفحة الكون شاهدة به بما لا يدع مجالا لشبهه من الشك فلو لم تقدر تلك الايجابية بالدلالات اللغوية الكائن حسب الحكماء وما تشهد ألبابهم آيات السموات والارض .

ومن الواضح ان قوام تلك الايجابية هو صفات الخالق تعالى ، وان الذي تشهده مع الخالق هو اثار الايجابية أي اثار الصفات ، أما الصفات نفسها فان عقولنا لم تهيأ لادراكها ، ولذا وجهنا القرآن الكريم الى مشهود

آثار الصفات ــ لا الصفات ــ بقوله تعالى (فانظر الى اثار رحمة الله .. كيف يحيي الارض بعد موتها ؟) واثار الصفات هي عبر ، وحكم وحقائق ومعارف .. أي معنويات تبصرها عقولنا بالنظر الى الكائنات ...

ولكن أي خاصية عقلية معدة لادراك تلك المعنويات ؟

وليست خاصية الرياضة قطعا .. وليست خاصية السببية لانها مهيأة لادراك جانب السلب فحسب وليس هو « الحدس » [1] المتداول بين الفلاسفة بمعنى سرعة الانتقال والفهم والاستنتاج ، لان هذا استعمال اصطلاحي وليس استعمالا جاءت به اللغة وقررته معاجمها فيما تعرف ، ومع ذلك فنحن نريد خاصية لرؤية الآثار والمعاني الماثلة في الكائنات ، لا خاصية لسرعة الاستنتاج .. وقد رأينا القرآن من اول الامر يجعل مناط شهود تلك المعنويات وتحصيلها هو رؤية القلب ، او حواسه .. فاذا رجعنا الى كتب اللغة والتفسير وجدناها تسمي خاصة العقل او حاسته التي تؤدي تلك الرؤية « الفكر » قال المصباح المنير : الفكر تردد القلب بالنظر والتدبر لطلب المعاني ويقول الراغب في المفردات : الفكر قوة مطرقة للعلم الى المعلوم .. والتفكر جولات تلك القوة بحسب نظر العقل ، ولا يقال الا فيما يمكن ان تحصل له صورة في القلب أي شيء مادي حسن ــ ولهذا روى : « أتفكروا في آلاء الله ، ولا تفكروا في الله اذ كان الله منزها ان يوصف بصورة وقول الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة) ، ان هو الا نذير مبين الفكر طلب المعنى

(١) الحدس في اللغة هو الظن والتخمين «والفراسة» وهو السرعة، فلعل الفلاسفة نظروا الى معنى « الفراسة » والسرعة فلم يروا بأسا باستعمال الحدس بمعنى السرعة الانتقال والفهم والاستنتاج ، وهو لا يستقيم الا على تجوز . ومع ذلك فنحن نريد خاصية للنظر والرؤية والاستنتاج ...

بالقلب ... وكما ان الرؤية بالبصر حاله مخصوصة من الانكشاف والجلاء ولها مقدمة هي تقليب الحدقة الى جهة المرئي لتحصيل تلك الرؤية بالبصر ـ وكذلك الرؤية بالبصيرة ـ يريد القلب ـ حالة مخصوصة الانكشاف والجلاء ولها مقدمة هي تقليب حدقة العقل الى الجوانب طلبا لذلك الانكشاف وذلك هو المسمى بنظر العقل وفكرته ...

ومفتاح عمل الفكر هو « خاصية السببية » وقد قلنا انها تبصر في كل شيء رابطة سببية معناها ان هذا الشيء (مسبب) عن سبب اوجده ، فلا يكون أتريدون مؤثر ولا خلق بدون خالق او صنعة بدون صانع ... انها حاسة عقلية لا تدرك من كائن حسي ما الا سلبيته المطلقة ... انه لم يخلق نفسه ، ولم يخلق منغير شيء وانه (فعل) فاعل لا بد .. وحين تبدو الكائنات لتلك الفطرة العقلية (انها فعل فاعل) تبين الفكر في هذا الفعل أي في هذا الشيء أمرين :

الامر الاول : حقيقة السلبية في هذا الشيء اي معناها وابعادها .

والامر الثاني : « المعالم المعنوية » الدالة على ايجابية الفاعل . وقد قدمنا ان هذا الفاعل (خالق) و (صانع) فايجابيته تبدو فيما يشهد الفكر في الكائنات من مفهوم الخلق والصنع أي تبدو فيما يشهد فيها من المعالم العقلية الدالة على صفات الخالق : صفات القدرة والارادة والعلم الاحاطة والهرمنة والقهر . . الدالة على صفات الصانع . صفات الاحسان والود والكلام والبر والرحمة والحكمة .. وغيرها ...

ومن شأن الانسان اذاحساسه بتفوق آثار غيرهيتفاوتبمقدار ارتفاع تلك الآثار لا مدى له وكان بذلك أقدر على معرفة الله وتبين قدرته .. ما قاله تعالى من اقتدار وارادة ، وقهر ، وعلم ، واحاطة وغيرها ..

.... وشهدها من خلال فطرة سلبه وعجزه كان انفعال وجدانه

بتلك الآثار لا مدى له وكان بذلك اقدر على معرفة الله وتبين قدرته..
ومن هنا كان الوجدان المنفعل الصادق عنصرا ملازما لمعرفة الله لا ينفك عنها بحال ..

وبعد :

فنحن ما زلنا بازاء قوله تعالى (انظروا ماذا في السموات والارض) وقد رأينا الكائنات فيها تعرض علينا أمرين :

الامر الاول : مادتها ، وما يقترن بها من (الوحدة) و (المكانية) ومحصل معرفة علوم الطبيعة والرياضة ويتكفل بها في الانسان الادراك الحسي ..

والامر الثاني : طابع الخالقية الذي مؤداه الى أن كل شيء هو (خلق خالق) وتضمن ذلك الطابع : حقيقة الكائنات وايجابية الخالق على ما قدمنا .. ومحصل هاتين العلم بالله .. ويتكفل بهما الانسان (الادراك المعنوي) أو التفكر .. فهما افقان خطيران للعقل مفتاح اولهما الحواس ، فاذا لم تكن الحواس فلا صلة للعقل بالكون فيه .. ومفتاح ثانيهما خاصة السببية التي تدرك ان كل كائن هو سبب عن سبب ، فاذا لم تؤد تلك الخاصية عملها ، فان الفكر يتعطل عن اداء وظيفته في رؤية المعنويات .

وباداء الادراك الحسي لمهمته في افقه الخاص .. واداء الادراك المعنوي ــ الفكر لمهمته في افق المعنويات يتم للانسان معرفة الاشياء على ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (اللهم أرنا الاشياء كما هي) .

الفكر جوهر الوجود الانساني

أ ــ الادراك الحسي ــ كما قدمنا ــ مختص بادراك المحسات ، وهو وسيلة الانسان الى العلم بالطبيعة في الارض والسماء .

•• مادتها ، وعناصرها ، وخواصها • وتختلف قوانينها وطاقاتها ، وكيفية السيطرة عليها والانتفاع بها •••

والفكر قوة مختصة برؤية الحقائق المعنوية ، هو وسيلة الانسان الى معاني آيات الكون من صدق العبرة والحكمة والمعالم الدالة على ما له تعالى من صفات الجلال والجمال ••

وبنشاط كل الادراكين وما يقترن بمعرفة الله من حسية الوجدانات ، يتم للانسان توطن الكون كله : حسه ومعناه •

(ب) وحصيلة الادراك الحسي يذهب بعضها مباشرة الى اقامة الكيان الحسي للانسان للمسمى ــ البدن ــ وأثرها فيه هو اقتداره على اداء ما يناط به من عمل اما حصيلة الادراك الفكري •• فقد عرفنا على الجملة انها معرفة الله •• وان تلك المعرفة هي معرفة آثار صفاته تعالى •• صفات الحق والخير والبر والحكمة والود وتلك حقائق للانسان معنى الاستنارة والفهم لما حوله • وتتحول في ضميره في الوقت نفسه الى قيم ومبادىء قوامها الحق والخير والبر والحكمة ••• الخ •• وبما ان معرفة الله تتقارن بانفعال الوجدان بما يبدو من اثار الايجاب فان اجتماع تلك القيم والمبادىء مع هذا الوجدان المنفعل الصادق في خير الانسان مع استمرار التفكير يرسب في الضمير (كيانا) أو (بناء) قوامه مبادىء الحق وقيمه ووجدانه •• وذلك هو مرادنا من كلمة (لب الانسان) وهو حقيقة وجوده التي لا ينظر الله فيه الى غيرها على ما يقول الرسول عليه‌السلام: (ان الله لا ينظر الى صوركم واموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم) •••

فاذا كانت حصيلة الادراك الحسي تذهب الى بناء البدن ، فحصيلة الادراك الفكري تذهب الى بناء الانسان او لب وجوده •

الادراك الحسي والادراك الفكري عند الانسان

أ ـ اذا كان موضوع الادراك الحسي هو مادة الكائنات وخواصها ، وقوانينها ، فموضوع الادراك الفكري هو النظر في تلك الكائنات نفسها من حيث انها (صنع صانع) ومن حيث ان هذا الصنع يتضمن العبر والمعالم الدالة على صفات الصانع تعالى ... قلنا في كل مشهد حسن ضربان من المعرفة .

(ب) الادراك الحسي لشيء ما ، يسبق في الوجود بأقل من لمح البصر ادراك الفكر لما فيه من الآيات . ولا يتصور ان يرى الفكر أي آية روحية الا ان يقع الحس على مادتها ويدركها ... وبذلك لا يمكن أن تتحقق معرفتنا لله ـ المعرفة الصادقة الايجابية الا ان تكون ثمرة لنظر الفكر في شيء أدركه الحس .. ويكون حظنا من معرفة الله حينئذ مترتبا ومتكافئا في عمقه مع حظنا من معرفة الطبيعة ، أو مقررات العلم الطبيعي .

ويكون الكون الطبيعي ودراسته متضمنا المنهاج الطبيعي الوحيد لمعرفة الله عز وجل .

حـ ـ الادراك الحسي يمكن ان يتم دون ان نحصل الرؤية الفكرية ، أما الرؤية الفكرية فلا يمكن ان تحصل الا مترتبة على الادراك الحسي..

د ـ مجال الادراك الحسي ـ هو مادة الكائنات وما اليها من قوانين وطاقات . ولا يتصور بحال أن يرى الانسان او يدرك بحسه شيئا غير مادي اي ان منطقة نفوذ هذا الادراك هو الكون الطبيعي كله بكافة كائناته وظواهره وقوانينه . وطاقاته في الارض والسماء .. سبحانه لا تدركه الابصار ولا حاسة من الحواس . ومعنى ذلك الا سبيل للفكر لمعرفة ذاته لان الفكر لا يدرك حقيقة فكرية ما الا اذا وقع الحس على مادتها وادركها .. وعلى ذلك فالخوض في معرفة ذات الله وحقيقة ما لها من سماء وصفات على ما يتكلف بعض الفلاسفة . وكثير من المتكلمين انما هو اختبار في ظلمة دامسة لا يتبين فيها الادراك الحسي ولا الفكر ظلا لحقيقة

ما ... وقد قال عليه السلام « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره » وفي رواية « ألا تفكروا في الخالق فتهلكوا » . وقد أثنى الله تعالى على اولي الالباب الذين يتفكرون في خلق السموات والارض . ربنا ما خلقت هذا باطلا .

وعلى ذلك يجب ان يكون نهجنا في تحصيل المعرفة به تعالى ــ بعد الوحي هو الاكتفاء بما تدل عليه آيات الكون من معاني صفاته ...

... اما ذاته فيجب ان تنزه عن ان تتمثل لها صورة في اذهاننا . لان كل صورة تتمثلها انما هي مشتقة من حصيلة تفاعل مداركنا مع المادة وهو تعالى غير مادة فكل ما يخطر بالبال فالله بخلافه (وليس كمثله شيء وهو السميع البصير) ...

ذلك تقديم ألممنا فيه بأصول مدارس الانسانية ، وعلاقتها بالكون الطبيعي وعلاقتها بالله تعالى .. وان لن تؤدي حق النص الكريم الذي يدعونا ان ننظر (فاذا التى السموات والارض) الا اذا نظرنا ماذا فيها من حقائق ظاهرة أي محسة ــ وحقائق باطنة ــ أي معنوية والا اذا نظرنا بكل خاصية لنا عقلية ونفسية ظاهرة او باطنة .. ولعلنا قدمنا في هذا الباب ما يصلح أن يكون اطارا عاما يمارس فيه العقل اختصاصه الخطير في تحصيل المعارف من كتاب الله ــ الكون ــ المشهودة اياته في افاق السموات والارض ... وسنورد في نطاق هذا الاطار بعض مناهج النظر التي جاء بها القرآن الكريم مفصلة بعض الشيء فيما سيأتي ان شاء الله .

والله المستعان .

التفاعل بين خواص الفعل والكون

حقائق الكون الطبيعي ضربان :

أ ــ « الكائنات المحسة » ويلحق بها الحقيقتان الفعليتان «الوحدة» و « المكاتبة » للاعتبارات التي قدمنا في الاطار العام ..

(ب) حقائق معنوية ، وهي غير منفصلة عن الحقائق المحسة هي معرضها الذي يشهدها الفكر فيه ، ولب تلك المعنويات ما يشهده الفكر من ان الخلق (فعل فاعل) وهو شهود يتضمن حقيقتين .

ــ سلبية الكائنات :

ــ وايجابية الخالق :

فهذان افقان من الحقائق يتفاعل مع الاول منها الادراك الحسي .. أي الحواس الخمس الظاهرة ودور العقل الاساسي الذي قدمنا .. الى الخاصية الرياضية التي تدرك حقيقتي الوحدة والمكاتبة ..

ويتفاعل مع الافق الثاني خاصية الفكر التي مفتاحها قانون السببية.. واذا يؤول البحث في هذا الباب الى فصلين :

الفصل الاول : الفعل في أفق المحسات ..

والفصل الثاني : الفعل في افق المعنويات ..

العقل الانساني في مجال المحسات

١ ـ من الفروق الجلية بين الحيوان والانسان ، ان الحيوان يصحب الكون على غباء : يبصر ما حوله ويسمعه ، ومع ذلك لا يعي فيه الا انه شخوص واصوات لا معنى لها، بينما حواس الانسان تقع على ما تقع عليه حواس الحيوان ، فتنتقل صورة الى جهاز خطير في الداخل ، فيكون لذلك من عمليات ، المعرفة وابواب العلم ما لم تأت التجارب والايام على غايته بعد ..

واذن ، فالحواس في الانسان والحيوان مجرد فتحات ذات محـدود جداً في المعرفة .. أما الجهاز القائم من ورائهما في الانسان ، فهو العامل الاساسي في تبين حقائق العلم ومقرراته .. ومن الواضح ان العقل هـو مرادنا بذلك الجهاز ..

وليس من قصدنا تفصيل دور العقل وعملياته في الادراك فانا بازاء ما رسم القرآن من مناهج النظر الى حقائق الكون ، وحسبنا من دور العقل ما له صلة بذلك .. ونستطيع ان تتبين ان من اخص تلك العمليات ، ما يأتي ...

أ ـ قدرة العقل المعجزة على التنظيم والتصنيف . فقد قدمنا أن الانسان يخرج الى الحياة ولا علم له او دراية بشيء مما حوله ، فلا يلبث

العقل ان يشرع في عمله من وراء الحواس ، فيستقبل ما تنقله له العـين وغيرها من مختلف الصور والتأثيرات ، ويحتفظ بها .. ومن خلال امتداد التجارب ،ومرور التجارب ، ومرور الايام ، وتزايـد الرصيـد ، يبـدأ عملية خطيرة في تبين علاقات الشبه والمباينة بين الاشيـاء ، أي ادراك وجوه الشبه والخلاف بينها فالكائنات تبدو للعقل بادىء بدء خليطا مشوشا نابيا عن معايير التنظيم والتمييز فيه ، وهو لا يقر على التشوش أو يقبله .. فلا يزال يلحظ الصفات العامة التي تنتظم او تشمل أكبر أعداد ممكنة من هذا الخليط بحيث تقسم الى فئات ، فيلحق على اساسهما الشبيه بشبيهه، والنظير بنظيره حتى يمتاز بعضها من بعض ، فاذا هي اجناس ثلاثة ، جماد ، جماد ، ونبات ، وحيوان ... ثم يظل يتابع علاقات المشابهة والتباين في نطاق كل جنس على حدة ، حتى يتبين الصفات المشتركة التي يمكن تصنيف أفراد الجنس على مقتضاها ، فيظل الشبيه بشبيهه ، والنظير بنظيره ، فاذا الاجناس ينقسم كل منها الى انواع :

فالجماد مثلا ــ منه ما هو صلب ، وما هو سائل ، وما هو غاز ... وجنس الحيوان منه الزواحف ، ومنه الطير ، ومنه من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع ...

وراء التقسيم النوعي تقسيم اضيق دائرة ، فمن الحيوان : الجمل، والحصان ، والفيل ، والاسد ، والزراف ، والانسان .. وبادراك الصفات العامة على النحو المتقدم ، اصبح للعقل احكامه الكلية الصادقـة علـى الاشياء ، وتعرفاته لها الجامعة المانعة . . فيقال مثلا ــ ان الجمل حيوان كبير الحجم ذو قوائم اربع طويلة ، وعنق طويل ، وذنب قصير وسنام فوق ظهره .. ويقال الانسان حيوان ناطق . اي مفكر ..

وبمعنى العقل بواسطة الحواس ، فيدرس كل ما يقع عليه الحس في الارض ، ويجتمع له بذلك ما يستطيع من مقررات العلم الطبيعي .

٢ ـ قدرته العجيبة على الاحتفاظ بصورة الاشياء .. فالعين مثلا ـ تنقل صور الاشياء الى الذهن حسب قوانين الابصار المعروفة ، فيستقبلها ويدركها .. ولنا ان نقول انها تنطبع على صفحته وتظل مطبوعة بها الى ما شاء الله ولكنك اذا ذهبت تبحث عنها فيه بالتصريح لا تجد اثرا ولا بصورة واحدة مع انها قد تبلغ ملايين الملايين من صور الجبال والبحار والانهار والاشجار والصحارى والمروج والمدن والحيوان والانسان ونحو ذلك من كائنات السموات والارض ولو أنها التقطت بعدسة التصوير على شرائح الورق وألواحه لملأت قدر صفحة الافق لا صفحة الذهب ملايين المرات .. فكيف كانت منقوشة عليه ؟ ...

اننا ندرك يقينا ان العقل قد اعتقل تلك الصورة ، احتفظ واختزنها في خزاانته العجيبة واذا طلبت اليه ان يعيد اليك شيئا اعاده ومثله كأنما تشاهده على الطبيعة، فاذا ذهبت تبحث عن تلك الخزانة في تلافيف ذلك الذهن ، لا تجد شيئا فأين ذهبت تلك الخزانة ، وكيف كانت تلك الصورة مختزنة فيه ؟!

قد يفتح ذلك لنا صفحة قدسية من شأن الله تعالى الذي يصور في عقولنا ما شاء من صور بدون ألوان ، ولا حفر ، ولا نقش ، ولا شكل، ولا رمز ما ، ومع ذلك يظهر من من ألوانها ، وثباتها ، وبروز معالمها ، وجدتها على الزمن ، بل من بهائها وروعتها ما لا يتيسر لأي صورة اخرى، بل ما لا يتيسر للواقع نفسه ان يحتفظ به على جدته فضلا عن ان يفيض فضلا عليه اضافات من البهاء الزينة .. ولكننا لسنا بصدد تجلية .

تلك الصفحة القدسية ، وحسبنا ان نقرر من شأن العقل تلك القدرة الباهرة بل ذلك السر الخطير مع صور المدركات التي نقلت اليه من عالم الواقع .. وهي خطة تجعلنا نرى العقل عائثا حافلا بما لا يحصيه الا الله

من صور الخلائق على اختلاف اجناسها وانواعها •• ولنا ان ندعـــوه على ذلك عالم الصور والاوصاف ، أو « عالم المثال الذهني لان المثـال في اللغة ، هو الوصف والصورة ، فقد قال في المصباح المنير « وقد استعمل الناس المثال بمعنى الوصف والصورة ، فقالوا : مثاله كذا ، أي وصفه وصورته » • وجاء فيالقاموس ولسان العرب : المثال المقدار وصفهالشيء•

ولعل من الواضح ان خزانة العقللم يتسن لها ان تحتفظ او ان تسع حقائق هذا العالم المائج الضخم ، الا لانه ـ اي الفعل ـ قـام بعمليـة تجريد ، جرد بها تلك الحقائق من قوامها المادي ، واحتفظ لها بكل طرقها الوصفية ، وحين يغدو الشيء مجـرد أوصاف ، فقـد صار حقيقة عقليـة كأنه ضرب من المعنويات •• واذ يصير الشيء أمرا وصفيـا بحتا ، فقـد زايلته حاجته الى المكان ، ويستوي حينئـذ لدى حافظة العقل أن تحتوي عالمنا الطبيعي كله ، او بعضه ، او ذرة او تحتويه هو ومثله وأمثاله معه ، لان الحقائق العقلية ـ على خطورتها واجابتها ـ تماري الحقائق المحسة باستغنائها المطلق عن ضرورة الحيز •

---

(١) هل يقبل منصف ان يقول ان هذا العالم الذهني العجيب هو عالم حسي او مادي ، وليس فيـه من الحس او المـادة مثقال ذرة ؟ واذا كـان العقل لم يستشر صاحبه فيما يتعلق بما صنعله من عجائب هذا العالم الخفي ، ولم يشعر به صاحبه ، ولم يكن أحدنا الا مجرد هيئة حسية يصنع بداخلها هذا الكائن الالهي المعجز ما يصنع ، فذلك ترشح ذهن من يريد ان يعتبر لان يفهم ببديهية الحياة بعد الموت ، اذ المـوت لا ينال الا مادة الجسم بالتحلي اما هذا الكائن الالهي وعالـم الخفـي الرابع الذي ليس به مثقال ذرة من مادة فلا سبيل للرث اليـه . . انه خفي عن حواسنا وهو مقيم معنا بعجائبه وسيحـل خفيـا بعـد الموت بطبيعة الحال لان تركـه حاسة بشر ، الا صاحبه يدركه بعين عقله كما كان « وكفى بنفسك اليوم عليك حسيبا وفي انفسكم افـلا تبصرون ؟ . . » .

ولا يقتصر الاختزان على صور المحسات ، بل يتناول ما تبصره خاصة الرياضة من حقيقتي الوحدة والمعاينة ، الى ما يضطرب فيه الانسان من معالم •

هذا الواقع من تجارب الحياة في كسب العيش ، وتعلم الصناعات ، وضروب الطموح ، وفنون اللهو ، وعواقب النجاح والفشل فيكون العالم الخارجي ذلك متقشفا في النفس بحقائقه الوصفية والرياضية وما تخلله من تجارب انسانية مختلفة الانواع ••

وقد يحملنا عجب تلك الخاصية ان تسأل : ما ضرورتها ؟ ألها حكمة أرادها الله اذ طبع العقل عليها او طبعها فيه ؟ •• او انها أمر مما يسمونه فضلة لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يؤثر في شيء ؟ • •

ان ملاحظة اختزان الفعل لهذه الصور ، وما له فيها من اثار ايجابية تدعونا الى عقد موازنة بين هذا الاختزان وبين احتواء الرحم لبذرة الجنين فحافظة العقل أو خزانته هي الرحم •• وما ينتقل الى تلك الحافظة من صور الحس والرياضة والتجارب والاراء ، والانفعالات هو بذرة الجنين التي تحصل في الرحم عقب وصول الحيوان المنوي •• والرحم يمد الجنين بواسطة قوانين طبيعية معروفة بالغذاء ، الذي تنصل به الحياة ، ويترتب عليه النمو وتظهر الاعضاء ، وتنشأ الاسماع والابصار ونحوها ••• والحافظة الخازنة ــ تهب بالملاحظة والتحليل ــ لأجنتها الكثيرة عجائب من ظواهر النمو والنضج ، على ما ترى في واردات الآراء به فليس الرأي الوارد على البديهة كالرأي الذي أنضجته الروية ، وما أنضاج الروية الا فعل اجهزة الاختزان في العقل حيث تتولى تنقيته من شوائب العجلة وتمنحه أختما تربو به مادته، وهو الامر الذي ورد به القول المأثور « دع الرأي يغب حتى يختمر واياك والرأي الفطير » وهي ظاهرة معهودة مسلمة ••

فاذا وقفت تعجبا للعقل أذ استطاع تنقية الرأي من الشوائب بملاحظة تجارب الخطأ والصواب ، فان عجبك سيكون أشد ازاء ما طرأ من زيـادة على مادة الرأي الساذجة !!

ومهما تحاول تعليل ذلك بأنه هو شأن العقل ، فهو من قبيل تفسير الماء بالماء ، اذ كيف كان ذلك من شأن العقل ؟ بل هو العقل نفسه ، وما خاصيته الاختزان فيه ...

والى جانب ما تمنح خزانة العقل من نضج ونمو تفيض اوانا مـن البهاء والحيوية حتى ليكون وصف الزهرة نقلا عن صورتها الذهبية ، أبهى من رؤيتها قائمة على غصنها المبـاد ، وأنظر قـول ابن الرومي عـن الربيع ..

« أتاك الربيع الطلق يختـال ضاحكـا ...
مـن الحسن حتـى كـاد ان يتكلمـا »

وقوله في تعلقه بوطنه ...

بلـد صحبت به الشبيبـة والصبا ..
ولبست ثـوب اللهـو وهو جديـد
واذا تمثـل فـي الضمير رايتـه ..
وعليـه اغصـان الشباب تحيـد

فانه ألف هذا القول الجميل من عدة صور متفرقة في خزانته هي : بلده .. وجاه ، ولهو واغصان الاشجار ، وليس لشيء منها ذلك الجمـال الباهر البادي في صياغته الفنيـة للبيتين المذكورين . بل آن الاحساس بممارسة اللهو ـ فعلا ـ في حق الشباب ، وربوع بلده ، ولا يبلغ مـن البهاء ما يبلغه البيتان في القارىء ونفس الشاعـر ذاته وهو يلهو .. فمن

اين الطاقات التي أفاضها العقل على مخزون صوره فأكسبها من البهاء وعمق الاثر ما ليس للأصل ؟ ...

واذا كان العقل مجرد وعاء مصمت ، فمن اين جاء بخصائص النمو والبهاء ؟ .. واذا كان وعاء ذا مسام ، فمن اين جاء بهاتين الخاصيتين العلويتين ، اذا قلنا ان مسامه لا تتصل الا بعصارات التغذية في البدن ؟ واذا لم تكن الحافظة المعجزة الضيقة الى لا شيء ، والواسعة الى ما لا نهاية ... اذا لم تكن امرا من غير ... عالمنا الطبيعي ... أمر هو مثال لحقائق ما وراء الطبيعة فأي شيء تكون .

هاتان خاصيتان للعقل او وظيفتان من وظائفه في التفاعل مع المحسات وادراكها هما :

خاصية ادراك العلاقات بين الاشياء .. وخاصية الاختزان

وسنعرف بعد قليل ان العلاقات بين الاشياء متعددة الانواع منها علاقة السببية وعلاقة التوافق وعلاقة التجاذب .. وقد قدمنا ان خاصية ادراك علاقة الشبه والاختلاف قد انتقلت بالانسان من العجمة ــ عجمة الحيوان ــ الى الوضوح الذي طالع به معاني الكون كانت خافية .. لقد كانت الكائنات تبدو له خليطا مشوشا كما تبدو حروف الهجاء لنظر الأمي، فما زالت تلك الخاصية تجيل النظر ملتمسة العلاقات والاوصاف المشتركة بين افراد هذا الخليط المشوش حتى تبينت ان من افراد الخليط من يتحرك وينتقل من مكان الى اخر ومنه ما لا يتحرك بنفسه الا اذا حركته ومنه ما هو بين بين لا ينتقل من مكانه ولكن له حركة نمو ذاتية وعلى هذا الاساس انفسحت الكائنات الى اجناس ثلاثة : حيوان ، جماد ، نبات واتضح للكون معنى انتقل به الأمي من رؤية الحروف مبهمة الى مرحلة جمع فيها من تلك

الحروف كلمات ذات معان خاصة ، ثم مضت خاصية رؤية العلاقات لجمع المتشابهات بعضها الى بعض فانقسم افراد كل جنس فيما بينها الى انواع، وانقسمت الانواع الى اصناف .. الخ .

... ويتسع تمييز الانسان كلما تقدم العقل في جمع المتشابهات فيما هو مشترك بينها من الصفات .. ويزداد تبعا لذلك ادراك الأمي للكون مرحلة بعد مرحلة ، وهذا من دقائق عقل الانسان المثيرة لمنتهى العجب ! من ركب للعقل ذلك القانون او تلك الخاصية ؟ ! ..

وأما خاصية الاختزان فهي تشبه الرحم أو الارض او الطبيعة كلتاهما تحضن بذورها في فترة الحضانة تمدها خلالها بالحياة وخصائص النمو والايجاب والجمال حتى اذا تهيأت الأجنة لمعايشة ظاهر الواقع ظهرت .. وذلك شأن الحافظة ، اذ تستقبل ما يلقى اليها من صور المحسات والحقائق الرياضية (الوحدة والمكانية) ... وخلال الحضانة يحس المرء قلقا وعدم رضى او عدم موائمة مع الواقع (لماذا القلق ؟) .. ويحس وضوحا كأنما وضعت الاشياء تحت ميكروسكوب ! (فمن اين الوضوح ؟) ؟ وتلك عمليات تطور تتم قطعا داخل الحافظة وهي تمثل مراحل تقدم الانسان نحو الغاية التي بلغها اليوم في علوم الطبيعة والهندسة والرياضة .. وتفصيل ذلك لا يقتضيه المقام .

وبقليل من التدبر نجد القرآن الكريم قد واءم بين ما قدمنا من خاصيات العقل وما رسم له من مناهج النظر في المحسات .

مناهج القرآن في النظر

وتختص مناهج القرآن التي قررها للنظر في أفق المحسات بثلاث خصوصيات واضحة ...

الخصوصية الاولى : الاعتراف بمصالح الناس ، وتقرير ما ينفعهم

وهو ضرب من واقعية النظر ذهب فيه القرآن الى ابعد مدى يتصور .

الخصوصية الثانية : هي عملية الاسلوب القائم على التجربة وتقرير الواقع في ضوء النظر الصادق الذي ينفذ الى ادق خفايا الشيء ويلم بكافة زوايا النظر اليه .

والخصوصية الثالثة : النظر في العلاقات بين الاشياء ، على النحو الذي أشرنا اليه سابقا .

وهذه الخصوصيات ليست معالم منفصلة بعضها عن بعض بل هي مزايا اساسية تشيع في كل منهج ويقوم بها كل منهج ، ولكن درجة بروز كل منهج تتفاوت بحسب طبيعة الموضوع المقام .. ونحن موجزون القول في كل خصوصية على حدة على النحو الآتي ...

الخصوصية الاولى .. تقرير ما ينفع الناس

فان المعروف ان في الناس حرصا على ما ينفعهم ، وهم يحبون ان يواتيهم الكون بكل ما يريدون وذلك فطرة فيهم أقرهم الله عليها ، وناداهم اليها على اختلاف مستوياتهم ابتداء من عامتهم بقوله « يا ايها الناس كلوا مما في الارض » وانتهاء الى خاصتهم بقوله : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات » وفتح كل باب مغلق ونادى الجميع ان يلجوه في كل انحاء الارض « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » ويلم القرآن في هذا الباب بكل ضروب المنافع ، ما يتعلق منها بحياة الانسان مباشرة كضرورات الطعام والشراب وما يتعلق بها بطريق غير مباشر وما يتعلق بالرفاهية .

أ ـ وانظر قوله في منافع الشجر والنبات والزرع « هو الذي انزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا تخرج منه حبا متراكما ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من اعناب والزيتون والرمان

مشتبها وغير متشابه ... الآية ٩٩ من الانعام ، وانظر الآية ١٦٠ من النحل .

ب ــ وانظر قوله فيما يؤدي الحيوان من منافع في حمل الاثقال وجر الآلات والركوب وما يؤخذ منه من جلد ولحم وصوف وغيره « وجعل لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ، ومن أصوافها واوبارها واسفارها اثاثا ومتاعا الى حين . ١٦ النحل وانظر ٧ النحل وانظر ٧١ .

جـ ــ وانظر اشارته الى منافع الغلات ومواطنها على اختلاف ألوانها « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » الحديد ٢٥ . وقوله « ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » فاطر ٢٧ .

د ــ وقوله في موارد الماء من عيون وآبار وأنهار وبحار ، وما فيها من ثروة وما لها من منافع وتيارات وشلالات « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » ١٤ النحل وانظر ٣٢ ابراهيم و ٣٤ ، ٣٥ يس .

هـ ــ وقوله في المعادن السائلة في جوف الارض ، وتيارات الريح ، والقوى الخفية ، والطاقات المنبعثة من الشمس وغيرها « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بأذن ربه » ١٢ سبأ « وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار » ابراهيم ٣٣ .

فهل بقي شيء بعد الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء والارض والحيوان تتعلق به منفعة الانسان لم يشر اليه القرآن .

ونعود فنقرر ان تلك الخصوصية ليست مرحلة من مراحل النظر ، ينتهي امرها لتبدأ اخرى بنظام خاص وسمات معينة بل هي احدى مقومات ادراك الانسان ومزاياه التي تصحبه في كل مستوياته .. ونعتبر الى ذلك قاعدة النشاط الفعلي للانسان ، والعامل الذي يؤنسه ويهيؤه نفسيـا لما هو مدعو اليه من مستويات النظر الحكيمة .. فالقرآن لم يخرج بالانسان في كل ما قدمنا ــ وفي نحوه مما لم نذكره ــ عن واقعه الذي يعيش فيه بحواسه وغرائزه ، وعقلـه ومشاعره .. ولم يخرج به عن القبـة الزرقاء التي تطالعه ليلا بزينة الكواكب وتحوطه نهاراً ببسمة ضوئها العريض ان سار .. ولم يخرج عن مسرح تقلبه بين ضروب المنافع والمعايش التي تتعلق بها رغباته ومقاصده .. لم يخرج به عن ذلك بل زاد فجعله هو مسرح نظره وموضع تدبره وهو من حكمة القرآن الذي يجعل الواقع الحسي اطـار عقل الانسان وموضع نظره في حقائق الكون ، دون ان يتطوح به فـي شطحات متوهمة يقرر فيها ما لا سلطان له به دون ان تدعو اليها ضرورة دين او دنيا .

علمية النظر في القرآن الكريم

١ ــ وتتحقق تلك العلمية بأمرين أساسيين :

الامر الاول : ان تكون المادة ، اي واقع الكون المادي هو موضوع نظر الانسان .. وذلك هو موضوع الخصوصية السابقة ، فقد بينا فيهـا ان القرآن يقودنا الى العلم بحادي المنفعة الحسية واثارة الرغبة فيها ضمانا لواقعية النظر واطلاقا لحوافز التفاعل الجاد مع ذلك الواقع .. وهـذا أبلغ ما يرجى او يطلب لعلمية النظر من واقعية ..

والامر الثاني : توجيه طاقات النظر وتركيزها في دراسة ما يقع عليه الحس عامة وما ينتفع به خاصة دراسة تنفذ الى خفايا الشيء وتلمهم بكافة زوايا النظر اليه على ما ستعرض له بعد قليل .

اي يكون نهج الانسان في صحبته للكون عدم الاكتفاء بتحصيل ما يبدو له من ظاهر المنفعة بل لا بد من النظر الفاحص لما وراء ذلك ... لما تتضمنه تلك المنفعة من حقائق وعلى هذا كان من نهج القرآن ألا يدعو الناس الى تناول ما ينفعهم بقوله « كلوا من ثمره اذا أثمر » الا وفي مقابله في السورة نفسها أمر بتفحص ذلك المنتفع به في قوله « انظروا الى ثمره اذا أثمر » وهو نظر دراسة وتأمل بلا ريب ... واليك قوله تعالى « أو لم يروا ما خلق من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمال ... الآية ٤٨ النحل» فهي مثال لتركيز النظر في دراسة ما يقع عليه الحس عامة ... فموضوع الرؤية فيها شيء مادي لان له ظلا ، وليس من شيء ذي ظل الا ما هو كثيف أي مادي .. وتفيؤ الظلال عن اليمين والشمال ، هو انقلابها عن اليمين والشمال واستمرار تقلبها على ذلك .. وتوجيه النظر الى تلك الظاهرة هو بعث للعقل على تبين علة صحيحة لها .. ولم يذكر القرآن تلك العلة بل اثار العقل اليها وجعل الكشف عنها مناط همته .. وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره ان المراد باليمين والشمال هنا هو شرق الفلك وغربه أي ان الامر يتعلق بمباحث الفلك .. وقد يسأل سائل وهل وصل العرب في ذلك الى علة صحيحة ؟ .. وليس يعنينا ان يكونوا قد وصلوا او لم يصلوا فنحن بصدد تجلية النهج الرائع للقرآن في تعليمه ، اذ يبسط صفحة الكون امام البشر كافة لا العرب وحدهم ويقول « انظروا ماذا في السموات والارض » ؟! ثم لا يتركهم يستقلون بمنهج هذا النظر بل يورد من امثلته المتباينة ما يلم بحقائق السماء والارض مع ادق الخصائص التي يجب توفرها في النظر الحق ، وكلمة الظلال قد فصلت على علم الآية الكريمة لتقرر مستوى الدقة والحكمة في ايراد امثلة ذلك المنهج وبيان خصائصه ، فمن جهة تدل على ضرورة اتخاذ المحسات موضوعا للنظر باختيارها شيء كثيف له ظل ، ومن جهة ثانية تشير للعقل الى ظاهرة تغلب الظلال لتجعلها منطلقا له الى ما يتصل بها من حقائق الفلك .. واذا كان الانسان قد

اكتشف بعد ذلك دورتي الارض اليومية والسنوية امام الشمس وحولها ، فمما لا شك فيه ان تفيىء الظلال امام عينيه بين شرق الفلك وغربه كان شاغله ومنطلقه الى ما وصل اليه .

٢ ـ ومن مناهج تلك العلمية الجامعة : ـ أ ـ النظر الى المادة او المواد التي خلق منها الشيء . ب ـ النظر الى كيفية خلق الشيء . جـ ـ النظر الى كيفية بدء خلق الشيء . د ـ النظر في الاطوار والمراحل التي يمر بها الشيء خلال حياته او وجوده في ظاهر الحس . هـ ـ النظر في درجة اتقان صنع الشيء .

ونوجز بيان ذلك على النحو التالي :

أ ـ فمن حيث النظر الى المادة او المواد التي خلق منها الشيء وجهنا الله اليه بقوله المعجز « فلينظر الانسان : مم خلق ؟ » . فهي دعوة لتبين أمر خطير ، بل اخطر ما يتعلق بالانسان مم خلق ؟ .. ولا نجد في عناية القرآن بالعلم والتعلم ما هو أروع وأحكم من أن يبعث الانسان الى ضرب من الدراسة يتبين فيه مما خلق .. ولا يتركنا القرآن في عماية من أمرنا فيفتح الباب ، ويضع أقدامنا على بدء طريق البحث بقوله « خلق من ماء دافق » . ويضيف القرآن الى ذلك الماء « ان الانسان خلق ابتداء من طين بقوله الذي احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين » أي من عناصر الارض فالانسان خلق من شيئين الاول عناصر الارض التي يتألف منها البدن ..والثاني الماء والمراد به الحيوان المنوي الذي يسهم في نفخ الحياة في الجنين ولا ريب ان الامر في الآية الكريمة يشمل توجيه الانسان الى معرفة مم خلقت الكائنات الاخرى في الارض والسماء .. أي يشمل معرفة مم خلق الله الكون كله .. فان الامر بالمعرفة صادر ممن خلق الكون نفسه .. وهو قد خلقه من عناصر معروفة معينة احصاها العلماء

ووضعوا لها اسماء وبينوا خصائصها ، وهي لا تعد بالالوف ولا بالمئات ، اذ هي في نطاق المائة عنصر . . وكل شيء في الارض والسماء على ما يقوله العلماء له حظه في تكوينه من تلك العناصر بمعنى ان الشيء الواحـد لا يتكون من تلك العناصر بل من بعضها ، بحيث لو احصى ما تتألف منـه الاشياء كافة لبلغ مجموعه ما ذكرنا .. فمادة السكر المعروفة لنا مثـلا تتألف من ثلاثة عناصر هي : الكربون ، الايدروجين ، والاوكسجين .. ونضيف الى ذلك ان الهواء يتألف من عشرة عناصر ، اهمهـا الآزوت والاكسجين ولكن دخول تلك العناصر في العناصر في تكوين الاشياء ليست بمقادير متساوية بل بمقادير ونسب مختلفة من كل منها بحسب طبيعـة الشيء الذي تدخل في تكوينه فنسبة الاكسجين في تركيب الهواء مثـلا هي : ٢٠،٩٥ ، بينما نسبة الهليوم فيه : ٠،٠٠٠٤

وأخف عناصر الارض ذرة الادروجين ، وأثقلها ذرة اليورانيوم ... وقد قدمنا ما قدمنـا ليتبين ان الله اذ وجـه الانسان لينظر مم خلق ومم خلقت الاشياء انما وجهه الى مهمة مقدورة بمقوماتها ومعالمها ، والى ذلك قد أودع فيه القدرة والاسباب العقلية التي تؤهله لتحليل تلك المركبـات الى عناصرها وفي هذا يقول « العلامة الاستاذ الدكتور أحمد زكي فـي كتابه « مع اللـه في السماء » : لقد أعطى الانسـان القدرة على تحليل المركبات وتركيبها .. ومع علمه تعالى بقدرة الانسان على تحليل تلـك المركبات ومعرفة مم خلقت فتح له الباب بقوله « خلق من ماء دافق » .. « وبدأ خلق الانسان من طين » أي وضع بين يديه مادة الدراسة نموذجـا لما يتبع ويلتـزم ... وذلك لسبـب المنهـج التجريبي الذي تمحصت به وتتمحص كل ما بلغت الانسانية من حقائق العلم .

ب ــ ومن حيث النظر في « كيفية خلـق » الاشياء جـاء قولـه تعالى : « أفلا ينظـرون الى الابل كيف خلقـت ؟.. والى السماء كيف

رفعت ؟.. والى الجبال كيف نصبت ؟ والى الارض كيف سطحت ؟ »
ففي الفقرة السابقة كان المطلوب هو النظر لمعرفة المواد او العناصر التي تتركب منها الاشياء والمطلوب هنا ، هو النظر في « كيفية » خلق الاشياء من تلك العناصر . ويتضح المراد اذا علمنا ان النجار ـ مثلا ـ اذا أراد ان يصنع مكتبا ، فان المفروض ان تكون مادة الصنع ـ وهي الخشب ـ متوفرة لديه ، وتكون مهمته اولا : كيف يصنع المكتب من تلك المادة ؟.. انه قبل ان يمس أي قطعه من الخشب يكون قد قدر في ذهنه هيئة عامة لذلك المكتب وقدر الاجزاء التي تنتصب بها تلك الهيئة وذلك بحسب الاغراض التي يراد استعمال ذلك المكتب لها ... ثم يشرع في تقطيع الخشب وتوزيع قطعة على أجزاء المكتب فاذا هو واف بالغرض... وكذلك الابل هي مخلوقة من عناصر الارض التي قدمنا ولكن لم تخلق جزافا على غير تقدير سابق بل قدر خالقها ظروف البيئة الصحراوية التي ستعيش فيها ، والاغراض التي ستستخدم لها وهي حمل الاثقال وقطع المسافات الطوال التي تستغرق الايام والليالي ... فقدر لها اعضاءها الظاهرة وأجهزتها الباطنة بما يتناسب مع ما ذكرنا من مقتضيات البيئة والمهمة ، ثم وزع الخلايا والعناصر على ما قدر من أعضاء وأجهزة ... فكانت الارجل الطويلة والعنق الطويل والسنام فوق الظهر ، والخف المعروف واجهزة تخزين الماء في الجوف لمواجهة احتمال الظمأ وفقدان الماء في الصحراء مدة طويلة كان ذلك وغيره هو المقتضى الضروري الذي يحقق ما أريدت تلك الابل له في بيئاتها القاسية المناخ والتربة ..

وفي هذا المثال ما يبين حقيقة المطلوب بالنظر في « كيفية خلق » الاشياء ، وندع بقية الآيات لان التفسير ليس غرضنا ، ولا يفوتنا ان نشير الى ان النظر في « كيفية الخلق » ينقضي استدعاء طاقة عقلية اقوى واعمق مما يقتضيه النظر لمعرفة : مم خلقت الاشياء ؟

ج ـ ومن حيث النظر في كيفية بدء الخلق ، جاء قوله تعـالى : « اولم يروا كيف يبدي الله الخلق ثم يعيده ؟ » وقوله « وقل سيروا في الارض ، فانظروا كيف بدأ الخلق » ..

والمطلوب في هذه الفقرة غـير المطلوب في الفقرة السابقة ، فالنظـر هناك متعلق بكيفية الخلق ، وهو هنا متعلق بكيفية بدء الخلق « والخلـق هنا بمعنى الخليقة » وهو لا يريد انشاءها من مادة قائمة في الكون ، بل يريد الخلق الاول، خلق المادة نفسها .. وذلك أمر لم يبلغه الجهد الانساني الى الآن، قال الامام الرازي «علق الرؤية بالكيفية لا بالخلق... والكيفية غير معلومة ، فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم ، وهو انه خلقه ولم يك شيئا مذكوراً » أي مدى علمنا بكيفية بدء الخلق ، انه تعالى خلقـه ولم يك شيئا مذكـورا .. ويقول الدكتور جمـال الدين الفندي في كتـابه « القرآن والعلم » : « لم يصادف العلم الطبيعي حظـا موفورا في مسائل الكشف عن أصل الوجود » الى ان يقـول « وكما قلنا نبدأ كل نظـرية علمية تحاول تفسير « الكيفية التي وجدت بها الاشيـاء في أول الامر » من نقطة خاصة او فرض معـين ، لا سبيل الى التدليل عليـه ، فالقدامى والمحدثون لم يصلوا فيما ندب الله له الى شيء يطمأن اليه ، وبين أيدينـا الان دراسات في بدء ظهور المادة وبـدء ظهور الحياة ، وكلها تقوم علـى فروض « لا سبيل للتدليل عليها » كما يقول الدكتور الفندي ، ولا يعلـم أحد الا الله ـ ماذا يطلع به الغـد ؟..

وايا ما كان الامر ، فهذه الفقرة تقتضينا استجاشة طاقة عقلية اقوى واعمق واوسع من الطاقة التي أشرنا اليها في الفقرة السابقة .

د ـ ومن حيث النظر في الاطـوار والمراحـل التي يمر بها الشيء

خلال حياته ، أو وجـوده في ظاهر الحس ، فقـد جاء فيه قوله تعالى في بعض الظواهر الجوية « ألم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه .. ثم يجعله ركاما ، فترى الودق يخرج من خلاله .. وينزل مـن السماء مـن جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنـا برقه يذهب بالابصار » .. وانظر آية ٤٨ من الروم .. وفي أطوار الاجنة جاء قوله تعالى : « ثم جعلناه نطفـة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقـة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظامـا ، فكسونا العظام لحما ، ثـم انشأناه خلقـا آخر .. » .

* وفي أطوار النبات جاء قوله تعالى : « ألم تر ان الله أنزل مـن السماء ماء ، فسلكه ينابيع في الارض ، ثم يخرج زرعا مختلفا الوانـه ، ثم يهيج فتراه مصفرا، ثم يجعله حطاما، أن في ذلك لذكرى لأولي الالباب» وانظر آية ٢٠ من الحديد .

* وفي أطوار عمر الانسان جاء قوله تعالى : « ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكـم من يتوفى من قبـل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تتقون » .

* والاطوار تحكي قصة عمر الشيء الواحد .. وكل طور فهـو يخالف سواه وهي مخالفة ترجع الى أسباب وسنن ، ويريد القرآن ان يلم بسنة كل طور وأسبابه وهو نمط في التوجيه يعلق الهمة بالمدى الذي لا شأن بعده في المعرفـة .

هـ ــ واما النظر في درجة اتقان صنع الكون ، فقد أرشد اللـه تعالى اليه بقوله : « وترى الجبال تحسبها جامدة ، وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء » . قال البيضاوي : « أي احكمة وسـواه

على ما ينبغي » ... واتقان صنع الكائنات صفة تبدو للمتأمل في أمرين بارزيـــن :

الامر الاول ، دقة تقدير الكائنات ابتداء . والامر الثاني حقـائق عملية تختص باداء الاشياء لدورها في الحيـاة .

* فأما دقة تقدير الكائنات ، فقد جاء فيها قوله تعالى : « وخلق كل شيء وقدره تقديرا » وتوكيد الفعل في قوله فقدره تقديرا اشارة الى المبالغة وتمام التقدير في صنعه تعالى ..

وقد جاء في اللغة في معنى التقدير قدر الامر دبره .. وقدر الشيء هيأه ووقته والتقدير تبين كمية الشيء ... ومـن التقدير ان يجعل اللـه الاشياء على قدر مخصوص » .. وكل هذه المعاني محققة قائمة في كـل ما خلق اللـه ..

* فقد قدر لكل كائن حي أو جامد مـا هو ضروري لكيانه مـن الخلايا والعناصر ، بنسب مقدرة من كل كائن على حدة، بحيث اذا تغيرت النسبة تغير الشيء ، فلا يكون السكر سكرا ولا القمح قمحا ولا الهـواء هواء ، بل يكون شيئا آخر .. وذلك مطرد في كل شيء .

* ومن التقدير انه تعالى قدر لكل كائن جنسه ونوعه وقدر لـه هيئته واعضاءه وحواسه واجهزته وركب كل منهـا في كل كائن بالمكان الذي يلائم وظيفته وتنسق به هيئته العامة .

* وقدر لكل كائن النواميس التي تؤدي بهـا اعضاؤه واجهزته وظائفها ، وتحفظ له خصائصه النوعية ، فلا يخرج عنها الى خصائص نوع آخر بحال فلا يلد الاسد ثورا مثلا ، ولا تنبت نواة التمر الا النخل فحسب

دون التفاح والزيتــون ، على ما قال تعــالى : « قد جعل الله لكل شيء قــدرا » .

* وقدر لكل كائن أيضا وظيفته او الدور الذي يؤديه في الحيــاة وجعل له من فطرة الاهتــداء نواميس تقــوده الى مهمته المرسومة ، لا يختلف عنها في الطبع او الاتجاه على ما قال تعالى : « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ؛ ثم هدى » فصدر الآية يتضمن ان كل كائن اوتي كل مقومات خلقه من الاجهزة والحواس وغيرها ، وآخرها يتضمن ان كل كائن بعــد تمام خلقه ينصرف في الحياة لممارسة اسلوب معيشته ، واداء دوره ... ومثل الهداية في الآية السابقة قولــه تعالى في سورة الاعلى : « الــذي خلق فسوى .. والذي قدر فهدى » فتتجه دودة القز مثلا لانتاج الحرير، وتتجه نحلة العسل الى وجهتها على ما بين تعالى قوله : « واوحى ربــك الى النحل » الى قوله : « ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ..

* واما الامر الثاني الذي تبدو فيه صفة اتقان الكائنات ، فقــد قلنا أنها حقائق علمية تختص بأداء الاشيــاء لدورهــا في الحياة ، وممــا نريــد بذلك .

* تمام النظام ، وهو أوضح ما يكون في ضبط مدارات الافلاك كل في سعة مقدرة ومكان معين .. وفي التزام كــل كوكب ونجم لمداره الخاص به ، لا يتعداه بحال الى آخر يصطدم فيه بغيره ويدور فيه بسرعة مقدرة لا يجاوزها ولا يتخلف عنها بتقدم او تأخر ولا بمقدار واحد مــن ألف جزء من الثانية .. وتنسيق ذلك كله بعضه مع بعض بحيث لا يتعارض نظام كوكب مع نظام كوكب آخر وبحيث ينتظم ما يترتب على ذلك مــن المصالح بانتظام الفصول الاربعة وتوالي الليل والنهار على الحساب المقدر لكل منهما في الطول والقصر ودقــة ما تتخذ من تقاويم لتعيين أوقــات

الشروق والغروب وأوائـل الشهور ونحـوها وفي هذه المعاني جاء قوله تعالى : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » • وقوله : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهـار ، فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقديـر العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لهـا ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون » •• هذا النظام التام هو شاهدنا على اتقان صنع الكون وليس في نظم الاجهـزة ما هو اتم من ان يكون اداء الشيء لوظيفته هو المثال الذي يتخرج عليـه الناس في تعليم الحساب وضبط التقاويم •

* قوة الاحكام •• وأصل الاحكام في اللغة هو « المنـع للاصلاح ومنه سمي لجام الدابة حكمة ، بفتح الحاء ، فقيل حكمت الدابة أي منعتها بالحكمة » ويقال : أحكمت العمل أي اتقنته وضبطه •• فقوة الاحكـام تعني وثاقة البنية مع الانقياد او الانضباط في وحدة الخليقة •• وها نحن اولاء نجد الله قد ضبط الكائنات كافة في شبكة من النواميس تصل مـا بين بعضها بعض فتجعلها وحدة كلية مترابطة الاجزاء ، بحيث لا يوجـد كائن ــ بالغا ما بلغ من الضآلة ــ الا وهو متصل أو مشدود بكافة أفراد الكائنات في حقل الطبيعة الخطـير الذي لا يقدر كنه افاقه الا الله ، ولا يتسنى لكائن مـا في الارض او السماء ان يشز او يتخلـف عن الانقياد لزمام تلك الوحدة على ما قال تعالـى : « ثم استوى الى السمـاء وهي دخان ، فقال لها وللارض أئتينا طوعا او كرها ، قالتا أتينا طائعين » ويعبر القرآن عن وثاقة البنية بقوله : « وبنينا فوقكم سبعا شدادا » ••• وهي وثاقة لا تبلى قوانينها ولا يدركها وهن على ما مر بها بلايين السنين ، وعلى ما يمر بها من ذلك ، فهي حافظة الان لما تمسكه بنفس القوة التي كـانت تمسكه بها منذ كانت ، على ما يقول تعالى : « أن اللـه يمسك السموات

والارض ان تزولا ولئن زالتا ان أمسكهن من أحد من بعده » وذلك مثل أعلى في الاحكام لا يطمع كائن ان يماري فيـــه .

وواضح ان منال النظام وشدة الاحكام هي من الظواهر العمليـــة المرتبطة بتقدير الكائنات واتقانها ، او هي الامتداد العملي لذلك التقدير في أفق التجربـــه .

ومنهج التعليـــم في هذه الفقرة ـ فقرة النظـــر في الاتقان ـ يتميز بمعاينة نماذج الصنع في مثلها الاعلى فيحس المرء لها بارتياح كأنه صادفها على ما كان يريد ، ذلك ان المثل الاعلى معيـــار مثالي في فطرة كـــل ادمي يطرب للكمال ان وجده ، ولذا يجد الانسان نفسه في هذه الفقرة يجمع بين صفة المستكشف .. والناقد .. والمتعلم معا . وهو نهج في التربيـــة تتعدد به جوانب شخصية المرء ، ويشخص نمط الحياة الايجابية لعينيـــه فلا يكون للسلب لديه مجال ولا يقنع فيما يبـــدع ان يحتذي مثالا دون نماذج المثـــل الاعلى .

النظر فيما بين الاشياء من علاقة

والنظر في العلاقة بين الاشياء ، غير النظر في الاشياء .. فقد تبين مما تقدم ان النظر في الاشياء يشمل النظر مم خلقت أي يتناول معرفة العناصر التي تكونت منها ... والنظر في كيفية خلقها .. وكيفية البدء في خلقها.. والنظر في أطوار الشيء ومراحل حياته وعمره والنظر في حظـــه من اتقان الصنـــع ..

اما النظر في العلاقات التي بـــين الاشياء فصفحة اخرى جليلة مـــن المعرفـــة ..

أ ـ وقد قدمنا أن من تلك العلاقات علاقــة التباين في الصفــات الاساسية من حيث الحركة والجمــود التي انقسمت بها الكائنات الــى ثلاثــة أجناس •

ب ـ ومنها علاقة « التوافق الكيموي » بين الاشياء ، وقد جــاء في القرآن من أمثلتها قوله : « فلينظر الانسان الى طعامه انا صببنا المــاء صبا ثم شققنا الارض شقــا ، فأنبتنا فيها حبــا وعنبا وقضبا ، وزيتــونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وابا ، متاعا لكم ولانعامكم » ففي الآيــة الكريمة ذكر للماء •• وذكر للارض ، وكل منهما كائن قائم بذاته ، ولكن بينهما علاقة توافق كيموي ، قررها القرآن بقوله : « انا صببنا الماء صبا•• ثم شققنا الارض •• فأنبتنا فيها •• الآية •• والمعروف ان المــاء مركب كيموي من عناصر معينــة •• والارض كذلك ، فــاذا انصب الماء عليها، وتسلل من شقوقها ومسامها الى داخلها ، امتزجت عناصر كل منهما بعناصر الآخر وتكون من الامتزاج مركب جديــد •• وذلك المركب بدوره لــه علاقة بشيء رابع اذ هو العصارة التي تمتصها جذور النبات والاشجار•• ثم يهضم النبــات والاشجار تلك العصــارة كيمويــا ، ويقدمها للانسان طعاما •• وهذه الاطعمة لها دورها الكيموي الذي تتوافق به أتم الموافقة مع طبيعة بدن الانسان •• وعلاقــات التوافق الكيموي ليست مقتصرة على كيمياء النبات ، فان عناصر النبات على اختلاف انواعه ليست اجنبية عن سائر العناصر ، فهي هي اذ تدور تلك العناصر فتدخل في تكوين الكون كله •• وعليه فاذا وجهنا القرآن لملاحظة تلك العلاقــة في مجال النبــات فالامر قائم بالنسبة لمجال الصيدلة والكيمياء الصناعية ، ونحوها •

واذا كان ذلك هو سبيلنا الى فنون الكيمياء تحليلا وتركيبا وبحثــا عن مختلف الخصائص لادراك مختلف المنافع فانه يرد الكون على تباعد أطرافه الى أسرة واحدة ، يرى كل منها في بنائه طرفا مما في بناء أخيه ••

وتلك وحدة رائعة لا ينبغي ان تغيب عن ذهن أحد .

جـ ـ النظر في « علاقة التجاذب » التي يمسك الكائنات بها بعضها بعضا في السماء والارض وقد أشار اليها القرآن بقوله : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ؟ » ويلفت النظر الى أعجب ما في ذلك البناء بقوله : « خلق السموات بغير عمد ترونها !! » ..

وفي بدء خلق السماوات يقول القرآن ثم استوى الى (السماء) وهي دخان فقال لها الآية فالسماء كانت دخانا منتشرا بطبيعة الحال في الفضاء الكوني ، وهذا ما يقرره العلم بكل ما له من مصطلحات وحقائق يقينية وفيه يقول الدكتور جمال الدين الفندي في كتابه « قصة السموات والارض » : « يمكننا ان نجزم من غير مجال للشك او التخمين ان كونا بدأ في صورة سحابة هائلة ، او سديم من دخان ، وقد لعب غاز الايدروجين في تكوين ذلك السديم ... اذ انقشع الغاز عن بعض الاماكن وتراكم في اخرى ، فتكونت النجوم والشموس [١] » .. وبما ان الدخان كان منتشرا في الفضاء الكوني ، فان النجوم التي تكونت من تراكم بعضه الى بعض ظهرت سابحة في هذا الفضاء غير مرتكزة على شيء ، على ما يقول القرآن « خلق السموات بغير عمد ترونها » وغير معلقة بشيء يمسكها من أعلى على ما يقول القرآن أيضا : « ويمسك السماء ان تقع على الارض الا بأذنه » ..

فنحن بازاء كواكب وشموس واجرام سابحة في الفضاء الكوني لا يحصيها الا علم الحق تعالى غير مرتكزة على شيء ، ولا معلقة بشيء .. وهي مع ذلك تدور في أفلاكها على ما يقول القرآن : « كل في فلك

---

(١) ص ٢٧ من كتاب قصة السموات والارض بتصرف قليل .

يسبحون » .. فكيف تسنى لهذا البناء ان ينتظم على كثرة لبناته كثـرة هائلة وعلى اختلافها في الاجرام والاحجام ، وعلى ترامي آمادها السحيقة الى ما لا يعلم الا الله ؟.. ذلك ما وجهنا اليه القرآن بقوله : « اولم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها ؟ » ..

وقد نظر الانسان ، وأوغل في دراسة الفضـاء الكوني وما يتضمن أكوان واجرام وأفلاك وظواهر الى مدى رائع ، وكان من حصيلة النظـر ان اهتدى الى ان الكواكب والنجوم في آماد حقلها الطبيعي كله تتماسك فيما بينها بقانون يحكم عقدها ان ينفرط ، هو قانون الجاذبية ... وزادوا فعرفوا ان ذلك القانون يشمل كل ما على سطح الارض وكل ما على أي كوكب ، فكل شيء لـه كتلة يجذب كل شيء لـه كتلة ، فالانسان يجذب الارض مثلا وهي تجذبه ، ولكن بنسب علمية مقدرة ، ومثل ذلك التجاذب قائم بينه وبين كل كائن في الارض والسماء بالغا ما بلغ حجمه من الصغر او الضخامة وإذ تنتظم وحدات هـذا الكون الرهيب الخطير في علاقـة واحدة محكمة فهو الوضع الذي أراد القرآن تبينه : « أفلم ينظروا الـى السماء فوقهم كيف بنيناها » وهو ضرب من الوحدة نضيفه الى وحـدة التوافق الكيموي .

د ـ النظر فيما بين الكائنات من « علاقة التناسق الوظيفي » ويشير القرآن الى تلك العلاقة بقوله : « الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » .. ففي الآية الكريمة طرفان عنيدان هما السمـاء والارض .. والواضح للعـين المجردة ان لكل منها قوامه الخاص به .. ومن معاني السماء ، انها القبـة الجميلة الزرقاء فاذا قصرنا البحث على هذا المعنى وتدبرنا به الآية الكريمة وجدناها تقرر ضربا من العلاقة بـين السماء والارض ينتظمها فيما تتحقق

به مصالح أهل الكوكب : فالارض فراش •• والسماء بناء يحيط بذلك الفراش من فوقه ومن كل انحائه •• والبناء انما يطلب ليقي ذويه عوارض وغوائل كثيرة فاذا سألت علماء الطبيعة الجوية عن تلك الغوائل التي يردها هذا البناء عن سكان الارض أجابوك بما يذهل اللب ، بما لسنا بصدده ويكفي ان نعلم أن تلك الغوائل لو وصلت الى الارض لتوقفت المصالح وتعذرت حياتنا •• ومهما يكن من شيء فالقدر المفهوم من ظاهر الآية يدل على تناسق متصل الآثار بين السماء والارض •• فالارض فراش •• والسماء بناء •• وهي تنزل ماءها على الارض فتقلبه الارض وتخرج من الثمار رزقا للعباد •• وهي نتيجة ما كانت لتتحقق اذا لم يكن بين السماء والارض من وحدة القوانين ما يجمعها عليه ، فاذا ذهبنا نتتبع أجهزة الكون في اداء وظائفها الفيناها مؤتلفة في مثل هذا التآزر على تباعد ما بينها ••• فكوب الماء الذي نشربه مثلا ــ تتداوله أطوار شتى وتسهم في صنعه كائنات عجيبة مختلفة الطبيعة متباينة الآفاق : فالشمس في أفقها الشاسع العالي ترسل حرارتها •• والبحر في مكانه السحيق من الارض يتلقى تلك الحرارة ويكون من استجابته لها ان يتبخر جزء من مائه فاذا صار بخارا انفصل عنه وتلقاه الهواء فصعد فيه الى أعلى حتى يبلغ مدى معينا يجد به ثلاجة سماوية •• فيتحول بها من حالة البخار الى قطرات من الماء •• وينشب اليه تيار من أجهزة التيارات العليا الهوائية ، فيسوق معه تلك القطرات الكثيفة حيث يشاء فتكون هي السحب التي ترى فيها الناس البشرى لما يرجون من الخير والحياة•• وما خطوة من تلك الخطوات الا وهي محسوبة بسنة وقانون وما من كائن من تلك الكائنات اسهم بسهمه الا وفق تقدير محكم يجعل من تلك الخطوات أمرا متصل الحلقات، لكل كائن مكانه فيها الذي يؤدي به دوره تكملة لما سبق ، وتمهيدا لما بعده في تناسق تام تتأتى به ثمرته الرائعة وذلك هو مرادنا بالتناسق الوظيفي ، فاذا وجهنا القرآن الى النظر في هذا الضرب من العلاقة بين

الكائنات فانما يدعونا الى مطالعة نواميس عجيبة متشابكة ، تتبين بها في النهاية انها تجمـع الكائنات كافة دقيقها وجليلهـا في وحدة من التناسق يؤدي بها كل كائن حي أو غير حي مهمته او وظيفته في اتجاه يؤازر كـل اتجاهات المجموعة في تحقيق الصالح العام للكون الذي هـو في الوقت نفسه قوامه كل صالح خاص لأي كائن .. وتلك وحدة ثالثة نضيفها الى ما قدمناه من وحدة التجاذب ووحدة التوافق الكيموي ... ويقتضينـا المقام الاكتفاء بما قدمنا باعتباره نماذج مما سن القرآن للنظر في المحسات ويعنينا الان ان ذلك المنهج يطلب دراسة امرين الاول مفردات الاشيـاء والامر الثاني ما بين الكائنات من علاقات .

وفي الامر الاول يطلب دراسة مما خلق الشيء .. وكيف خلق وكيف بدىء بخلقه .. وطبيعة أطواره ومراحل وجوده ، ومدى حظـه من اتقان الصنع .. واشباع النظر في تلك الدراسة يكشف للعقل اننا بأزاء منصة بحث أو تشريح لذلك الشيء ، نقلبه بها على وجوهه المختلفة لمعرفة كـل ظواهره ودقائقه حتى مدى حظه من الاتقان .. أي أننا بازاء كائن سلب مصنوع لصانع وليس له من أمر نفسه شيء .

* وفي الامر الثاني يطلب رؤية « علاقات كونية » لا محسات .. علاقات كيموية وغير كيموية تنقمع لها الكائنات وتنقاد .. فهل هي علاقات لها صفة الايجاب الذاتي ؟.. انها علاقات غير مستقلـة عن الكائنات او منفصلة عنها انما هي احدى خصائص الكائنـات نفسها ومكوناتها ، فهي سلب من سلب مصرف بقدرة خارجة عنه .. ولا صفة لتلك العلاقة الا انها المظهر الذي يشهد فيه العقل ما اريد لمفردات الكون واجهزته من الائتلاف على وحدة الوظيفة والغاية .. والائتلاف بوحدة القانون الناظم لعقدها ، ووحدة البناء اذ ترد الى عنصر واحد .

البحث الرابع

العقيدة الدينية في زحام القرن العشرين
دلالات العقيدة والمعرفة والعلم
الاصطلاح العلمي للعقيدة والمعرفة والعلم
العلم عند الغربيين او نظرية المعرفة
المعرفة الحدسية
المعرفـة البرهانيـة
المعرفـة الحسيـة
العقيـدة الدينيـة
العوامل المؤثرة في تكوين العقيدة
أدوار العقيدة الالهيـة
فكرة الربوبية عند الانسان
نماذج من ربوبية الامم الماضية
المعتقـدون بالوحـدة
الاديـان وعقيـدة التوحيـد

العقيدة الدينية في زحام القرن العشرين

دلالات العقيدة والمعرفة والعلم

« العقيدة رباط معنوي يربط الانسان بمثل أعلى ، رباطا معقـولا لا تحله أزمة مادية ، ولا اضطهـاد بشري ، لانها عقد روح بحقيقة مـن الحقائق العليا ، وعقد مكتوب بدم القلب ، وأشعة الفكـر بـين الانسان وفكرته » .

والعقيدة عند اللغويين ترد على هذه المعاني :

١) عقد عقدا : الحبل نقيض حلـه ، والبيع أو اليمين أحكمه ، تعاقد القوم تعاهدوا .

٢) اعتقد : المال جمعه . والامر صدقه عقـد عليه قلبه وضميره تديـن بـه .

٣) العقيدة : ما عقد عليه القلب والضمير . مـا يدين به الانسان واعتقده والجمع عقـائد .

٤) المعتقد والاعتقـاد : ما يعتقده في الانسان .

والمعرفة عند اللغويين ترد هي الاخرى على هذه المعاني :

١) عرف الشيء : علمــه .

٢) عرفه الامر : أعلمه ايــاه .

٣) اعترف بالشيء : أقربه على نفسه .

٤) العــرف : الاصطــلاح ، وما استقر في النفوس مــن جهــة شهادات العقــول وتلقته الطباع السليمة بالقبول .

٥) عرف اللسان : ما يفهم من اللفظ بحسب وضعه اللغوي .

٦) عرف الشرع : ما جعله علماء الشرع مبني الاحكام .

٧) (المعرفــة) مصدر : ادراك الشيء على ما هو عليه .

والعلم عند اللغــويين : ــ

١) علم الرجــل : حصلت له حقيقة العلــم .

٢) وعلم الشيء : عرفه وتيقنــه .

٣) وعلم الشيء وبــه : شعر به وأدركه .

٤) وعلم الامــر : اتقنــه .

٥) وأعلمه الامر به : أطلعه عليــه .

٦) (العلــم) مصدر : ادراك الشيء بحقيقته ، واليقــين منــه تعرفــه .

الاصطلاح العلمي للعقيدة والمعرفة والعلم

تتبعنا اللغويين في تعريفاتهم للعقيدة ، ثم للمعرفة ثم للعلم . وكـان الاجدر بنا ان نتحدث أولا عن العلم ، ثم عـن العقيدة ، ثم عن المعرفة ، وبهذا الترتيب ولكن الوضع الاول كان أنسب حيث ان المقصود لنا أولا هو الحديث عن العقيدة في عوامل تكوينها ، وفي خصائصها وفي أثرها في بناء الحضارات وفي عوامل زعزعتها ولكن الحديث عن المعرفة وعن العلم انما جاء تبعا لذلك ولم يكن مقصودا بالذات .

وبما ان الترتيب الطبيعي ، يستلزم الحديث اولا عن العلم ثـم عن المعرفة ثم عن العقيدة التي تعتبر النهاية لهما ، سنوضح لك ما العلم ومـا المعرفة وما العقيـدة في نظر العلمـاء واصطلاحاتهم المختلفة ، مسلميـن أو غربيـين .

العلـم : تحدث كثير من العلماء عـن العلم وأسبـاب حصوله ، والطرق التي بها يحصل ، ويكتسب ، فله عند المناطقة وضع وعند علمـاء الكلام مصطلح وكذلك عند الفقهاء والاصوليين ، من المسلمين وفلاسفتهم، ثم عند علماء المتصوفة وعند العلماء الاوربيين وغيرهم محدثين ومعاصرين. وعنوان الكلام فيه « نظرية المعرفـة » .

١ ــ الفلاسفة المسلمون : يرى الكندي فيلسوف العرب والاسلام: ان العلوم الانسانية ــ رياضيات ومنطق وطبيعة وما بعد الطبيعة واخلاق وسياسة هي ثمرة تحصيل البشر بقواهم وتفكيرهم وتحصيلهم وعلى قدر طاقتهم . وكلها تعتمد على طريق خـاص ، اذ تبدأ من ادراك الجزئيـات

والمحسوسات المادية ، وترتفع شيئا مع التجريد حتى تنفصل عن المـادة انفصالا تاما ، وتدرك اما بالحس فقط ، واما بالحس المقترن مع العقـل واما بالعقل فقط ولذا فتقتضي مـن الانسان أمورا أربعة : هي الطلـب والبحث والاداة والزمان ويقول الكندي : « والعلم الالهي على خـلاف ذلك كله ، أنه العلم الذي اختص به الانبياء والرسل ، وهو بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ، ولا بحيلة مـن الرياضيات ولا بزمان ، بل ارادته جـل وتعالى ، بتطهـير أنفسهـم وانارتها للحـق بتأييـده وتسديده والهامه ورسالاته » .

والعلم الالهي سبيله الالهام والخير ، وأما العلم الانساني فطريقتـه الحس والعقل . لان العلم الالهي يؤلف المجموعة الدينية ، التي تقـابل العلوم الفلسفيـة .

ثم نرى الكندي بعد ذلك يقول : « ان النفس الانسانيـة ، سواء كانت متصلة بالبدن ، أم مقارنة له ، فهي مصدر المعرفة الصحيحة عنـد الانسان ، ذلك ان المعرفة على ضربين : حسية وعقلية ، والاولى تقف عن الظواهر ، ويشارك فيها الانسان الحيوان ، أما الثانية فانهـا تنفذ الـى الحقائق ، وهي خاصة بالانسان فقط بشرط ان يرتفع عن المرتبةالحيوانية. وطريق هذا التسامي عن الحيوانية يكون بالتجرد عن اللذة الحاصلة من كثرة المآكل والمشارب التي تحول دون بلوغ النفس الى المعرفة الصحيحة والتشبه بالباري ، ويكون مع ذلك التجرد النظر الـى حقائق الاشيـاء والبحث فيها ، وعند ذلك يعلم ما يخفيه الناس في نفوسهم ، ويطلع علـى سرائر الخلق أي يكون عنده علم الغيب » ، « كما وقع الكثير من الفلاسفة الطاهرين القدماء » .

« وهاتان الوسيلتان ــ التجرد والنظر والبحث عن الحقائق ــ هما

السبيل الى طهارة النفس ، حيث يقول الكندي ناقلا عن فيثاغورس أو افسفورس « ان النفس اذا كانت وهي مرتبطة بالبدن تاركة للشهوات ، متطهرة من الادناس ، كثيرة البحث والنظر في معرفـة حقائق الاشيـاء ، انصقلت صقالة ظاهرة ، وحينئذ يظهر فيها صور الاشياء كلها ومعرفتهـا ، كما تظهر صور خيالات الاشياء المحسوسة ، في المرآة اذا كانت صقيلة ».

وهنا يتعرض الكندي الى قضية أخرى ، وهي هل اكتساب الانسان لعلمه يتم عن طريق المشاهدة والتجربة ، ثم ينتقل منها الى تكوين القوانين الكلية التي تنطبق على الجزئيات ، أم ان هذه المعلومات تنكشف أو ينكشف له بعضها عن العلم الالهي الازلي ، وبهذا فيحتاج الى الفيض الرباني فـي المعرفة ـ بطريقة الصقل أو طريقة المرآة ـ فالنفس اذا انصقلت انعكست عليها الصور واذا صدئت لم تظهر فيها بل كانت على غاية من الجهل .

ويقول الدكتور الاهواني : « وقد أخذ بعض المتأخرين ، وبخاصة من الصوفية هذا التشبيه بنصه ، نذكر منهم الغزالي « الذي تتردد فـي مؤلفاته المتأخرة (كتاب كيمياء السعادة) حيث يقول فيه : ان القلـب (النفس) مثل المرآة وكذلك اللوح المحفوظ ففيه صورة كل موجود ، واذا تقابلت المرآة بأخرى حلت صور ما في احداها في الاخرى » .

ثم يرجع الكندي ليضم الى طرق العلم طريقا آخر هو طريق الرؤيا المنامية (الاحلام) ويقول انها ترجع الى قوة من قوى النفس متوسطـة بين الحس والعقل وتسمى بالصورة » ، « فنطاسيا » باليونانية ، والفرق بينها وبين الحس ان الحس ينال صور محسوسياته في مادة أما المصورة فتدرك الاشياء المحسوسة بلا مادة وفي غيبة المحسوسات وهي تعمل في اليقظة وفي النوم .

وللرؤيا مباحث تناولها القدماء والمحدثون ولا تزال آراؤهم فروضا لم ترتفع الى مرتبة القوانين •

٢ ــ المتكلمون : يقولون : ان العلم من قبيل المشترك اللفظي ، ويطلق على معان عدة ، ولأجل ذلك اختلفت مفهوماته •

أ ــ فيطلق العلم ويراد منه ــ ادراك العقل مطلقا ــ ولهذا يعرف « بأنه وصول النفس الى المعنى سواء كان الوصول حقيقيا أو غير حقيقي، وسواء كان المتوصل اليه حكما أو غير حكم ؛ ولذا فالعلم هنا يشمل اليقين والظن والشك والوهم والتصور الحقيقي وغير الحقيقي والاعتقـــاد الفاسد والتقليد •

ب ــ ويطلق على التصديق اليقيني فقط وعرفوه بأنه « الحكـــم الجازم المطابق لموجب من ضرورة أو برهان » وعلى ذلـــك فلا يدخـــل التصور لانه ليس بحكم ويخرج الظن والشك والوهم لانها ليست يقينية (غير جازمة) ويخرج الاعتقاد الفاسد لانه غير مطابق ويخرج التقليد للغير لان الاعتقاد فيه لم يكن لموجب من برهان أو ضرورة •

جـ ــ ويطلق ويراد منه « التصور المطابق والتصديق اليقيني » وبهذا الاعتبار عرفوه بتعريفين : احدهما اللاشعوري : وهو « صفـــة توجـــب لمحلها تمييزا بين المعاني لا يحتمل النقيض » فيخرج به الظن والشك والوهم والاعتقاد الفاسد والتقليد والتصور غير المطابق •

والثاني : لأبي منصور الماتريدي : وهو صفة يتجلى بها المذكور لمن قامت به وكذلك لا يشمل الظن والشك والوهم والاعتقاد الفاسد المقلـــد والتصور غير المطابق •

واختار الجمهور من علماء الكلام ان العلم هنا هو العلم الحادث، لأنه مفسر بالادراك الذي هو وصول النفس الى المعنى الذي نريده ، وهو يستدعي الانطباع ، وهو من خواص الاجسام واذن فلا يراد بعد العلم القديم لأنه علم الله جلا وعلا •

وقد اقتصر علماء الكلام على بيان العلم الذي يفيدهم في اثبات العقائد وهو العلم التصديقي بقسميه الضروري والنظري •

طريق العلم : رسم علماء الكلام طريق الوصول الى العلم المراد لهم ، فقالوا « انه النظر » والنظر وان اختلفت عبارات المتكلمين فيه « ترتيب امور معلوماته ليتوصل به الى المجهول الذي يراد به » وبهذا فالنظر عند جمهورهم يفيد العلم في الالهيات وغيرها بدون احتياج الى معلم (كما عند الاسماعيلية الغلاة من الشيعة) •

حقيقة بعد ان اتفق جمهور المتكلمين على ان النظر يفيد العلم مطلقا اختلفوا في كيفية افادته للعلم ، حيث انهم مرة يقولون انه متى تحقق النظر الصحيح اوجد الله العلم بالمطلوب — سواء كان ذلك بطريق جرى العادة أو بطريق التلازم الفعلي أو بطريق التولد او بطريق ان النظر بعد الذهن الفيضان العلم من عند واهب الصور (العقل الفياض) كما تقول الفلاسفة ، أو (اللوح المحفوظ) كما يعبر عنه في لسان الشرع — فهو يؤدي الى العلم المطلوب •

العلم عند الغربيين او نظرية المعرفة

يعتبر مؤرخو الفلسفة ان كتاب « مقالة في العقل البشري » لمؤلفه « جون لوك » ١٦٣٢ — ١٧٠٤ م الفيلسوف الانجليزي : بمثابة أول

محاولة منظمة ، لفهم المعرفة البشرية ، وتحليلها للفكر الانساني وعملياتـه وطبيعته وان سبقه بذلك كثيرون وأهمهم « ديكارت » في نظرية « فطرية المعرفة » فيقول « جون لوك » : « ان كل فكرة توجد في العقل انما يكون اساسها راجعا الى الحواس » ومن تعطلت حواسه أو احداهما فلا يمكن ان تتكون في ذهنه اية فكرة عن محسوسها « وبذلك فلن يكون هنـاك شيء في عقل الانسان ما لم يكن من قبل في حواسه اذ ان العقل عبارة عن صفحة بيضاء ليس عليها اي انطباع أو أي شيء سابـق علـى خبـرة الحواس » .

وقد فرق بين الاشياء الخارجة عن الانسان (أي المحسوسات) وبين الظواهر كما تقع في ادراك الانسان (أي الادراك الحسي عنها بمعنى انه فرق بين صفات في الاشياء تكون جزءا من طبيعتها (أي اولية) وبين صفات يحسها الانسان وليست جزءا من طبيعة الاشياء (أي عرضية او ثانوية) .

والانسان يتميز عن غيره من الحيوانات بأنه يدرك معنى هــذه الاحساسات وذلك عن طريق عقله ، الذي هو عنصر أولي بسيط التكوين، لا يتجزأ ولا يتحلل ابدا ولانه صوت الله في الانسان » .

فالعقل عنده هو الذي يهدي الانسان اذا ما استوحاه ، وأنصت اليه في املاء عقيدته ، ولا طريق سواه ، فمصدر المعرفة لا يمكن ان يخـرج عن الاحساس والتأمل الذاتي ، وهو الطبيعـة الواعية التي تتساوى فيها كل الناس ، وان كل فكرة تتولد في الذهن انما ترتد الى مصدر واحد فقط هو التجربة او الخبرة وليس الحدس العقلي كما يقول ديكارت » .

« فالانسان يولد وعقله يشبه الصفحة البيضاء الخالية من اية معان اولية او افكار فطرية ، وعندما يبدأ في الاحساس تنتقش عليه الانطباعات الحسية المختلفة ويبدأ في تكوين افكار عنها ، فالاحساس سابق علـى التفكير ، ولا يوجد شيء في العقل ، ما لم يكن قبل في الحس ، والانطباعات

الحسية ما هي الا مجرد تلقي لكل ما يكتب عليها فقط وهي ناحية سلبية، ولكن للعقل وظيفة اخرى ايجابية يقوم فيها بربط هذه الانطباعات الحسية، لتكوين صورة ذهنية او تكوين فكرة عن المدركات الحسية .

فالاحساس والتفكير عند « لوك » تعتمد عليهما المعرفة . ولذا فالتجربة أو الخبرة عنده قسمان : تجربة حسية ، وتقوم على تلقي الانطباعات الحسية على العقل وتجربة باطنية ، وتقوم على ربط الاحساسات وتكوين الافكار عنها ، ولم يكن فرق بين الانطباعات والافكار الا في الدرجة والقوة والوضوح . فان الافكار ترتد في اصلها الى الانطباعات الحسية .

لأن الاحساس هو الاساس الاول لتكوين الافكار ــ البسيطة والمركبة ــ ثم بعد يكملها العقل بوظيفته الايجابية فالمعرفة عنده ادراك لما بين أي فكرتين من الاتفاق والاختلاف .

ويقول لا تكون هناك أية معرفة فطرية مطبوعة على العقل منذ القدم ولا مبادىء اولية ضرورية يسلم بصحتها جميع الناس مثل قانون الذاتية او مبدأ العلمية، اذ العقل صفحة بيضاء خالية من اية معلومات أولية، وكل ما يكون فيه بعد ذلك انما يكون صادراً عن الحس والتجربة الحسية .

ثم نرى « جون لوك » لم يترك نظرية المعرفة على ما أجملناه سابقا، بل تحدث بوضوح عن الافكار ــ معنى الفكر وانواع الفكر وتكوينه وعن الصفات الحسية وأقسامها وعن الادراك الحسي وعن القدرة المميزة والمقارنة والربط واستخدام الاسماء والتجريد ثم يتكلم عن الافكار المركبة بأنواعها وعلاقتها ، وعن الفكر والواقع ومدى مطابقته للواقع حتى تكون

الافكار حقيقية واقعية أو وهمية أو افكار كاملة او ناقصة ، أو صادقة او كاذبة (باطلة) .

والان نتكلم باختصار عن رأيه في الفكرة : حيث يعرفها بأنها « موضوع العقل أثناء التفكير ، أو هي كل ما يمكن ان يقوم في ذهن الانسان اثناء عملية التفكير ، بمعنى انها مادته اذ ان العقل لا يمكنه ان يقوم بوظائفه او عملياته الفكرية بدون وجود هذه الافكار التي بقدر ما هي نتيجة عنه ، هي أساس لقيامه بوظيفته ـ فهي اساس لقيام العقل بوظيفته من حيث كونها افكارا بسيطة وهي نتيجة عنه من حيث كونها أفكارا مركبة .

وأما حديثه عن الفكر والواقع فيقول فيه :

١ ـ « ان الافكار الحقيقية أو الواقعية هي تلك التي تتكون في الذهن على اساس من الواقع ، أو بمعنى آخر تكون متمشية مع الوجود الحقيقي للاشياء أو مع نماذجها الاصلية .

٢ ـ بينما الافكار الوهمية هي في نظره تلك الافكار التي ليس لها ما يطابقها في الواقع ، وعلى ذلك فهي لا تستمد اساس وجودها من الطبيعة ، اذ يقوم الخيال بتركيبها وتكوينها بغض النظر عما اذا كان هناك في الواقع ما تصدق عليه أولا .

٣ ـ الافكار الكاملة والناقصة وهما قسمان للافكار الحقيقية .
فالكاملة (المطابقة) هي التي تمثل نماذجها التي افترض العقل انه كون فكرة عنها تمثيلا كاملا بحيث تكون دالة عليها مقابلة لها .

وأما الناقصة ، وهي التي لا تمثل نماذجها تمثيلا كاملا بل تدل

عليها دلالة جزئية فقط ويقول « جون لوك » ان الافكار البسيطة كلها تعتبر أفكارا كاملة مطابقة لانها ناتجة عن تأثير القوى الموجودة في الاشياء عند الانسان ، وبالتالي تتفق مع حقيقة الاشياء نفسها ولذا فهي أفكار كاملة وحقيقية .

وأما الافكار الناقصة غير الكاملة ، فتكون في أفكارنا المركبة عن الجوهر ، وهكذا اخذ يشرح وجهة نظره في ذلك .

٤ ـ الافكار الصادقة والافكار الكاذبة :

يرى « جون لوك » ان افكارنا في بعض الاحيان توصف بأنها صادقة أو كاذبة وذلك حينما تشير الفكرة الى ما هو خارج العقل او تدل عليه ، فان وجد التماثل بين الفكرة وما هو خارج العقل كانت الفكرة صادقة ، وان لم يوجد التماثل فتكون الفكرة كاذبة .

ولما كانت الافكار البسيطة تتكون كلها في الذهن بفعل الاحساس فتعتبر أفكاراً صادقة ، لان الفكرة في الذهن تمثل ما هو موجود في الواقع ، ولذا فهي متماثلة فتكون صادقة .

والافكار المركبة عن الجوهر ، فيقول : انها لا يمكن ان تكون صادقة الا بشروط خاصة .

ومما يمكن ملاحظته على تحليل « لوك » لمعنى الفكر وأنواعه انه استعمل معنى فكرة في مواضع مختلفة من فلسفته ، فتارة يستعملها لمجرد رمز يشير به الى موضوع الفهم الانساني اثناء عملية التفكير ، وأخرى يستعملها فيما يراد من كلمة وهم وخاطر ــ ونوع ــ والتأمل الذاتي كالادراك أو التفكير والارادة والرغبة وبمعنى الصورة الذهنية التي ترسم

في ذهن الانسان ـ وبمعنى القصور العقلي أو المعنى الكلي مثل أغلب افكارنا الكلية .

ونخلص من كلام « جون لوك » عن المعرفة بأنها « الافكار الموجودة في ذهن الانسان اساس ان الموضوعات الحسية تؤثر في الذهن فتتكون فيه الافكار البسيطة نتيجة للانطباعات الحسية ومنها يدرك الانسان أوجه التشابه والارتباط ، او التناقض والاختلاف ، بين الافكار الموجودة في الذهن وعند تمام هذا الادراك تكون المعرفة اما اذا لم يتم الادراك فلا يكون الا مجرد الخيال والظن والاعتقاد الذي لم يصل الى درجةالمعرفة.

ويشترط لتمام ادراك اوجه التشابه اعتبارات خاصة ، منها :

أ ـ ادراك الذاتية والتباين : وهذا الادراك مبدأ ضروري مطلق ، ويعتبر اول عملية يقوم بها العقل ، وهذه العملية تتم لاول وهلة بواسطة القوى الخاصة بالادراك والفهم ولا تحتاج الى تعلم او اتقان . وذلك مثل « ١ = ١ » ولا يساوي « ١ » « صفرا » .

ب ـ ادراك الاضافة : وهو ادراك العلاقة بين أي فكرتين من الافكار وهذا ضروري جدا حيث لا يمكن قيام اية معرفة ايجابية ما لم ندرك التشابه والاختلاف بين الفكرتين .

ج ـ التأني في وجود الروابط الضرورية : حتى ندرك التلازم بين الافكار بالنسبة لموضوع معين حتى تتم العملية العقلية التي تعتمد على ادراك اوجه التشابه او الاختلاف بين الافكار .

د ـ ادراك علاقة الافكار بالوجود الواقعي او الحقيقي : ويعني

بذلك ادراك الفكرة والتلازم في الوجود بين الافكار بالنسبة لموضوع واحد معين او جوهر معين •

ويرى « جون لوك » ان معرفتنا بأن الله موجود ، تعتمد على هذا النوع الاخير وهو ادراك مطابقة الفكر للوجود الحقيقي •

ويعقب على ذلك الادراك لاوجه التشابه ببيان انواع المعرفةالثلاثة•

« المعرفة الحدسية »

فاذا ما تم ادراك التشابه والاختلاف بين أية فكرتين مباشرة سميت المعرفة « المعرفة الحدسية » حيث لم يعتمد العقل على اية فكرة او افكار اخرى متوسطة ، وسميت حدسية لانها لا تحتاج الى برهان ولا الى عناء ومشقة فالحق يدرك فيها ماثلا امام العقل كمثول الضوء امام العين حين تبصره ، وهذا النوع يعتبره « لوك » اوضح انواع المعرفة واكثرها يقينا ويمثل له ادراك ان اللون الابيض غير اللون الاخضر وان الدائرة تختلف عن المثلث وهكذا •

فالمعرفة الحدسية عنده تعتمد على التجربة الحسية ، مخالفا «ديكارت» في معرفته الحدسية التي لا تعتمد الا على العقل وما يراه العقل بوضوح وتميز بعيدا عن التجربة الحسية •

« المعرفة البرهانية »

وهي الحالة التي لا يتم فيها ادراك اوجه التشابه او الاختلاف بين الفكرتين مباشرة بل يحتاج العقل فيهذه العملية الى توسط فكرة او أفكار اخرى تتم بها عملية المعرفة التي تسمى عنه « بالتعقل » ويمكن التمثيل لها

بأننا لو حكم العقل بأن العالم حادث فلا يتم له هذا الحكم الا بواسطة هي فكرة اخرى وهو قولنا لانه متغير حيث يتم بها الارتباط بين فكرتين العالم والحادث ، ويسميها بالبرهانية ، لان العقل يقع فيها باستخدام البرهان اثناء عملية التعقل للكشف عما بين الافكار من تشابه او اختلاف .

وهذه المعرفة عند « لوك » أدنى وأكثر صعوبة بل وتترك فرصته للشك بخلاف المعرفة الحدسية فانها اوضح واكثر يقينا ولا تحتاج الى مجهود عقلي ، بل لا تترك امام العقل اي مجال للشك ، لانها تعتمد على الادراك المباشر لما بين الافكار من تشابه او اختلاف وزيادة على ذلك فان المعرفة البرهانية تعتمد على المعرفة الحدسية .

ومع ان المعرفة الحدسية كذلك ، فانها لا تعتبر اساسا للعلوم ، ولا تساعد على تقدمها ، ولكن البرهانية ، حينما يدخل الشك في صحتها ، يساعد على تقدم العلوم وتطورها .

« المعرفة الحسية »

وهي النوع الثالث من انواع المعرفة ويعتمد اساسا على ما هو موجود في الواقع الخارجي بدون تدخل من العقل ، بعكس المعرفة الحدسية والبرهانية ، وهي عند « جون لوك » اكثر يقينا ووضوحا منهما .

وينتهي « جون لوك » في ابحاثه برأيه ان معرفة الانسان بالوجود تنقسم الى ثلاثة اقسام :

١ ــ المعرفة بوجود الله ، وتكون بالبرهان .
٢ ــ المعرفة بالوجود الذاتي وتكون بالحدس .
٣ ــ المعرفة ببقية الاشياء الحسية الاخرى ، وتكون بالحس .
والذي يعنينا من هذه المعرفة التي تتعلق بوجود الله في نظره .

المعرفة بوجود الله :

فيقول : « ان ادراكنا لفكرة الله فمعرفتنا بها تعتبر معرفــة يقينيــة بالرغم من انها لا ترجع الى أي انطباعات فطرية في العقل ، لان الله وهبنا من القدرات العقلية ما يؤهلنا لادراكه ادراكا واضحا ما دام فينا احساس وادراك وعقل اذ كلها شواهد فينا تؤكد وجوده ، وعلى ذلك فليس لنــا ان نشكو جهلنا بوجود الله طالما كنا مزودين بالوسائل التي تساعدنا على اكتشافه ومعرفته » .

ويذكر البرهان على وجود الله فيقول : « انه لا يمكن أن يكــون هناك شيء من لا شيء وما دامت (أنا) موجودا ـ كشيء وجود حقيقي ـ اذن لا بد ـ ان يكون هناك من اوجدني وحيث ان العدم لا يمكنه ان ينتج او يخلق اي وجود واقعي ... اذن لا بد من وجود شيء منــذ الأزل ، سابق في وجوده على وجود كل ما هو قديم وعلة له ، لان كل ما هو ليس بأزلي له بداية ، وكل ما له بداية ينتج عن غيره ، وعلى ذلك فالله قديم منذ الازل بمعنىانه بداية أو اساس لكل ما هو موجود ، وهو خالق هذا الوجود » .

ويمكننا أن نقول : ان فكرة « جون لوك » بأن للانسان قدرة على ادراك وجود الله اذا ما استعملناها ، عرفنا بها وجوده ، وهذه الفكــرة كانت موجودة عند المعتزلة حيث انهم يرون « ان معرفة الله واجبة بالعقل ويؤيده فيها الشرع » فالانسان مسؤول عن اعتقاده وايمانه بوجود الله ولو لم توجد الشرائع والرسل ، حيث انه عاقل ومدرك .

وأيضا نراه يسير بخطوات ، مقتضيا فيها أثــر « ديكــارت » وان

سبقهما بمثل هذا النظام في الاستدلال المسلمون فلاسفة ومتكلمون .

واخيرا وليس آخرا نقول ان « نظرية المعرفة » تناولها كثير من الفلاسفة والعلماء في عصورهم المختلفة وعلى اسس من مذاهبهم الفلسفية المتباينة ، يطول بنا ذكرها الان حيث لم يكن من مقصودنا ، الكلام عنها بتطويل ، او البحث الخاص بها في جميع نواحيها .

ونعود الان للحديث عن اصطلاحات العلماء في معنى المعرفة الذي وعدنا بالكلام عنه فيما سبق .

المعرفة

يظهر لنا مما سبق في بيان معنى العلم عند علماء الغرب ان الامر لا يكاد يحتاج الى تفرقة بين مسمى علم ومعنى معرفة . فقد ساروا في بياناتهم على انها واحدة بمعنى ان الحديث في نواحي العلم نراه اتجه الى بيان انواع العلم والمعارف ، ولذا كانت ابحاثهم فيها توسم باسم « نظرية المعرفة » يتكلمون فيها عن اسباب العلم والمعرفة وعن انواعها وهكذا .

وكما رأينا في اتجاهات « جون لوك » في العلم الى ان قسمه الى معارف حدسية وبرهانية ، وحسية . وقد تدرج من المعرفة البرهانية ، الى معرفة بوجود الله تعالى .

ولكن حينما ندخل رحاب علماء الاسلام وبالاخص المتكلمين فنرى لهم موقفا آخر يكاد يكون مصطلحا خاصا بهم ، ويكاد يكون حقيقة عرفية ، في معنى المعرفة عندهم وان كان التحقيق على ان المعرفة والعلم مترادفان في ان كلا منهما هنا : « وهو الجزم المطابق للواقع عن دليل » .

فنجد الراغب يقول : « والعلم ادراك الشيء بحقيقته ، وشيخ الاسلام: « ادراك الشيء على ما هو به وقد يراد به الملكة التي يقتدر بها على ادراكات جزئية وان كان من اطلاقات العلم ما يراد منه « القواعد المدونة» .

ونرى في التعريفين الاول والثاني معنى الادراك الحقيقي أي المطابق للواقع ، ولا يكون مطابقا للواقع مطابقة حقيقية الا اذا اظهره وأكده الدليل بهذا يرجع تعريف العلم الى المراد من المعرفة ، غاية الامر ان المعرفة المصطلح عليها ، تكون مضافة الى كل عقيدة من عقائد الاسلام ، التي تنطوي تحت معرفة الله تعالى : الواجبة على كل مكلف أن يعرف ما وجب ما استحال وما جاز في خلق الله تعالى وسائر أحكام الالوهية ، وكذلك للرسل (ص) .

واننا لنلمح من كلام (ابن خلدون) في هذا المقام ما يكاد يقربنا او يقر لنا بأن هناك ما يجعل العلم والمعرفة غير مترادفين حيث يقول : « .. ثم ان المعتبر في هذا التوحيدليس هو الايمان فقط ، الذي هو تصديق حكمي فان ذلك من حديث النفس ، وانما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس .

كما ان المطلوب من الاعمال والعبادات ايضا حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ القلب عن شواغل ما سوى المعبود ، حتى ينقلب السالك ربانيا والفرق بين الحال والعلم في العقائد ، فرق ما بين القول والاتصاف» .

وكذا علمك بالتوحيد مع اتصافك به ، فالعلم الحاصل عن الاتصاف ضرورة ، وهو اوثق مبنى من العلم الحاصل قبل الاتصاف ، وليس الاتصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل ويتكرر مرارا غير منحصرة ،

فترسخ الملكة ويحصل الاتصاف والتحقيق ويجيء العلم الثاني النافع في الآخرة ، فان العلم الاول المجرد عن الاتصاف قليل الجدوى والنفع ، وهذا علم اكثر النظار والمطلوب انما هو العلم الحالي الناشيء عن العادة » .

« وأعلم ان الكمال عند الشارع في كلما كلف به ، انما هو في هذا ، فما طلب اعتقاده في الكمال فيه العلم الثاني الحاصل عن الاتصاف ، وما طلب عمله من العبادات فالكمال فيها في حصول الاتصاف والتحقيق بها ... » .

ويقول : وان المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في النفس ، يحصل عنها علم اضطراري للنفس ، هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية ، وهو الذي يحصل به السعادة وان ذلك سواء في التكاليف القلبية والبدنية ، ويتفهم منه الايمان الذي هو اصل التكاليف وينبوعها ، هو بهذا المثابة ذو مراتب ، أولها التصديق القلبي الموافق للسان وأعلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي ، وما يتبعه من العمل ، مسؤولية على القلب فيستتبع الجوارح ، وتندرج في طاعتها جميع التصرفات ، حتى تنخرط الافعال كلها في طاعة ذلك التصديق الايماني وهذا ارفع مراتب الايمان ، وهو الايمان الكامل الذي لا يعارف المؤمن منه صغيرة ولا كبيرة ، اذا حصول الملكة ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين .

وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، ومعناه ان ملكةالايمان اذا استقرت عسر على النفس مخالفتها ، شأن الملكات اذا استقرت فانها تحصل بمثابة الجبلة والفطرة ، وهذه هي المرتبة العالية من الايمان ، وهي في المرتبة الثانية من العصمة ، لان العصمة واجبة للانبياء وجوبا سابقا ،

وهذه حاصلة للمؤمنين حصولا تابعا لاعمالهم وتصديقهم ، وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الايمان الذي يراد به الايمان الكامل الذي هو فعلي •

وأما التصديق الذي هو أول مراتب الايمان ، فلا تفاوت فيه ، لانه موجود في جميع مراتب الايمان ، على أي القولين في ذلك ، لانه اقل ما يطلق عليه اسم الايمان ، وهو المخلص من عهدة الكفر ، والفيصل بين الكافر والمسلم ، فلا يجزىء في الايمان اقل منه •

فهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت ، وانما التفاوت في الحال الحاصلة عن الاعمال •

والشرع عين لنا الايمان في مرتبته الاولى ، بأنه التصديق بأمور مخصوصة كلفنا بها وان نصدقها بقلوبنا ونعتمدها في انفسنا مع الاقرار بألسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين ، وهي التي يشير اليها الحديث: في قوله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الايمان •

فقال : « ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » وهي محل ابحاث علماء الكلام في علم العقائد •

وسيأتي لذلك تفصيل واف بعد أن ننتهي من الحديث عن العقيدة ، وأسبابها وكيفية بحثها لدى العلماء والفلاسفة مسلمين وغربيين وبالأخص عند الاسلام •

وحينما نتكلم عن العقيدة ، نرجع قليلا الى ما ذكره علماء اللغة من قولهم اعتقد الامر صدقة ، وعقد عليه قلبه وضميره وتدين به والعقيدة ما عقد عليه القلب والضمير ، وما تدين به الانسان واعتقده •

والمعتقد والاعتقاد : ما يعتقده الانسان •

واذا كانت العقيدة هي ما عقد عليه القلب والضمير فنرى من ذلـك أنها حصول كيفيات نفسانية في القلب ، وهذا الحصول قد يكون بأعيانها، وهو اتصاف بها ، وقد يكون بصورها وهو تصور لها ، وبهذا يكون بين المعتقد وبين النفس والقلب رباط قوي لا تحله أزمة مادية ، ولا اضطهاد بشري، ويكون من الصعب جدا أن يبتعد الانسان عن فكرته التي اعتقدها، ودان بها •

وكلما كانت العقيدة ثابتة وصالحة ، كانت عقيدة صحيحة ، وكـل عقيدة تبعد عن الواقع لا تصلح الا أن تكون احلام يقظة ارجوانية •

والعقيدة في الانسان الاول كحياته الاولى ــ وهي ترقى معه كرقيـه في العلوم والصناعات الا ان محاولات الانسان في سبيل تدينه ، أشـد وأطول من محاولاته في سبيل طلبه للعلوم والصناعات ، ويقول المرحـوم العقاد : « لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبا (وأطول طريقـا) وأنها اكبر من ان تتجلى للناس كاملة في عصر واحد وان النـاس يستعـدون لعرفانها عصرا بعد عصر وطورا بعد طور ، وأسلوبا بعد أسلوب » •

ولما كانت العقائد تختلف وتتباين ، بحيث يعيش بعضهـا افقيا ، والبعض الاخر يستمر طوليا ، وفريق منها ذو سطح واسع . ومجموعـة اخرى بعيدة القرار ، عميقة الجذور فقد اصطفيت في جملتها بصبغتين ، احداهما ذات صبغة دينية ، والاخرى فلسفية اجتماعية .

أولا : العقائد الدينية :

« اتفق علماء المقابلة بين الاديان على تأصل العقيدة الدينية في طبائع بني الانسان من اقدم ازمنة التاريخ » وان اختلفوا في تحديد أصلها ، والباعث عليها وان كان لا بد منه .

ويتساءل العلماء عن الباعث في الطبيعة الانسانيـة الى طاب العقيدة هل هو باعث واحد ، أو أكثر ؟ وهل هو ثابت على حالة واحدة أو يتجدد بتجدد الاحوال والاطوار والاجيال ؟ . نظفر بالاجابة ، حين نتكلم عن نشأة التدين :

في الطبع الانساني استعداد للعقيدة ، وأيا كان نوعها من الرشـد والضلال فهذه الملكة توجد عنده العقيدة ، ولا تتوقف صحة الملكة على صحة موضوع العقيدة وكما يمثل لذلك الاستاذ العقاد بقوله : « ففـي الطبع الانساني جوع الى الاعتقاد كجوع المعدة الى الطعام ، أو ان الروح تجوع كما يجوع الجسد ، فلا يتوقف طلب الجسد للطعام على جـودة الغذاء ، ولا على حلاوة المذاق ، بل يتوقف على شعور الغريزة بالحاجـة اليـه .

ومن الحق أن نقول : ان الحاسة الدينية قد تنكر المعتقد لرداءته أو سخف موضوعه كما تنكر المعدة في الجوف بعض المأكولات لرداءتها وسوء تغذيتها وكل ذلك راجع الى قوة الروح أو الجسد .

ولما كانت الروح بعيدة الغور في طبيعة الانسان ، فانه يجب عليه ان يؤمن ليستقر في وسط هذه العوالم ، فتخلف الانسان عن الايمان شذوذ يناقض طبيعة تكوينه .

١ ـ واذا ما رجعنا الى الاصول الاولى للعقيدة ، نجد علماء الاديان يقولون « ان الانسان الاول آمن بكثير من الاساطير والضلالات، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، وبين أمم الحضارة العريقة ، فكانت هذه الاساطير أصل التدين بين الهمج ، لان العقائد الهمجية قد تلبست بالاساطير في جميع القبائل الفطرية فالعلاقة بين العقيدة والاسطورة قائمة، وان لم يكن التطابق بينهما في كل شيء وفي كل منهما خاصة ، لان عنصر العقيدة قد يزيد بما لم يوجد في عنصر الاسطورة كالالزام الخلقي ، والشعور الادبي بالطاعة والولاء ، والامل في المعونة والرحمة من جانب الرب المعبودي » .

ومن الاساطير ما لا يرجع الى ملكة الايمان والاعتقاد ، كالاساطير الوصفية الرمزية والمشابهة الفنية ، التي طبع عليها الخيال ، فهي ترجع الى ملكة التجسم والتصوير .

فقد يسمع الانسان الاسطورة ولا يتدين بها ، وقد يتدين بالعقيدة وهي لا تكون امامه اسطورة ، فليست كل اسطورة عقيدة ، وان كانت كل عقيدة في الجاهلية الاولى قد تلبست ببعض الاساطير .

٢ ـ « ويرى « تايلور » ان ملكة الاستيحاء هي أصل الاعتقاد

بالارباب لانه يعتقد ان الانسان كان كالطفل في تخيله للاشياء ، وتمثله لها في صور الأحياء فالنجوم أرباب حية تشعر وتسمح وتطلب ما يطلبه الحي من غذاء ومتاع ، وكذلك الرياح والسحب والينابيع والعوارض الطبيعية على اختلافها ، فلا جرم يشعر الهمجي الاول بما حوله من هذه القوى الحية شعور الرهبة والرغبة ، ويحتاج الى استرضائها بالصلاة والدعاء .

٣ ـ « ويرى « سبنسر » ان الانسان الاول كان يؤمن بحياة الارباب لأن عبادة الاسلاف هي اقدم العبادات ، وكان يرى الاطياف في المنام فيحسب انها باقية ترجى وتخشى وأنها تتقاضاه فروضا لها عليه ، كفروض الآباء على الابناء .

٤ ـ ويرجح علماء آخرون ان « السحر » هو اصل العبادة وأصل الشعائر الدينية .

٥ ـ ويرى كثيرون من ناقدي الاديان : ان الانسان وجد نفسه ضعيفا بين مظاهر الكون العديدة ، وما تفعله القوى الطبيعية ، وكذلك بعض الاحياء ، فبحث عن سند له يبتدعه ابتداعا ، ليشعر بالطمأنينة على نفسه ، ويهدأ بالاستقرار فتوجه الى ذلك السند بالصلوات والدعاء له في شدته وبلواه .

ولكن تعليل اصل العقيدة والعبادة بالسحر وبضعف الانسان ، أمر غير ظاهر الصحة ، لان طبيعة السحر غير طبيعة العبادة في اساسها ، حيث يعتمد السحر على الامور الخبيثة الدنسة ، اما العبادة فهي توسل الى الخير ورجاء في كرم المعبود .

وأما ضعف الانسان فلا يعلل العقيدة كل التعليل ، فقد كان الانبياء

والدعاة الى الاديان ، أقوياء من ذوي البأس الشديد ، والخلق المتين فليس معدن « الايمان » من معدن الضعف في الانسان وليس الانسان المعتقد هو الانسان الواهي الهزيل ، بل الأصح بالتقرير والتحقيق ان العقيدة تعظم في الانسان على قدر احساسه بعظمة الكون ، وعظمة أسراره وخفاياه ..

« ومن هنا تكون الحاسة الدينية ، مجاوبة صحيحة للوجود العظيم الذي يحيط بالانسان » .

ويرى الدكتور محمد دراز « انه لما اكتشفت العوائد والعقائد والاساطير المختلفة تبين من مقارنتها أن « فكرة التدين » فكرة مشاعة ، ولم تتخل عنها أمة من الامم في القديم والحديث رغم تفاوتهم في مدارج الرقي ، ودركات الهمجية ، وكانت تعبر عن نزعة اصيلة مشتركة بين الناس ، فهي غريزة كامنة في طبيعة النفس الانسانية ، كغريزة بقاء النوع .

١ ـ فيقول معجم « لاروس » للقرن العشرين : « ان الغريزة الدينية مشتركة بين كل الاجناس البشرية ، حتى أشدها همجية ، وأقربها الى الحياة الحيوانية ، وان الاهتمام بالمعنى الالهي وبما فوق الطبيعة هو احدى النزعات العالمية الخالدة للانسانية وان هذه الغريزة الدينية لا تختفي بل لا تضعف ولا تذبل ، الا في فترات الاسراف في الحضارة وعند عدد قليل جدا من الافراد » .

٢ ـ ويقول « هنري برجسون « : المتوفي سنة ١٩٤١ « لقد وجدت جماعات انسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

ثانيا : الفلسفة الاجتماعية :

١ ـ أما اذا رجعنا الى العقيدة وقلنا انها « ظاهرة اجتماعية » يتلقاها

الفرد من الجماعة ، فليس الضعف اذن بالعامل الملح في تكوين الاعتقاد ، وذلك قريب من رأي « فرويد » ومن تبعه ، حيث يردون العقيدة الدينية الى شعور الخوف في وسط العناصر الطبيعية ، ويقول « ان ديانات بني الانسان جميعها ينبغي أن تحسب في عداد الاوهام الجماعية التي من هذا القبيل ... » .

٢ ــ ويرى الفيلسوف الفرنسي « هنري برجسون » ان العقيدة الدينية ترجع الى مصدرين :

١ ــ احدهما اجتماعي لفائدة المجتمع او فائدة النوع كله .

٢ ــ وثانيهما فردي يمتاز به آحاد من ذوي البصيرة والعبقرية الموهوبة .

« فالحاسة الدينية الاجتماعية هي « حيلة نوعية » يلجأ اليها خيال النوع الانساني لكبح الاثرة الفردية ، واقناع الانسان بنسيان مصالحه ، في سبيل المصالح الكبرى التي تتعلق بها : حياة النوع في جميع الاجيال» .

« أما الحاسة الدينية في الفرد الممتاز ، فهي الالهام أو الكشف الذي يصل بينه وبين قوة الخلق او دفعة الحياة ، وقد تطورت دفعة الحياة هذه في ذهن الفيلسوف حتى اصبحت في كتبه الاخيرة « ذاتا الهية تغير ولا تتغير » .

٣ ــ ويرى « ماكس موللر » : « ان البصيرة هبة عريقة في الانسان، وقد تدين منذ أوائل عهده لانه أحس بروعة المجهول وجلال الأبد الذي ليس له انتهاء ، وانه مثل لهذه الروعة بالشمس التي تملأ الفضاء بالضياء ، فهي محور الاساطير والعقائد .

وأخيرا يقول العقاد : « وجملة ما نفهمه من تعليل العقيدة الدينية، أو تعليل نشأتها الاولى ، أن مسألة العقيدة اكبر من ان يحصرها تعليل واحد ، وانها قد تتسع لجميع تلك التعليلات معا ، ولا تزال مفتحة الابواب لما يتجدد من البحوث والدراسات » .

« فالعقيدة ترجمان الصلة بين الكون والانسان ،أو هي مظهر الصلة بين العالم الاكبر والعالم الاصغر كما يقول المتصوفة والنساك » .

ادوار العقيدة الالهية

مرت الامم البدائية ، في اعتقادها بالالهية والارباب بعدة اطوار .

١ ـ دور التعدد : وكانت القبائل فيه تتخذ لها اربابا كثيرة تعد بالعشرات .

٢ ـ دور التميز والترجيح : تبقى على كثرتها في الارباب ولكن ترجح ربا واحداً عليها ويأخذ وصف الرياسة .

٣ ـ دور الوحدانية: وفيه مظهر توحد الامة فتجتمع على عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الارباب في كل اقليم من الاقاليم المتفرقة . ولا تصل الامة الى هذه الوحدانية الناقصة ، الا بعد اطوار من الحضارة ، تتسع فيها المعرفة ويصعب على العقل قبول الخرافات والاساطير . فتصف الله بما هو أقرب الى صفات الكمال والقداسة ، من صفات الالهة المتعددة في اطوارها السابقة » .

« وتقترن هذه العبادة بالتفكير في اسرار الكون وعلاقتها بارادة الله وحكمته العالية » وكثيراً ما نرى عندهم انفراد الاله الاكبر ، في هذه

الامم « بالربوبية الحقة » وتنزل الارباب الاخرى الى درجة الملائكة ، او الارباب المطرودين من الحظيرة السماوية .

على ان علماء المقابلة بين الاديان ، يعللون ظهور الثنائيةبعد الوحدانية برقي الانسان في هذا الطور ، حيث يحاول تفسير الشر في الوجود ، بأنه بعيد عن اله الخير ، ولا بد ان يكون له اله آخر ، وطبعا ان هذه المحاولة لم تكن غريبة عليه لانه لا تزال عنده فكرة التعدد سائغة بل يرى في مثل هذه الحالة ، ينزه الاله ، ويرفعه بصفاته الى أعلى صور الكمال ، فلا تكون الثنائية نكسة اعتقادية تنزل الى الادنى ، بل هي موافقة لترقي الانسان في اطوار العبادة في نظرهم .

ثم يثبتون بعد ذلك « ان وحدة الوجود ، تأتي بعد جميع هذه الاطوار ، توفيقا بين النقائص والضرورات ، واثباتا لوجود الله من طريق لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس والعقل والايمان » .

فكرة الربوبية عند الانسان

اتفق علماء المقابلة بين الاديان ، على فكرة واحدة ، الا وهي « ان الايمان بالارواح شائع في جميع الامم البدائية ، وان الامم التي جاوزت هذا الطور البدائي ، الى اطوار الحضارة لا تخلو من مظاهر العبادة الطبيعية ، أو عبادة الكواكب على الخصوص وفي مقدمتها الشمس والقمر والكواكب السيارة ، وان عبادة الاسلاف تتخلل هذه الاطوار المتتابعة على انماط ، تناسب كل طور منها ، حسب نصيبه من العلم والمدنية » .

الا انه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات ففي وقت تصعد فيه الدرجة وفي زمن تهبط فيه هذه الدرجة .

« ولكن التوحيد فهو النهاية لتلك الاطوار كافة ، في جميع الحضارات الكبرى ، وكل حضارة منها ، آمنت باله يعلو على الالهة قدرة وقدرة ، وينفرد بالجلالة بين أرباب تتضاءل وتزول ، أو على الاقل تحتفظ ببقائها في زمرة الملائكة التي تحف بعرش الالهة الاعلى » .

نماذج من ربوبية الامم الماضية

يذكر لنا الاستاذ « العقاد » نماذج شتى لارباب الامم الماضية ، وجمعها في انواع ثمانية ، أرى في ذكرها فائدة لطلاب العلم وبالاخص علم العقيدة والاديان .

١ ــ ارباب الطبيعة : وهي ارباب تتمثل فيها مشاهد الطبيعةوقواها ، كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع .

٢ ــ ارباب الانسانية : وهي الارباب التي تقترن بأسماء الابطال والقادة ، المحبوبين والموهوبين ، يرى عبادهم انهم قادرون على الخوارق والمعجزات .

٣ ــ ارباب الاسرة : وهم الاسلاف الغابرون من آباء وأجداد ، يعبدهم أبناؤهم وأحفادهم ، ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهورة ، ويزورونهم بالهدايا والقرابين .

٤ ــ أرباب المعاني : كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد ، ورب العدل ، ورب الاحسان ورب السلام .

٥ ــ أرباب البيت : كرب الموقد ، ورب البئر ورب الجرن ، ورب الطعام .

٦ ــ أرباب النسل والخصب : وهي تظهر في الأعم الأغلب في صورة الاناث ، ويسمونها بالامهات الخالدات ، وقد سميت اخيرا بواهبات الخلود بعد هبة الحياة .

٧ ــ آلهة الخلق : وهي التي ينسب اليها خلق السماء والارض والانسان ، والحيوان .

٨ ــ الالهة العليا : وهي آلهة الخلق ، التي تدين عبادها بشرائع الخير ، وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والاخلاق ، وتضمن السعادة الابدية للارواح في عالم البقاء .

« وهذه الطبقة من طبقات العبادة ، وهي أرقى ما بلغته الانسانية في اطوارها المتوالية ، واستعدت بعده ، للايمان باله واحد لجميع الالوان والمخلوقات بغير استثناء أمة من الناس » .

المعتقدون بالوحدة

يذكر العلماء بعض الامم والقبائل التي وصلت عقيدتها الى طور الوحدة وهو الدور الثالث لها .

١ ــ ففي افريقيا قبائل تسمى بقبائل « الهوتنتوت » ولما تفارق مرتبة الهمجية بعد فلا يزال اناس منهم للان يأكلون لحوم البشر على عقيدة، ان لهم الها واحدا فوق جميع الالهة يسمونه أب الآباء .

٢ ــ أما قبائل « الباتتو » الافريقيون ، فيقسمون معبوداتهم الى ثلاث أنواع :

أ ــ نوع بمثابة الاطياف الانسانية الراحلة ويسمونه « ميزيمو » .

ب ـ ونوع هو أرواح لم تكن قط في أجساد البشر ، ولها قدرة على التفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء ، ويسمونه « بيبو » .

ج ـ ونوع مفرد لا جمع له ، وليس من النوعين السابقين ، لا يمثل في وثن ولا تعويذة ولا تفلح فيه رقية الساحر ، ولا حيلة العراف . وفي يديه الحياة والسطوة ووسائل النجاح في الاعمال ، ويصفونه بأعلى ما في وسعهم من صفات التجريد والتفرد والكمال ، ويسمونه « مولنجو » .

٣ ـ والعرب قبيل ظهور الاسلام ، كانوا يعبدون الله ، ولكن بطريق غير مباشر فكانوا يعبدون الاصنام لتقربهم الى الله زلفى وكانوا يقولون ان اصنام الكعبة تماثيل قوم صالحين ، ولما ماتوا حزن عليهم ابناؤهم واخوانهم فعمدوا الى صنع تماثيل لهم وعبدوها من فرط حبهم لهم ذكرى لهم وان لم تكن عبادتهم لشخصهم بل كانت كما قلنا زلفى لتقريبهم الى الله .

وقد عرفوا اسم الله ، من طريق اتصالهم بأناس من المسيحيين واليهود ، وكانوا يذكرون اسم الله على ألسنتهم . حتى وصلوا الى تسمية ابنائهم « بعبدالله وتنم الله » .

٤ ـ وقد عرفنا ان المصريين وصلوا الى توحيد الله ، وبقيت أسماء الاله الواحد متعددة على حسب التعدد في مظاهر التجلي المتعددة لذلك الاله فكان « أوزيرس » بأسماء مختلفة حسب التعدد في مظاهر التجلي فيسمى :

أ ـ رع عندما يكون الها للشمس .

ب ـ وخنوم ـ وهو الاله الخالق .

ج ـ وتوت وهو الاله المعلم الحكيم .

د ـ واوزريس في الوقت نفسه اله العالم الاخر ، واله الخلـــق ايضا حيث ينبت منه الزرع ويصورونه في كتاب الموتى جسدا راقدا في الارض تخرج منه السنابل والحبوب ، ومع عبادتهم للاله الواحد الخالق للكون كله ، ولم ينسوا عبادة الموتى أو عبادة الاسلاف .

ه ـ اما اليهود : فقد عبدوا العجل بعد عبادة الله الواحد ، وسموا الواحد باسم الجمع وهو في العبرية « الوهيم » او الالهة ثم اصبح الجمع علامة التعظيم .

الاديـان وعقيـدة التـوحيـد

« التدين ولا سيما في اديان التوحيد والخلـود ـ عنصر ضروري لتكليل القوة النظرية في الانسان ، به يجد العقل ما يشبع نهمته ، وهـو عنصر ضروري ايضا لتكميل قوة الوجدان بل هو عنصر ضروري لتكميل قوة الارادة ، بمدها بأعظم البواعث والدوافع » .

فالفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الانسانية ، في مختلـف ملكاتها ومظاهرها فهي الغذاء الوافي ، لقوى النفس المختلفـة ، والمداد الخالد لحيويتها » .

وللاديان وراء هذه الوظائف النفسية الفردية ، وظائـف اخـرى اجتماعية ، لا تقل شأنا عن السابقة ، فالتدين معنى انساني روحاني : اسمه الفكرة والعقيدة ، فاذا صلحت العقيدة صلح كل شيء .

فالاديـان للجماعات ، مبعث القوى لتهذيب السلوك ، وتصحيـح المعاملة ، وتطبيق قواعد العدل ، ومقاومة الفوضى والفساد بل تربـط قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم » .

وظاهرة التدين ترجع في أصلها الى قانـون « السببية والغائيـة » اللذين ينتهيان الى اسمى العقائد الدينية ، عقيدتي التوحيد والخلود .

ولو رجعنا الى الصورة التي ظهرت فيها الاديان ، أول ما ظهرت في الوجود ، نرى ان الباحثين قد اختلفوا فيها .

١ ــ فمنهم من صورها بصورة الخرافة والوثنية ، في بادىء امرها واخذت تتدرج على مدى الاجيال ، حتى وصلت الى الكمال بالتوحيد ، حتى صارت عقيدة « الاله الاوحد » .

٢ ــ وفريق آخر يسير في اتجاه مناقض للرأي السابق ، ويثبت ان عقيدة الخالق الاكبر « هي اقدم ديانة ظهرت في البشر ، وانها لم تنفك عنها امة من الامم في القديم والحديث ، وما كانت الوثنيات الا اعراض طارئة أو متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

وتسمى هذه بنظرية « فطرية التوحيد واصالته » التي انتصر لهـا علماء الاجناس ، وعلماء الانسان ، وعلماء النفس .

ومن اشهرهم « لانج » الذي اثبت وجود عقيدة « الاله الاعلى » عند القبائل الهمجية في استراليا وافريقيا وامريكا .

ومنهم « شريدر » الذي أثبتها عند الاجناس الآرية القديمة ومنهم « بروكلمان » الذي وجدها عند الساميين قبل الاسلام .

واخيرا فقد انتهى بحث « شميدت » الى ان فكرة « الاله الاعظم » توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من اقدم الاجناس الانسانية .

ومهما يكن من امر هؤلاء وهؤلاء ، في حل مشكلة بزوغ الدين في

النوع الانساني ، التي لم يزد التاريخ فيها ، عن انه صورها بسلسلة من صور مختلفة لديانات متقدمة قليلا او كثيرا .

فتاريخ الاديان لم ينجح في حلها .

غاية الامر ان للدكتور محمد عبدالله دراز رأيا في ذلك فيقول : كان مقتضى الوضع السليم ، في تعريف ما كانت عليه بداية الاديان ، فيما قبل مقتضى التاريخ ان نسترشد في مقارنتها ، بسير الديانات المعروفة منذ طفولة التاريخ الى اليوم الا واننا نعرف بالاستقراء ان كل واحدة من هذه الديانات ، بدأت بعقيدة التوحيد النقية ثم خالطتها الشوائب والاباطيل على طول العهد ، فالاشبه ان تكون هذه سنة التطور في الديانات كلها : ان بدايتها دائما خير من نهايتها » .

المبحث الخامس

العداء الاوربي للعروبة والاسلام

الحضارة العربية ودور اللغة فيها

الاسلام ومنطلقاته الجديدة

الانموذج الاعلى للسلوك الاسلامـي

الرواد الاول من المهاجرين والانصـار

الاصالة العربية بين القديم والجديد

المـيراث الحضـاري

العروبـة وركائـز الاسلام فيهـا

خصائص الدعـوة في هـذا الديـن

الايديولوجية في الدعـوة الاسلاميـة

الابعـاد الحضاريـة في الدعـوة الاسلاميـة

«العداء الاوربي للعروبة والاسلام»

يظن الكثير من المؤرخين وتبعهم الكثير من الناس في ذلك أيضا أن : وجود الامة العربية في المراحل التي سبقت عصر الاسلام ، لا يمكن ان يمثل في معاني الامة العربية وتراثها اكثر من « الجاهلية » التي تعني عندهم « الجهل » الذي هو ضد العلم ، وبهذه النظرة الخاطئة والآثمة في حق الامة العربية .

فان الفكر المتوارث عن هذه الامة انها متخلفة ومنحطة ولا تقوم على أمر من قيم الحياة او الحضارة مع ان هذا التصور الخاطىء المتوارث مما قدمه الحقد الاوروبي القديم والحديث للعرب مسخا وتضليلا لا يستقبم حتى في مواجهة دلالة لغة نفسها كتعبير عن السلوك والعرف اللذين كانا أداة التعامل العربي قبل الاسلام وقبل دعوة الالهية في الحياة .

« فالجاهلية » في اللغة يطلق على « العالم » ويطلق على الشجاع والذي يستطيل ويتحرك ويقوى ويشتد الى كثير من المعاني غير هذه .

قال صاحب القاموس ـ فيما قال في هذه المادة ـ : « واستجهلت الريح الغصن : حركته فاضطرب .. والجاهل : الاسد » .

وقال بن فارس : « الجيم والهاء واللام أصلان : احدهما خلاف العلم والآخر : الخفة ، وخلاف الطمأنينة .. قال النابغة :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابى المرء والشيب شامل

وقال « صاحب النهاية في غريب الحديث » : « ابن الاثير » : « جهل » فيه : « انكم لتجهلون وتبخلون وتجبنون » أي : تحملون الآباء على الجهل ، حفظا لقلوبهم •• ومنه الحديث : « من استجهل مؤمنا فعليه اثمه » أي : من حمله على شيء ليس من خلقه ، فيغضبه فانما اثمه على من أحوجه الى ذلك ، ومنه « حديث الافك » ولكن أجهلته الحمية ، أي حملته الانفة الغاضبة على الجهل ومنه الحديث « انك امرؤ فيك جاهلية •• » وهي الحال التي كانت عليها العرب قبل الاسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين ، والمفاخرة بالانساب : والكبر ، والتجبر ، وغير ذلك •

وقال « الراغب الاصفهاني » في مفردات غريب القرآن :

« الجهل على ثلاثة أضرب : الاول ، هو : خلو النفس من العلم ، وهو الاصل ، والثاني : اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه ، والثالث : فعل الشيء بخلاف ما حقه ان يفعل ، سواء اعتقد فيه اعتقادا صحيحا ، أم فاسدا •

وقوله تعالى : « فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة » •

والجاهل يذكر تارة على سبيل الذم ، وهو الاكثر ، وتارة لا على سبيله نحو : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ، أي : من لا يعرف حالهم •• والمجهل : الامر أو الارض أو الخصلة التي تحمل الانسان على الاعتقاد بالشيء خلاف ما هو عليه •

وقال شارح القاموس : قال : الحرالي : الجهل : التقدم في الامور المنبهة بغير علم •• والجهبل كجعفر : أهمله « الجوهري » وقال غيره : هو العظيم الرأس أو المسن ، أو العظيم الرأس من الوعول ، عن ابن دريد • وأنشد :

يحطم قرني جبلي جهبل

والجاهل : الأسد الذي يخرق بالفريسة قال :

أجوف جاف جاهل مصدر .. وصفاه جهيل : عظيمة .

وقال صاحب لسان العرب : « الجهل نقيض العلم .. والجهالة نقيض العلم ... والجهالة أن تفعل فعلا بغير العلم .. وقوله تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » يعني الجاهل بحالهم ، ولم يرد الجاهل الذي هو ضد العاقل ، وانما أراد الجهل الذي هو ضد الخبرة والجاهلية زمن الفترة ولا اسلام .

وعلى هذا ، فيكون « العصر الجاهلي » أو الجاهلية بمعنى : الشجاعة والاستطالة ، والحمية ، والتفاخر .. وما الى ذلك ، ومنه قوله تعالى : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى » ومنه أيضا قول « عمرو بن كلثوم » من « معلقته » يخاطب « عمرو بن هند » ملك العرب ، لما استطال عليه ، وأراد أن يستخدم أمه : [1] :

أبا هند ! فلا تعجل علينا وانظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمراً قد روينا

الى أن قال :

ألا لا يعلم الأقوام أنا تضعضعنا وأنا قد ونينا

---

(1) أنظر « عجالة في تاريخ الاديان » للمرحوم الاستاذ الدكتور محمد بن فتح الله بدران وهي موجز للمحاضرات التي القاها على متخصص الدعوة والارشاد في مادة الملل والنحل عام ١٩٤٧ م .

ألا لا يجهلن أحـــد علينـــا فنجهـــل فوق جهــل الجاهلينا
بأي مشيئـــة عمرو بـــن هنـــد تطيع بنا الوشـــاة وتزدرينـــا ؟
بأي مشيئـــة عمرو بـــن هنـــد نكون لقيلكـــم فيهـــا قطينـــا
تهددنـــا وتوعدنـــا ، رويـــدا متـــى كنا لأمـــك مقتوينـــا ؟

ومنه أيضا ما يقوله الناس الى الآن : (هذا النبات قد جهل) أي قد علا واستطال ، ونما كثيرا ، وملأ الارض ، وازدهر ، فهو مأخوذ من جهل جهالة لا من : جهل جهلا .

وقد استعمل العرب في جاهليتهم هذا اللفظ « جهل جهالة » أيضـــا على أنه ضد « الحلم » لا ضد « العلم » .

قال « عنترة » بن شداد ، فارس العرب ، وشاعر بني عبس :

وللحلم أوقات ، وللجهـــل مثلهـــا ولكن أوقاتي الى الحلم أقـــرب

(شرح ديوان عنترة صفحة ١٢)

وهو القائل أيضا :

حكم سيوفك في رقـــاب العذل واذا نزلت بـــدار ذل فارحـــل
واذا بليت بظالم كـــن ظالمـــا واذا لقيت ذوي الجهالة فاجهـــل

(شرح ديوان عنترة صفحة ١٣٤)

وقال عنترة أيضا :

حلمت فما عرفتم حـــق حلمـــي ولا ذكرت عشيرتكـــم ودادي
سأجهل بعـــد هذا الحلم حتـــى أريق دم الحواضر والبـــوادي

(شرح ديوان عنترة صفحة ٥١)

وبعد ، فلعله قد آن لنا أن نفهم « الجاهلية » في «العصر الجاهلي» :

على أنها : شدة الاندفاع في قوة الدفاع ، للذود عن حياض الشرف والمروءة والعرض أو ما يمس شيئا من هذا ، من قريب ، أو من بعيد ، ألم يقل قائلوهم :

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

* * *

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

وعلى أنها : فور الحمية : لوفرة العزة الأبية ؛ ألم يقل قائلهم :
« المنية ولا الدنية » ؟

وألم يقل شاعرهم « عنترة » :

لا تسقني ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيب منزل

وعلى أنها : نخوة واباء ، وتعظيم بالاباء ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في خطبته يوم « فتح مكة » ••• « يا معشر قريش ؟ ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالاباء ، الناس من آدم ، وآدم خلق من تراب ، ثم تلا « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم •• » الآية :
(جمهرة خطب العرب ج ١ ص ٥٢)

ومع ذلك فلا زالت الغالبية من العلماء والادباء ، المؤرخين ••• وغيرهم تحرك فكرة خبيثة جائرة ، هي : أن « العرب في جاهليتهم » كانوا منحطين كانوا : متخلفين ، متخاذلين ، متفككين ، تشيع فيهم الفواحش ، وتعمهم الهمجية وينتشر فيهم الجهل ، ويحيط بهم التحلل والتأخر •

فلا أخلاق ، ولا اجتماع ، ولا علم ، ولا دين ••• أمورهم فوضى ، وحياتهم شتى •

وبنوا على هذا جميع أحكامهم عن العرب : في الاعتقاد ، والاقتصاد في الرئاسة والسياسة ، في الفنون ، والعلوم ، في السلم ، والحرب •

والعجيب أن هذه الاحكام وتلك الفكرة ، إنما صدرتا عن جهل ، أو هوى أو عن تدبر وترصد مع سبق الاصرار •• فلا عن دراسة واستقصاء ، ولا عن بحث حر محايد ولا عن « سبر ، ونظـــر » •

لقد أجمع المنصفون من الناس جميعا على أن الحكم يجب أن يكون على قدر المستندات الصحيحة بلا تزيد ولا تنقص ، فلا يصح أن يعمم الحكم على جيل أو قبيلة أو أمة ••اذا كانت المستندات عن زمن محدود ، أو فرد معهود أو قبيل أو وفود وحتى الحكم على الفرد الواحد ، لا يكون صحيحا الا اذا استقصى الحاكم جميع جوانبه ومناحيه ، وحلق معه في كل اتجاهاته وضواحيه ، ووقف على ينابيعه ومساقيه ثم قارنه ببيئته وأقرانه ومعاصريه•

فهل صدرت الاحكام على العرب في جاهليتهم على هذا النحو مـــن التحري والدقة ؟ اللهم لا •••

فهي اذا :احكام غير موثوق بها ولا يعتمد عليها •• هذه واحدة • وأما الثانية ، فهي الميل والهوى في الامم ممثلة في علمائها ، أو في المفكرين ممثلين لأممهم وهو : ان كل أمة تعنى بأمجادها وتراثها ومقوماتها، وتحاول جاهدة ان ترفع بكل هذا وذاك ، فتضفي على نفسها : من الامجاد : الاعلى والامجد ، ومن التراث : الأصفى والأوحد ، ومن المقومات : الأقـــوى والأشد •

وإن صدمها التاريخ أو الواقع بأمة تفوقها في كل هذا وذاك ، فانها

تحاول جاهدة ان تقلل من شأنها ، بقدر ما ترفع من نفسها ، لتصل الى ما تريد ..

هذا هو الذي فعلته أمم : اليونان ، والرومان ، والفرس قديما ، وتفعله أمم : أوروبا ، وأمريكا حديثا بالنسبة للعرب ، ويتعلل هؤلاء ، كما تعلل أولئك بألفاظ خلابة خداعة ، مثل : « البحث العلمي » و « حرية البحث »، « عدم التعصب »، « طرائق العلم»، « دقة التفكير »، و« أصالة الرأي »... الى أمثال هذه الكلمات التي تعبر عن حق ، ولكن لا يريدون بها الا الباطل : كلمات يقولونها بأفواههم ، وأعمالهم منها براء .

وفي العرب : خلق رضى وتوثيق وصفاء .. يجعلهم : يصدقون : فينخدعون وللعرب : قلب نقي ، وتصديق ووفاء ... يجعلهم ينخدعون فيصدقون . ثم جاء العرب : دين قوي ، وشريعة سمحاء .. تجعلهم : يمرون باللغو ، فينخدعون .

وأما الثالثة : فهي : تدبير القتل العمد للعروبة والاسلام ، مع الترصد وسبق الاصرار .

وهذه مؤامرة قديمة جديدة ، متكررة الاغتيالات ، موصولة الحلقات من يوم أن نادى « في العرب » بالاسلام الى وقتنا هذا ، ولعلها ستستمر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .

عز العرب بالاسلام : « ولله العزة ، ولرسوله ، وللمؤمنين » .

وعز الاسلام بالعرب : « اللهم أعز الاسلام بأحد العمرين »

فعز على غير العرب وغير المسلمين أن يذهب العرب المسلمون ، بأطراف العزة كلها ، ففكروا وقدروا ، ودبروا وتآمروا .. ولكن كيف يكيدون للاسلام ؟ .

هداهم الحقد ، وقادهم الضلال الى أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، بعد أن عجزت سيوفهم ، وذلت جيوشهم ، وثلت عروشهم، وزلت أقدامهم، ودكت حصونهم ، وفتح الله على « المسلمين العرب » من مشارق الارض ومغاربها .

حاولوا الدس والوقيعة : في الآراء والثقافات ، والاخبار ...

ألم يأتكم نبأ الاسرائيليات المدسوسة على تفاسير القرآن من قديم؟

ألم يأتكم نبأ النفاق والمنافقين في صدر الاسلام .. ألم .. ألم ...

ثم : ألم يأتكم تنبؤهم في « القرآن الكريم »، وقد قال الله تعالى :

« وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ـ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا ، لا اله الا هو سبحانه عما يشركون ـ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون ـ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » .

(سورة التوبة ٩ الآيات من ٣٠ الى ٣٣ وكلها نزلت في المدينة)

وجاء حول هذا المعنى في سورة « الصف » قوله تعالى :

« واذ قال موسى لقومه : يا قوم لم تؤذونني ، وقد تعلمون أني رسول الله اليكم ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، والله لا يهدي القوم الفاسقين . واذ قال عيسى بن مريم : يا بني اسرائيل ! اني رسول الله اليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ، فلما

جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين • ومن أظلم ممن افترى على اللـه الكذب ، وهو يدعي الى الاسلام ، والله لا يهدي القوم الظالمين • يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون • هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ، ليظهره على الدين كلـه ، ولو كـره المشركون » •

(سورة الصف ٦١ الآيات من ٥ الى ١٠ وكلها نزلت في المدينة)

والقرآن الكريم : قد حكى عن هؤلاء كثيرا ، وكثيرا جـدا ••• وحسبنا أن نقرأ قوله تعالى : « •• لو خرجوا فيكم ، ما زادكم الا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم ، يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين • لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الامور ، حتى جاء الحق، وظهر أمر الله ، وهم كارهون » •

(سورة التوبة ٩ الآيات ٤٧ ــ ٤٨ وكلها نزلت في المدينة)

هذا الى جانب الاغتيالات الفكرية والثقافية المتكررة على العروبـة والاسلام والتي قام بها من زعموا أنهم أصحاب حضارات وثقافات ومدنيات قديمة ، من فرس ، ويونان ، ورومان •• هذا في القديم ، وفي مشرق شمس النور الاسلامي •

وأما في المتوسط ، (بالحروب الصليبية) لما تجف دماؤها بعد •• ولما ينته التفكير فيها ، والاستعداد لها •••

وأما الحديث ، والكلام عن الحديث مرير حزين ! لانه الكلام عـن الاستعمار والمستعمرين ، فهنا وهناك : في كل بلد اسلامي ، وكل قطـر عربي ، أنشب الاستعمار نابه وظفره ، وولغ المستعمرون في دماء طاهـرة زكية : عربية اسلامية ، وسمي هذا النوع من «الاستخراب» : «استعمارا»

والاستعمار والتعمير منهم براء • وتظاهر مع هؤلاء الأعداء : المزمنون في عداوة الاسلام والعرب والمؤمنين ؟ « لتجدن أشد الناس عــداوة للذين آمنوا : اليهود والذين أشركوا » •

والاستعمار لا يجابه الامة التي يريد استعمارها ، بسلب اموالها ، وامتصاص دمائها ، وهتك أعراضها ، وانتهاك حرماتها • وان كانت تلك غاية ، ولكن هناك الوسائل التي توصله الى هذه الغاية سريعا ، وبــدون مشقة هذه الوسائل هي :

١ ــ استعمار العقيدة ، باشاعة الشك والالحاد ، واضعاف الروح الدينية وزعزعة الايمان : بالله ، وبالرسل ، وبالوطن ، وبالاسرة ، وبالفرد، وبالمجتمــع •

٢ ــ استعمار الثقافة : بتعكير الينابيع ، وبلبلة الافكار ، وتفريق الكلمة حول مصادرها الاصلية الصحيحة ، والطعن في مقومات الحقيقة ، والالتواء بها الى حيث يريدون •• ومنهجهم في هذا : قتل اللغة العربية ، وشل المعارف الاسلامية كما قرر « كرومر » الداهية الاستعماري ، حيث قال « لا يمكن استعمــار مصر والشرق الاوسط ما دام في مصر القرآن والأزهر » فعمدوا الى تفريق الثقافات وضربها ببعض •

٣ ــ استعمار الخلق : باشاعة الخلاعة والميوعة والتحلل الخلقي ، وتفتيت الاسرة وتفريق كلمة المجتمــع •• لان : المجــون ، والفسوق ، والفردية ، والوجودية ، وغير هذا وذاك ، من مباذل المجتمع ومقاتله •• ليست من طبيعة العــربي ، أو الاسلامــي استغفر اللــه بل ان العربي او المسلم ، ان مر أمام خياله او نظره شيء من هذا : ثار وفار ، وندم وعزم ، ودافع بكل مايستطيع ، لتطهيره ، او تطهــير المجتمــع منه •• ولكنــه الاستعمــار •

٤ ـ استعمار التفكير ، ولهم في ذلك أساليب وأساليب ...

منها الاستعمار الفكري الشعبي ، ومن مظاهره : ما كنا نراه في جميع كتب المطالعة والادب ، في جميع المدارس : « مصر بلد زراعية لا تصلح للصناعة » وكانت الموضوعات الانشائية تدور حول هذا ، لتظل مصر مرتبطة صناعيا بهم .. يا لخبث ما فعلوا !!...

ومنها الاستعمار الفكري الارستقراطي ـ ان صح هذا التعبير ـ ومن مظاهره التي تدرس في الجامعات : « الفلسفة ليست من طلبات العرب » ، « التفكير الفلسفي غربي » ، « ابن سينا والفارابي .. أعظم عقليات اسلامية عربية لم تجد العقلية العربية او الاسلامية بمن يدانيهم او يقرب منهم .. ولن تجود .. ولكنهم .. ليسوا بأصحاب أصالة فكرية .. » . ومن خزي وعار ، أن نردد نحن كل هذا وأكثر من هذا في مدارسنا وجامعاتنا ، مفتونين بما خدرونا به : « البحث العلمي » .

٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ـ ثم هناك الاستعمار : السياسي والوطني والاجتماعي والاقتصادي والعسكري واللغوي ...

وجماع هذا كله ، انحلال الفرد، وتمزيق الاسرة، وانهيار الوطن.. بقتل الشخصية ، والقومية ، والوطنية والدينية ... بكل مقوماتها ، ومقوياتها ..

ومن العجب المخزي ، والغريب المبكي : أن العرب ، وقد نكبوا من هؤلاء وهؤلاء ، نكبوا أيضا من بنيهم ، أي والله من بنيهم ، وعن طريقين :

أولا : صنائع الاستعمار ، ويا لخزي ما صنعوا : « يخربون

بيوتهم بأيديهم ويهدمون مقوماتهم بمعاولهم ، وينبشون الاجداث على أجدادهم ليغطوا بما نبشوا كنوز العرب ومفاخرهم ، ويكشفوا عن سوآتهم ••• « وذاك عرق نزع » •

ثانيا : السذج الطيبون ، بل هم المخدعون في أنفسهم أولا ، وفي كتابات غيرهم ثانيا ، فهم يصدقون كل ما يلقى اليهم • ومنهم من أدخل عليهم من أطراف حسبوها تدينا ، فمثلا ظنوا « وبعض الظن اثم » : انه بقدر انقاصهم قدر العرب في الجاهلية ، تكون رفعة قدر الاسلام •

ظنوا أنهم كلما وصفوا العرب في الجاهلية بالتحلل والتهتك والانحدار الى الحضيض •• رفعوا الاسلام الى السماء ، وكأن الاسلام عند هؤلاء لا يقوم الا على أنقاض ، أو كأنه نزل للعرب فقط ، لينتشلهم •

وزعموا ان الاسلام لا يكون قويا ، الا بقدر ضعف العرب الذين نزل فيهم وأخذوا يتساءلون : اذا قلتم أن العرب كانوا بخير ، فلم جاء الاسلام ؟ وبم جاء ؟ واذا كانت العقيدة العربية سليمة ، والاخلاق عندهم قويمة ، فلم نزل الاسلام فيهم ؟ وكيف أرسل الرسول اليهم ؟!•• وكأن عظمة الاسلام عندهم لا تكون الا على النقيض كمن نزل فيهم الاسلام ، من جميع النواحي : العقيدية والاخلاقية والاجتماعية فألحقوا بالعرب في جاهليتهم كل عيب ، ورموهم بكل مشين ، ونسبوا اليهم : الفجور والفسوق والعصيان •

هؤلاء السذج الطيبون أدنى من أن نستغفر الله لهم ، فعلى مقتضى قياسهم يجب أن يكون الرسول الذي أنزل عليه الاسلام ، من أحط طبقات المجتمع ويجب قياسا على عقولهم : أن يكون هو أدنى هذه الطبقة الدنيا •• وهذا الذي نستغفر الله منه ، ثم نستغفر الله له •

لا يا سادة : « الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس » ، فرسل الله : رجال اصطفاهم الله ،وفضلهم على العالمين وضعهم على عينة ، اختار من الالسنة بسوء •

ألم يقل قوم « ثمود » لرسولهم « صالح » عليه السلام ، لما جاءهم بالرسالة « يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ؟ » ثم ألم يقولوا له « ولولا رهطك لرجمناك ؟ » و (يوسف) عليه السلام الذي تربى في بيت العزيز ، بعد أن بيع (بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين) •• ألم يكن ابن (يعقوب) عليه السلام وحفيد (اسحاق) ابن (ابراهيم) الخليل صلوات الله وسلامه عليهم وعلى رسل الله أجمعين ؟ ثم ألم يجعله العزيز على خزائن الارض ؟!

و (موسى) بن عمران ، الذي نشأ وتربى في بيت فرعون ، في حين كان فرعون يقتل أبناءهم ويستحي نساءهم ••• ألم يكن ابن عمران الذي قال الله فيهم : « ان الله اصطفى آدم ، ونوحا ، وآل ابراهيم ، و آل عمران على العالمين » ثم ألم يقل الله له : « ألقيت عليك محبة ، ولتصنع على عيني » ؟!

ومحمد صلى الله عليه وسلم القرشي الهاشمي الذي نشأ يتيما ، ورعى الغنم وتاجر •• ألم يقل فيهم وفيه عمه (أبو طالب ـ سيد قريش) يوم أن خطب له السيدة (خديجة) وكان ذلك قبل أن يكون رسولا بخمس عشرة سنة : « الحمد لله الذي جعلنا من زرع ابراهيم ، وذرية اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ،وبيتا محجوبا ، وجعلنا الحكام على الناس » •

ثم ان محمد بن عبدالله ابن أخي : من لا يوازن به فتى من قريش،

الا رجح عليه : برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وان كـــان في المال قل ، فان المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله في خديجــة بنــت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلي •

ولعلنا نستطيع أن نؤكد : أن الله سبحانه ، اختار رسوله الخاتم : من خير أمة ، وأشرف قبيلة ، وأكرم بيت : اصطفى العــرب من العالميـــن ، واصطفى من العرب قريشا ، واصطفى من قريش هاشما ، واصطفى خاتم رسله من بني هاشم : فهل صلى الله عليه وسلم : خيار من خيار ، كمـــا قـــال :

اصطفاهم ، ليكونوا حملة الرسالة الخاتمة ، وحواري الرسول الخاتم الى العالم كله : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) في افرا دالرسل ، وفي الامة التي ستحمل مشعل النور والهداية والرسالة العامة الى النـــاس كلهم ، والخالدة الى قيام الساعة : (كنتم خير امة اخرجت للناس) : (وكذلــك جعلناكم امة وسطا : لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) وما دام الله سبحانه قد أطلق (الوسط) فلا بد لنا ان نطلقه ، فهو (وسط): في العقيدة ، وفي الاخلاق ، وفي الاجتماع ، وفي الحضارة وفي المدنية ، وفي المعرفة ، وفي الثقافة ، وفي المكان ايضا ••• وكلنا يعلم ان (الوسط) هو الكمال ، لانه بين الافراط والتفريط ، وما (الوسط الاخلاق) عنكم ببعيد •

وليطمئن هؤلاء السادة الذين يرون ان عظمة الاسلام ، انمـــا تقوم على انحطاط العرب في الجاهلية ، لان الفرق بين عقائد العرب وعقائـــــد الاسلام ، وبين أخلاق العرب وأخلاق الاسلام ، وبين اجتماعيات العــرب واجتماعيات الاسلام وبين كل ما دعى اليه العرب وما دعى اليهالاسلام •• وهو الفرق بين المخلوق وخالقه ، بين العبيد العاجزين والاله القادر ، بين

مقدرات الارض ومحكمات السماء • بل ولا يمكن هذا القياس •• وانما البحث العلمي يجب ان ينصرف الى قياس الامة القريبة في جاهليتها وحين نزل فيها الاسلام : بالامم الاخرى التي لم يرسل فيها الرسول الخاتم ، ولم تنزل عليهم الرسالة الخاتمة ، أو على الاقل : يجب علينا ان نزن الامة العربية في ذاتها ونقدرها قدرها ، لنضعها ـ بعد ذلك ـ فيسلسلةالتاريخ العام ، في المكان اللائق بها ، بين امم الارض ، لا بين رسالات السماء •• وهذا هو الذي نهدف الان اليه • ونحاول جاهدين ان نساعد عليه « وفوق كل ذي علم عليم » •

الحضارة العربية ودور اللغة فيها

ليست العربية لغة شعب بدائي ، بل هي لغة امة على جانب مهم من الحياة الفكرية وهي صورة حية ، ومظهر بارز لهذه الحضـارة العربية ، تتجلى فيها شخصية الحضارة العربية في الجاهلية والاسلام حتى اليـوم وذلك بكثرة مفرداتها ومصطلحاتها ودقة تعابيرها وآدابهـا وعلومهـا المختلفة • والعربية هي لغة اهل الحجاز واليمن واقطار الجزيرة العربيـة كلها وان اختلفت لهجاتها منذ اول وجودهم في دول وامارات قبل المسيح وبعده قبل الاسلام وفي الاسلام ، واختلاف اللهجات قديما هو كاختلاف اللهجات العربية في البلاد العربية اليوم • والفرق بين اللهجات في الجاهلية والاسلام هو انها تباعدت عن بعضها في الجاهلية • أما في الاسلام فـان القرآن كان يقلل من هذا التباعد • يضاف الى ذلك ان القرآن قد حفظ هذه اللغة ، ووحد بين الناطقين بها في البلاد العربية كافة • وظل العرب جميعا حتى اليوم يتفاهمون بها في كل اقطارهم في آسية وافريقية ومهاجرهم في امريكة •

وقوام هذه اللغة في العصر الجاهلي : الشعر العربي الذي يظهر في المعلقاتالمشهورة ، وفي شعر الشعراء العديدين الذين عاشوا قبل الاسلام،

وفي النثر الذي تتبينه في سجع الكهان ، وخطب الجاهليين والحكم البليغة والامثال السائرة التي أثرت عن حكام العرب ، فقد كان للعرب كما قال الطبيب الحارث بن كلدة لكسرى « لغة فصيحة » وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة يمرق من افواههم الكلام مرور السهم من نبعة الرام ، أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين .

وقوامها في الاسلام : القرآن الكريم ، واحاديث الرسول (ص) وخطبه وخطب اصحابه وخلفائه من بعده ، وخطب ولاتهم ، ونثر الكتاب ورسائل البلغاء وكتب العلماء وشعر الشعراء خلال العصور . على ان القرآن الكريم الذي نزل بلغة قريش اهمها جميعا فهو الذي حفظ اللغة العربية وحفظ الوحدة الثقافية في البلاد العربية والاسلامية بحيث لا يزال العرب يفهمون نصوصه ، ومؤلفات الكتاب والمصنفين منذ اربعة عشر قرنا حتى اليوم ويتكلم العربية حاليا جميع سكان الجزيرة العربية وبلاد العراق وسورية ولبنان والاردن وفلسطين وبلاد مصر والسودان وليبية وتونس والجزائر والمغرب وامم في مدغشقر وزنجبار وجزر الملايو والجنوب الشرقي من الهند ، وفي اقطار كثيرة تقع في اوساط افريقية وفي النيجر والسنغال والصحراء الغربية بين السنغال والمغرب الاقصى ومنها موريتانيا والكمرون والصومال . هذا عدا من يتكلمها ويكتبها او يؤلف بها من المسلمين في الهند وتركستان والصين وايران وبلاد الافغان وجاوه .

وقد جاءت في القرآن آيات كثيرة تشير الى نزول القرآن بلسان عربي مبين نذكر منها قوله تعالى :

« انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (٣ يوسف) .

« وهذا لسان عربي مبين » (١٠٣ ـ النحل)

« وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكـون من المنذرين بلسان عربي مبين » (١٩٥ ـ الشعراء)
« وكذلك انزلناه حكما عربيا » (٣٧ ـ الرعد)
« وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد » (١١٣ ـ طه)
« قرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون » (٢٨ ـ الزمر)
« حم • والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » (٣ـ الزخرف)
« لذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها » (٧ ـ الشورى)
« وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلمـوا » (١٢ ـ الاحقاف)
« وانه لذكر لك ولقومك وسوف يسألون » (٤٤ الزخرف)
« لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعلمون » (١٠ ـ الانبياء)•

الاسلام ومنطلقاته الجديدة

وللاسلام صورة حية اخرى للحضارة العربية وللانسانية الكريمـة ذلك ان هذا الدين ظهر في الجزيرة العربية وان هي الا فترة وجيزة حتـى آمن به العرب والصرحاء ، وتجاوبوا منه في اتجاهاتهم الاصيلة وخصالهم الشريفة ، وسجاياهم النبيلة ، ومشاعرهم العميقة المرهفة فكانوا (•• خير امة اخرجت للناس •••) الآية واستطاع العرب ان يجعلوا الدين الاسلامي دستورا للانسانية الجديدة دعوا فيه الى التعارف والتمازح (••• وجعلناكم شعوبا وقبائل لتتعارفوا ••) الآية •

وقد حافظ العرب في الاسلام على شخصيتهم ومزاياهم ، وصبغوا كل شيء بالصبغة الانسانية وحرصوا على هذه الصبغـة لحضارتهـم

ونشدوها في العالم فسارعت الامم التي أسلمت الى الدعوة اليها بحماس منقطع النظير وهكذا انبثق الاسلام دينا انسانيا عالميا وحضارة عربية جديدة وعقيدة اسلامية شملت جميع آفاق الحياة الدينية والاقتصادية والسياسية والثقافية والمهنية والفكرية ••• الخ •

ولقد تحرر الانسان في هذه العقيدة الاسلامية من الرق والعبودية والاثرة والانانية ومن نظام الطبقات ، والاجناس والتمييز العنصري والتفريق بين الملونين ، ومن عبودية المال والانسان والالهة المصطفة من الخشب والحجر والذهب والبقر والتمر •

ولا تزال الامة العربية قادرة على الاحتفاظ بتلك الحضارة وبعثها حضارة عربية جديدة تعنى بالانسانية مرة اخرى في الاتجاهات الجديدة للبشرية على أساس احلال الاسلام في العالم والحيلولة بين القومين المتحاربين في الشرق والغرب لأن العرب لم تزل حضارتهم وان شئت فقل دياناتهم وفنونهم وآدابهم وعلومهم عامرة تنعم بالحياة ، وتزخر بكل ما يكرم الانسان ويبوؤه المنزلة التي تليق به •

الانموذج الاعلى للسلوك الاسلامي

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم (••• رسول الله وخاتم النبيين ••) وقد وصفه القرآن بالآيات الاتية : « وانك لعلى خلق عظيم » ، « ولو كنت فظا غليظ القلب انفضوا من حولك » ، « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل » • وهو الى جانب ذلك يعد العقل المبدع لحضارة الاسلام والفكر العربي الجبار ، وهو الذي استطاع أن يكون من العرب امة جديدة في كل شيء •

وان عظماء العالم ليقفون بخشوع واجلال بين يدي شخصية الرسول

العظيمة الفذة في سمو الخلق ، وكرم النفس ، وفي المرونة السياسية والبراعة العسكرية ، والجدال بالتي هي أحسن ، والقدرة على التأثير في الناس ، وفي البيان ، وقوة الحجة ، وفي التواضع والصبر في جهاد دام ثلاثة وعشرين عاما . وفي حب السلم ، وفي النزعة الانسانية التي تقصد لخير العرب والمسلمين والبشرية جمعاء . وكان قدوة اصحابه وأسوتهم الحسنة لأنه كان مثلهم الأعلى . ولم نعثر في تاريخ الامم على شخصية عظيمة كشخصية الرسول الخالدة التي عظمها العرب والمسلمونوالاجانب وقدروها حق قدرها .

ولعل المستشرقين وعلماء الغرب من فرنسيين وأنكليز والمانوبلجيكيين وهولنديين وروس ... لم يختلفوا في أمر الرسول العربي والدينالاسلامي فقد تعصب فريق منهم للرسول ورفعوه الى أعلى الدرجات وأنصفوا الاسلام انصافا أرضوا به العرب والمسلمين . وتعصب الفريق الاخر عليه ، وتطرفوا في ذمه والتشنيع به فوصفوه بأقبح الصفات وتنقصوا الاسلام وجعلوه في الدرك الاسفل من الانحطاط والوحشية . وكانوا بذلك كمشركي الجاهلية والغلاة ، وكالشعوبية أو أشد غلوا منهم وأصبحت آراؤهم المتضاربة وكتبهم المتناقضة مراجع اساسية للامم الغربية عن تاريخنا منها يستمدون معلوماتهم ومنها يصدرون أحكامهم القاسية على رسولنا وأمتنا وعلى حضارتنا ومدنيتنا . وأود هنا أن أنقل طائفة من آراء هذين الفريقين ، وأذكر شيئا مما جاء في كتبهم التي وضعوها عن الرسول (ص) والعرب والمسلمين، وأسرد أمثلة مما ورد فيها منالاخطاء التاريخية والعلمية والمنطقية ليطلع عليها المثقفون من العرب والمسلمين وليقفوا بوجه المغرضين من المستشرقين والمفكرين الاوروبيين وليذبوا عن تراثهم المقدس وليفهموهم حقيقة محمد (ص) والاسلام وما أسداه العرب والمسلمون للحضارة العالمية من الخدمات الجليلة في ميادين السياسة والثقافةوالاجتماع والاقتصاد والحرب والفن والفضائل والاخلاق .

لقد كتب عن الرسول والاسلام كثير من العلماء من اشهرهم :

ومـاركليوت Weil وفيل Murir وموير Coussinede Perceval وسنوك هركنيه Sprenger وسبرنكر Noldekie ونولدكه Margoliouth Lamens ولامنس Caetain وكيتاني Dozy ودوزي Snoouk Hurgenje Huart وهوار Bell وبيل Casanova وكازانوفا Massignon وماسينيون Grimme وكرم Arnold وآرنولد Marcais ومارسيه Houdas وهوداس واميل Dinet ودنييه Demombynes وديمومبين Goldziher وكولدزيهر Mortet وموورته Paul Bert وبول برت Emill Dermengham درمنكهام ولو شاتليه Le Chateler وكروسيه Grousset وكثير غيرهم .

أما الاب لامنس Lamens اليسوعي الفرنسي فقــد نسب الــى الرسول الاكثار من الطعام ، ووصفه بالشره والاسترسال في اللذاتالبدنية وقال عنه : أنه مات بالبطنة بينما يقول بنييه سانكليه Binet Sanglé عنه أنه كانسيىء الغذاء صابراً على الجوع متقشفا ، وأنه مات منالضعف وقــد رد Bient الفرنسي على الاب لامنس وغيره من المستشرقــين ممن نقضوا الاسلام وفند اقوالهم وأضعف حجتهــم وقــال : ان هؤلاء المستشرقين حاولوا أن يهدموا ما اتفق عليهجمهور المسلمين من سيرةنبيهم غير أنهم لم يتمكنوا من الاتيان بأي شيء جديد في بحوثهم . ثــم ذكــر دينييه : الألم الذي كان يحز في نفس « لامنس » اليسوعي بسبب القرآن الذي صرف العرب عن الانجيل عندما بدأ العرب يتذوقون حلاوته ثــم قال : ان « لامنس » لم يتمكن ان يغفر للقرآن ذنبه في ادخال غارة شعواء ويحمل عليه حملة صليبية ليصرع الاسلام وختم [illegible] كلامه بقوله : ان عقلية « لامنس » لا تتلاءم مع البحث العلمي الذي يجب أن يكون مجردا من العاطفة ، بعيدا عن الاهواء خاليا من الاغراض .

وقال نولدكة Noldekè : كان ينتاب النبي داء الصرع وهـو سبب الوحي النازل على محمد • أما دي غويه De Goeje فقد نفى داء الصرع عن الرسول وفسر شيرنكر الوحي عنـد النبي بكونه نوبـات هستيرية • أما سنوك هركرونييه فينفي هذه النوبات الهستيرية • أمـا ماركليوث وهو أشد المستشرقين بغضا للرسول فيقول : ان محمدا كان يمارس الشعوذة ، وكانت له مجالس أشبه بمحافل الماسونية ، وعلامـات يتعارف بها مع أصحابه ، وكانوا يرخون عذبة العمامة فوق مناكبهم وقد رد عليه باركنسون •

ومثل كثير من الاوروبيين الاسلام ومحمدا بصور غريبة واحتقروا الاسلام ، وحملوا عليه حملات عنيفة بدون تمحيص ولا دراسة فقد مثلوا محمدا رجلا كاذبا • وعدوا الاسلام عملا من اعمال الشياطين وصـوروا المسلمين على صورة قوم همج • وقالوا : ان القرآن كتاب من أوله الى آخره مليء بالمستحيلات • وكانوا يزعمون أنهم ليسوا بحاجة الى المناقشة في هراء كهذا • انهم يقولون كل ذلك في الوقت الذي نستطيع فيه أن نؤكد أنه لا يوجد عالم مسلم أو عامي مسلم يتفوه بكلمة بذيئـة على سيدنـا المسيح أو أمه العذراء منذ جاء الاسلام حتى اليوم • بينما لم يزل العلماء والكتاب المسيحيون ينتقصون الرسول العربـي والاسـلام والقرآن ، ويؤذون المسلمين بأنواع الأذى ويضمرون لهم حقدا وبغضا شديدين خلا بعض أفراد منهم : الفيلسوف الفرنسي Condocet الـذي يقول في كتابه « تقدم الفعل البشري » أن ديانـة محمـد هي أبسط الديانات في قواعدها ، وأقلها استحالة في شعائرها وأكثرها تسامحا في مبادئها ويقول Atterbury بمجـرد ما يدخـل الزنجـي في الاسلام يشعر بكرامـة نفسه ، وبعد أن كان يعتقد ذاته عبدا يصبح في نظـر نفسه حرا • ويقول دوزي الهولندي ان محمدا كان ميالا الى الصمت والكآبـة والهيام في

الاودية البعيدة ، ويطيل التأمل في الليالي . أما اميل ورمنكهام الفرنسي فهو من اولئك الذين أنصفوا الدين وأنصفوا الرسول والاسلام ــ وهو كاثوليكي أقام ببلاد المغرب ، ــ وخالط المسلمين وعرف الشيء الكثير عن دينهم ، وهو ذو وجدان وميل الى الانصاف ويتبين رأيه بوضوح عندما أقدمت الحكومة الفرنسية في المغرب على الغاء الشريعة الاسلامية من بين البربر وأخذت تتشبث بالوسائل المتعددة لاخراجهم من الاسلام وتنصيرهم على أسس الظهر البربري أي المرسوم الذي أصدرته فرنسا لتنصير البربر المسلمين فقد كان اميل دومنكهام ممن أقاموا النكير على هذه السياسة اذ رآها مخالفة لمصلحة فرنسا وماسة بكرامتها في العالم . وقد نشر رأيه هذا في الصحف دون خوف أو وجل . ويعتبر كتابه عن (محمد) من أهم الكتب والمراجع التاريخية .

أما الفيلسوف الفرنسي فولتير ــ أحد مفكري فرنسا العظماء الذين أوقدوا نار الثورة الفرنسية ــ فلقد رأى في الرسول (ص) يتلخص ما يأتي : في شهري ايلول وتشرين الاول من سنة ١٧٦٤ كان الامير النمساوي تسنسدورف Zinzdorf الذي تولى حكومة النمسا في أواخر أيامه قد زار سويسرا في شبابه وزار كلا من فولتير وجان جاك روسو ووضع عن هذه الزيارة رسالة محفوظة في دار الآثار الوطنية اطلع عليها المسيو لوفال الفرنسي وكتب عنها مقالا في جريدة « لطان » بتاريخ ١٤ تشرين الاول سنة ١٩٢٤ لخصها الامير شكيب ارسلان في مجلة الزهراء في عددها المؤرخ ١٥ صفر ١٣٤٤ هـ جاء فيها ان فولتير في احد مجالسه مع الامير النمساوي تسينسدورف ذكر « لوثر وكلفن » المصلحين الدينيين العظيمين في المانيا وسويسرا فقال للامير النمساوي : انهما لا يستحقان ان يكونوا صانعي أحذية عند محمد . وانهما كانا رجعيين مقصرين لانهما لم يتجاسرا على اعلان الحقائق التي أعلنها « محمد » مع انه قد تقدمهما في الزمن .

وجاء في كتاب « اظهار محاسن الاسلام » لفالييري المترجم الى الفرنسية (انه مما لا شك فيه ان وصف محمد بتلك الاكاذيب التي كانوا يشيعونها في القرون الوسطى عنه وعن ديانته قد خف كثيرا في هذا العصر . وصار الناس ينشدون الحقيقة التاريخية عن محمد وعن الاسلام الذي قلب وجه العالم . ولكن مما لا مراء فيه ان صوت المسلم الحر الذي يحب الله ورسوله ،و يرى في الاسلام الحسنات التي لا نهاية لها في الدنيا والآخرة لا يزال مسموعا تماما . والنادر من الاوروبيين يعلم هذا الصوت .

ويقول Momtet الفرنسي في كتابه « محمد والقرآن » ان محمدا كان كريم الاخلاق ، حسن العشرة ، عذب الحديث ، صحيح الحكم ، صادق اللفظ . وقد كانت الصفات الغالبة عليه هي صحة الحكم وصراحة اللفظ والاقتناع التام بما يعمله ويقوله . وقال ايضا : ان طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه القصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص . وقال : لقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه وذلك لأنه من المصلحين النادرين الذين عرف الناس اطار حياتهم بدقائقها . وقال أيضا : لقد منع الاسلام الذبائح البشرية ووأد البنات والخمر والميسر . وكان لهذه الاصلاحات تأثير غير متناه في الخلق بحيث ينبغي أن يعد (محمد) في صف أعاظم المحسنين للبشرية .

ويقول ويلز الفيلسوف الانكليزي : ان الاسلام سار وانتشر لأنه أفضل نظام اجتماعي وسياسي تمخضت به العصور .

الرواد الاول من المهاجرين والانصار

هم أصحاب الرسول (ص) الذين صحبوه وردوا عنه ودافعوا عنه بأرواحهم ومهجهم وذبوا عن الاسلام بأموالهم وأنفسهم وقد بلغ عددهم

اثني عشر ألفا كما تنص احدى الروايات وفي رواية اخرى أن عددهم ١١٤ ألفا وهم الذين شهدوا معه حجة الوداع وكلهـــم رأوه وسمعوا منــه بـ (عرفة) وانك لا تجد قطرا عربيا أو بلدا اسلاميا يخلو من ضريــح أو مشهد أو مقبرة تضم رفاتهم .

وقد قال الله تعالى في النبي وأصحابه كثيرا من الآيات نذكر منهــا الآيات التالية :

« لقد جاءكم رسول من انفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم » (١٢٨ ـــ التوبة) .

« لقد من الله على المؤمنين اذ بعث منهم رسولا من انفسهم يتلــو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفــي ضلال مبين » .

« كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لا تكونوا تعلمون » (١٥٠ ـــ البقرة) .

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود » (٢٩ ـــ الفتح)

« ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحــن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم » (٣ ـــ الحجرات) .

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » (٧١ ـــ التوبة) .

« أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتــدون » (١٥٧ ـــ البقرة) .

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله واولئك هم الفائزون » (٢٠ ــ التوبة) .

« يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم » .
« أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » (٦١ ــ المؤمنون) .
وقال (ص) « المهاجرون والانصار بعضهم أولياء بعض » .

ويقول الشهرستاني : قد شهدت نصوص القرآن على عدالتهم والرضا من جملتهم، قال الله تعالى : «لقد رضي الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة » وكانوا اذاك ألفا واربعمائة . وقال تعالى ثناء على المهاجرين والانصار اتبعوهم باحسان « والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه » وقال : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة » وقال : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض» .

وفي ذلك دليل على عظم قدرهم عند الله وكرامتهم ودرجتهم عند الرسول (ص) .

الاصالة العربية بين القديم والجديد

والامة العربية هي الامة التي ينتسب اليها الرسول الأعظم والمهاجرون والانصار وبقية العرب من الجزيرة العربية وفي خارجها. وقد اعتبروا مادة الاسلام فيهم نزل القرآن الكريم ، واليهم تحدث الرسول (ص) في حديثه معهم كان جداله ومناقشته ثلاثة وعشرين عاما من مبعثه حتى التحاقه بالرفيق الاعلى . ومن هؤلاء العرب المسلمين كان الفاتحون الذين فتحوا بلاد الامبراطورتين : الساسانية والبيزنطية في خلافة الراشدين والامويين وجاهدوا أعداءهم بأموالهم وأنفسهم في سبيل (الله) اعلاء كلمة الله ، ونصرة الاسلام ومنهم كان القادة والساسة والخلفاء والمشرعون وحملة

العلم وفيهم ظلت الرياسة والسيادة طوال عصر الراشدين ، والامويين والعصر العباسي الاول وهم الذين كونوا المدينة العربية والامجاد الاسلامية وقد عدهم الله تعالى خير الامم وأشرفها نسبا اذ جعلهم شهداء على الناس .

وقد أصبحت يقظة العرب علما على الامة العربية وعلى جزءتهم وفي هؤلاء العرب المسلمين يقول الله تعالى :

« كنتم خير امة اخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١١٠ ـ آل عمران) .

وروى ان هذه الآية نزلت في المهاجرين الذين هاجروا مع النبي من مكة الى المدينة .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (١٤٣ ـ البقرة) .

« وان هذه امتكم امة واحدة وأنا ربكم فاتقون » (٥٢ ـ المؤمنون) .

وفيهم قال الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديثه الاتية :

« من سب العرب فأولئك هم المشركون » رواه محدث بلخ في عصره عبد الرحمن أبو القاسم الزاهد البلخي المتوفي سنة ٣٥٥ ھ بالسند عن أنس بن مالك الانصاري عن عمر بن الخطاب عن رسول الله (ص) .

« ان من اقتراب الساعة هلاك العرب » روته أم جرير .

« من أبغض العرب فقد ابغضني » حدث به أبو الصهباء النمري عن سلمان الفارسي وكانا يسكنان المدائن . قال أبو الصهباء : كنا عند سلمان بالمدائن فقال لنا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتحبني ؟ قلت :

أي والذي لا اله غيره • قال : فلا تبغضني ؟ قلت : ومن يبغضك يا رسول الله ؟ قال : من أبغض العرب فقد أبغضني » •

وقال عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم ، ولدت من خيار من خيار من خيار » يريد أنه من قريش وهم خيار العرب ، وان العرب خيار الامم•

ومن احاديثه عليه الصلاة والسلام في الامة العربية قوله :

« لا يكره العرب الا منافق » رواه علي بن أبي طالب (مسند حمو ج ١ ص ٨١) •

« حب العرب ايمان وبغضهم نفاق » رواه اصحاب السنن •

« أحب العرب لثلاث : لأني عربي ، القرآن عربي ، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي » رواه أصحاب السنن أيضا •

وقال عليه السلام « من أهان قريشا أهانه الله » •

و « اذا عز العرب عز الاسلام ، واذا ذل العرب ذل الاسلام » رواه الطبراني •

وكان الخلفاء يوصون العرب خيرا ، فقد أوصى أبو بكر عمرو بن العاص عندما وجهه الى أرض فلسطين بقوله : « اعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والانصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف حقهم • ولا تتطاول عليهم بسلطانك ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : ولأني أبو بكر لأني خيرهم ، واياك وخدائع النفس • وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك » •

وأوصى عمر بن الخطاب بالاعراب خيرا لانهم أصل العرب ومادة الاسلام وأوصى أن يؤخذ من حواش أموال أغنيائهم فيرد على فقرائهم• ومن وصاياه لولاته فيهم « لا تجلدوا العرب فتذلوهم، ولا تجمروهم

فتفتنوهم » وقد ذكرت اقوال كثيرة لعمر بن الخطاب في رواياتمختلفة •

وأوصى عمر بن الخطاب الخليفة بعده بتقوى الله لا شريك لـه ، وبالمهاجرين الاولين ، وان يعرف لهم سابقتهم •

وأوصاه الانصار خيرا ، يقبل من محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهـم كما أوصاه بأهل الانصار خيرا لأنهم درء العدو وحياة الفي وقيل للأحنف ابن قيس : ما فيه بقاءالعرب؟ قال : « اذا تقلدوا السيوف وشدوا العمائم، وركبوا الخيل ، ولم تأخذهم حمية الاوغاد » أي أن يعدوا التواهب فيما بينهم ضيما •

الميراث الحضاري

ويتمثل هذا التراث في عديد من الامور منها :

أ ـ المدن والمراكز الحضارية التي أنشأها العرب في الجاهليةوالاسلام في جزيرة العرب وفي آسيا وافريقيا وأوروبا خلال العصور • ويناهـز عددها نحو ثلاثمائة مدينة •

ب ـ العلماء الذين انجبتهم الامة العربية وبرزوا في كل ناحية مـن نواحيالتمدن •

ج ـ عبقرية العلماء المسلمين الذين نبغوا بفضـل العرب والديـن الاسلامي فملأوا الدنيا باتتاجهم وخدماتهم •

د ـ عروبة الثقافة الاسلامية في الدول الاسلامية التي اتخـذت اللغة العربية لغة لها ودونت علومها بها وتبنت تتاج العرب الحضاري بجميع اشكاله وألوانه •

هـ ـ التراث العربي • ان نظرة عجلى على تلك الاعداد الزاخـرة من الكتب المخطوطة والالوف المؤلفة من الكتب المطبوعة التي تمتلكهـا

مكتبات البلاد العربية والاسلامية والمكتبات الاجنبية العامة والخاصة ، وما ضاع بالاتلاف والتغريق والتحريق تطلعنا على أن العرب والمسلمين وضعوا هذا التراث وألفوا تلك المؤلفات باللغة العربية وبالخط العربي في مختلف البحوث العلمية والادبية والفنية التي تمتاز بالتنوع والعمق والاصالة • كما نجد اعدادا عظيمة من العلماء الذين تخصصوا بعلم أو أكثر وتركوا لنا تراثا ضخما وثروة علمية عظيمة • كل اولئك يدل دلالة صريحة على رسوخ العرب في الحضارة والتمدن ، وعلى شموخ الحضارة العربية وحيويتها ، وعلى تراث العرب الحضاري الأصيل •

العروبة وركائز الاسلام فيها

الاسلام في كافة مظاهره : في عقائده ، وعبادته ، ونظمه ومعاملاته لم يكن لطائفة معينة او لجنس خاص ، بل كان يطالب الانسانية كلها بعقيدة وأسلوب في العمل ، ولا يفاضل بين الناس الا بمقدار ما يقدمون من اجل العقيدة ، وبنوعية ما يعملون طبقا لهذه العقيدة •

من حظ العرب ان اختيروا لرسالة الاسلام ، ومن حظ العروبة انها كانت أحد ألوية الاسلام ، وهو الذي افصح عن مواهبها وساهم في تاريخها فامتزجت به في أمجد ادواره ، والمسلمون في العالم لا يؤلفون قومية واحدة ولا وطنا واحداً •

أن العروبة هي واقعنا الذي لا غنى لنا عنه وحاضرنا الذي لا حياة لنا بدونه ، ومستقبلنا الذي لا وجود لنا الا به • مسلمين ومسيحيين ، والذين يخلقون الأكذوبة القائلة أن الاسلام هو القومية العربية هم المستعمرون الذين هم في حرب مع القومية العربية وشعبها •

وقد يتخيل البعض ان موضوع العروبة بالذات ، والفصل بينها وبين الاسلام مركب صعب • (أن الفصل بين العروبة والاسلام قد يسيء الى الاسلام غير ان المستفاد من عمر العروبة والاسلام حتى الان انه ما عز

العرب وسادوا الا كانوا في خدمة الاسلام • وما وهنوا وانفرط عقدهم الا وأمكن لاعداء الاسلام محاصرته وتضييق الخناق حواليه •

ونحن العرب المسلمين في هذه المرحلة الدقيقة من عمر قوي النضال ضد الاستعمار وأطماعه • يحق لنا رغم ضراوة التحديات ضدنا أن نتفاءل مسبقا بالمستقبل القوي المزدهر لاننا نعيش في هذه الفترة التي سيقرأ عنها التاريخ الانساني ذاته ويقول عن نضال الامة هنيئا لهم لقد كانوا رجالا على مستوى المسؤولية ولقد شهدوا يقظة العروبة وتحديات الاستعمار

واذا ما نظرنا الى الاسلام نظرة عاجلة فاننا سنستخلص منه الصور التي تؤكد لنا بان الاسلام لم يكن في يوم من الايام دينا عالميا الا لاعتبار واحد بسيط • وهو ان الله حسب المفهوم الاسلامي هو رب العالمين وان محمدا حسب التعبير القرآني رسول للناس كافة •

والاسلام في كافة مظاهره : في عقائده وعباداته • في نظمه ومعاملاته لم يكن منغلقا قط ، ولم يحارب الاديان التي سبقته ، بل دعاها اليه للمجادلة والبحث بروح من الفهم العميق ، والسماح الرائع وسعة الصدر وحسن الخلق فقال : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن » (١)

---

(١) من الجدير بالذكر انه بعد ان التقت وجهات نظر كثير من المثقفين الى ان الحاجة قد أصبحت ماسة الى ان ينظر المسلمون الى كتاب ربهم نظرة جديدة وخصصت مجلة الهلال عدد ديسمبر عام ١٩٧٠ م ان أفردت للاب الانباشنودة ثمانية صفحات من ٢٠ ـ ٢٧ ليعرض فكره ومفاهيمه من القرآن عن المسيحية .

وكان ذلك بعد أن أقر لجميع الناس بحرية العقيدة « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم » .

وبعد أن وضع القاعدة المثلى للسلوك العقائدي الاسلامي الذي لا يؤمن بالاكراه ويقدس العقل النير « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » وبعد ان أكد ان محمدا ليس الا نبيا يوحى اليه ، كما اوحى الى داود ونوح قبل اولئك جميعا فقال تعالى « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده » .

ولو أن الاسلام أقر للعرب بشيء من الفضل أو السابقة، لرفع قدرهم وأجل شأنهم ، وأظهر ذلك للملأ . ولكنه جعلهم مسؤولين عن الفكرة وتنفيذها كغيرهم من الناس ، وانه ليس لواحد من بني البشر أن يفضل أخاه الا بالتقوى (لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) وذكر العربي بالذات . ثم انه من ناحية اخرى فرض على الجماهير الالتزام لأولي الامر ، دون النظر الى عروبتهم أو الى اعجميتهم ، ودون التفريق بين ألوانهم وأجناسهم فقال : (اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي رأسه كزبيبة) .

ثم ان قريشا وهي القبيلة التي كان منها النبي ، وشرفت بنبوته في أعين النسابين العرب ، وبلغت شأوا بعيدا ، قريش هذه فضل بعض الفقهاء شرف العلم على نبالتها حينما بحثوا قضايا الكفاءة بين الزوجين .

فأين هي آثار تدليل الاسلام للعرب ، حتى يتجرأ أناس على القول بأن الاسلام هو العروبة .

ورغم البساطة والوضوح والمعاني النقية التي جاهد بها الانبا شنوده لتقديم فكره الذي قرر به في نهاية مقاله بالحرف فليس معنى كل ما قلناه ، أن القرآن والمسيحيةشيء واحد كلا فهناك خلافات جوهرية. منها التثليث والتجسد والفداء ولاهوت المسيح وصلبه ، ومنها اسرار الكنيسة ومنهـا القرآن نفسه وأشياء اخرى كثيرة (صفحة ٧ عدد ديسمبر ١٩٧٠ م) الهلال فان أحدا من الكتاب المسلمين لم يضـق صدره بمثـل هذه الأفكار التي يتصور المسلمون دائما انه يحدوها روح الفهم والسماح .

يقول الدكتور مصطفى الرافعي في كتابـــه « الاسلام انطلاق لا جمود » :

ان العروبة لا تخيف قومية هادية ، تجمع كل المال والنحل ففيم الحيرة اذن ، وعلام الريبة والشك ؟ أمن الاسلام ، أمن ذلك الدين الحنيف العادل المرتفع ؟

ان الذين يحاربون العروبة يريدون لها ــ قوة واقتدارا ــ ان تكون في صف الاسلام ، حتى تتكون ضدها جبهة من تجار الاديان المتحالفة ولأن نعتها بالاسلام ، وجعلها بديلا عنه وجعله بديلا عنها يخدم هؤلاء التجار ، ويوفر عليهم عناء كبيرا في اذكاء نار الطائفية وبث سمومها وبالرغم من اننا بصدد البرهنة على ان العروبة قومية من القوميات التي كثر فيها المسلمون وليست الاسلام نفسه بالرغم من ذلك ، فاننا سندفع بايجاز شديد عن هذا الدين بعض ما اتهم به معتقدوه ، دون أن نجافي عنصر الموضوع ، لان العروبة قرينة الاسلام وشريكته في هذا الاتهام .

لنستمع معا الى قول الله تعالى « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » ألا نلاحظ

فيه أنه يعتبر صوامع الرهبان شقيقة لمساجد اتباع الاسلام ؟ ثم ألم يكن الاسلام نبيلا حينما قدم معابد النصارى واليهود على مساجد المسلمين ؟ ان سلوكه في هذه الناحية سلوك مفعم بالتسامح والاكبار والاجلال لأهل الكتب السماوية من اليهود والنصارى • فقد حظر على المسلمين ان يستخدموا معابد الذميين لأداء الصلاة حتى لا يدعي المسلمون فيما بعد حقا عليها • وما زال يتخايل امام ناظري ظل الخليفة العادل عمر بن الخطاب، وهو قائم يصلي خارج كنيسة بيت المقدس ، لا لشيء الا ليؤكد للمسلمين عمليا احترام المسلم لأخيه المسيحي احتراما يقوم على محبته وتقديره للكنيسة [1] •

أما ما فعله ذلك الصحابي الصادق ابو بكر رضي الله عنه ، وما أوصى به جنده حين سيرهم في سبيل الله ، من اجتناب البغي والعدوان ، والامتناع عن قتل الاطفال والنساء والشيوخ ، وحينما نهاهم عن التعرض بقليل أو كثير للرهبان المنتشرين في صوامعهم في البلاد ، كل ذلك اصبح مشهورا بين الناس ومعروفا ، ولست أجد فائدة من تكراره في هذا المقام •

ولقد احترم الاسلام اتباع الأديان الاخرى احتراما لا يكنه حزب سياسي في القرن العشرين لأنصار حزب سياسي آخر ، واذا كانت الظروف السوداء قد جعلت بعض القائمين على تأخر المسلمين يحكمون بغير ما أنزل الله وعلى غير عملائه بالدين فليست هذه جريمة الدين بل جريمة رجاله، وليست مبررا للحملة عليه بل على القائمين بأمره •

---

(١) الاسلام انطلاق لا جمود ـ بقلم الدكتور مصطفى الرافعي ، الكتاب الثلاثون بلجنة التعريف بالاسلام من المجلس الاعلى للشئون الاسلامية صادر عام ١٩٦٦ م. انظر صفحات ١٢٤ ــ ١٤٠ •

ولكي نظهر مدى هذا الاحترام الذي يضمره الاسلام لسائر ابناء الديانات الاخرى علينا ان نلجأ الى القرآن الكريم وهو أصدق دليل عندنا ، وفيه ما يدل بوضوح على اعتباره التقديسي لروح الموسوية الصحيحة اذ يقول « وتمت كلمة ربك الحسنى على بني اسرائيل بما صبروا » وفيه ما يطمئن المسيحيين صراحة بأنه يجل المسيحية الربانية أيما اجلال ويكرم نبيها أيما تكريم اذ يقول له « يا عيسى اني متوفيك ورافعك الي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا » .

بقي الان ان نثبت للعروبة تاريخها المنفصل عن الاسلام وحضارتها الفردية ذات الطابع الخاص ، وانها كان لها رجالها وامجادها وكانت حقبة من الزمن لعبت فيها الدور الاساسي الاول في سياسة هذه البلاد وحكمها وشؤونها . وقبل ان نخوض هذا البحث التاريخي الصرف ، نحب ان نوجه الأنظار الى بعض الملاحظات الهامة التي تعبر عن وجهة نظرنا تعبيرا صادقا بدون غموض .

أولا : على الذين يؤمنون بأن الاسلام هو العروبة ان يؤمنوا بالمقابل بأن المسيحية هي الانكليزية أو الفرنسية او الايطالية او الاسبانية .

ثانيا : من حظ العرب أن آمنوا برسالة محمد وحملوها الى جميع الانحاء ، واذا كان انتسابهم اليه ، يجعلهم بدلا عنه ، فلماذا تكون الأندونيسية بدينته أيضا ؟

والان لنرجع الى التاريخ القديم نقلب صفحاته بامعان وتجرد بحثا عن حضارة العروبة ومدنيتها .

هذه واحة خصبة تمتد في الطرف الشمالي من الصحراء العربية

يكتنفها دجلة والفرات وسهول حلب وحمص وانطاكيةوواحة دمشقوسهول حوران .

انها تدمر عاصمة أذينة والزباء ، عاصمة الدولة الفتية التي لعبت دورها الخالد في التاريخ.

لقد تنبه الرومان الى الموقع الاستراتيجي الهام لهذه الواحة فأرادوا أن يستولوا عليها نحو عام ٣٦ قبل الميلاد . فهاجمها قائدهم مرقص انطونيوس عندما كان عائدا من حرب الملوك الأرشكيين .

وما أن وصلت أنباء هذا الغزو الى مسامع التدمريين العرب حتى هبوا لملاقاة القائد الروماني الغازي دفاعا عن مدينتهم ونشبت بين الفريقين معركة من اعنف المعارك قدر فيها للتدمريين أن ينتصروا وأن يحطموا النير الأجنبي .

ولكن الرومانيين لم ييأسوا فهم يعرفون اهمية المركز التجاري والحربي لمدينة تدمر ، ويعرفون ان الاستيلاء عليها ضرورة من ضرورات البقاء لامبراطوريتهم ، فعمدوا الى فرض الحصار الاقتصادي عليها ، وانبروا يعتدون على القوافل التدمرية وينهبونها بعدما صمد في وجههم جيشها الباسل .

وظلت تدمر على صمودها نحواً من قرن ولكنها اضطرت امام الضيق الاقتصادي الناتج عن الحصار وتوالي غارات الرومان على تجارتها اضطرت الى الارتماء في حضن الامبراطورية .

ولكن ارتماءها هذا لم يفقدها طابعها الحضاري ولم يوقف نمو مدنيتها مما ساعدها بعد قليل على الانتفاض والثورة في وجه الفاتحين .

وكان ذلـك في عهد أذينة الاول ابن السميدع وهو من قبيلة عربية كبيرة من القبائل المعروفة عند الفرنج •

لقد كان أذينة يتصرف في صباه كما يقول المؤرخ (ن• باوليون) تصرف الرجل ، وكان يصطا دالسباع والفهود والدببة وغيرها من الوحوش الضارية • وكان يحتمل في سهولة ويسر الحر اللاهب والبرد القـارس في السهول والجبال والغابات • كما كان يتحمل متاعب هذا الصيد في رضى وسرور وبفضل هذه الرياضة المفضلة استطاع ألا يرى أوار القيظ وأهباء الزوابع في معارك فارس غير أمر عادي لا يعبأ به ولا يؤبه له •

لقد كان اول عمل قام به أذينة العربي خلع سلطة الرومان وتحريـر تدمر ، والتحالف مع سابور ملك فارس الذي كان خطره يقترب يومئـذ من بلاد الشمال •

غير ان سابور مني في احدى معاركه مع الرومـان باندحار هائل ، حمله على التراجع الى الفرات ثم الى فارس ، ومكن للخطر الروماني ان يقترب من الشرق ومن تدمر بالذات ، فأدرك أذينة ان الرومان سيسحقون جيشه وسينتقمون منه جزاء ثورته عليهم ، وأدرك ان سابور حليفـه لا يستطيع تقديم المعونة اليه بعد اندحاره الفظيع في بر الشام امام جحافـل الرومان ، فلجأ الى ذكائه وسعة حيلته كيلا يعرض تدمر لاستعمار روماني جديد •

وقرر سلوك نهج سياسي جديد ينقذ مملكته ، فأعلن ولاءه للرومان وذهب لمحاربة سابور باسمهم ، ثم ارتد الى تدمر وقبع فيها يترقب الفرص ويتحينها للسيطرة على جميع البلدان العربية وطرد النفوذين : الرومانـي والفارسي معا •

ومرت رومة بعهد الانحطاط والضعف ، وكان سابور قد استعاد قواه فشن على الرومان حربا ثأرية كتب له فيها النصر •

وفكر أذينة في موقفه تجاه هذا الوضع ، وأحس أن سابور يبيت له الشر فحاول ان يتقرب اليه تجنبا للاصطدام به ، الا أن سابور داخله الغرور والصلف فكان لا مفر لأذينة من أن يحاربه •

وقدر للبطل العربي ان يدحر سابورا وجيشه ، وأن يحطم كبرياءه وعنجهيته بما أوتيه من قوة البأس والذكاء ومهارة التصميم •

وانكفأ أذينة لمقاتلة الرومان فسار الى حمص وحاصر الجيوش الرومانية فيها وتمكن من فتح المدينة وقتل قائدها (كياتوس) •

وتم لأذينة اخراج الرومان من شمالي سورية وتحقق على يده قيام مملكة عربية مستقلة •

وكان أول ما سعى اليه مؤسس هذه المملكة هو القضاء على الاضطهاد الذي كان نصارى الشام في انطاكية وحمص ودمشق وقيسارية عرضة له فأطلق لهم الحرية الدينية وأوعز الى الوثنيين ، وكان هو وثنيا ـ أوعز اليهم ألا يتعرضوا للنصارى في قضاء فروض عبادتهم وأباح لهم اقامة البيع والكنائس •

ولكن أذينة لم يفسح له لتزدهر الحضارة العربية التدمرية على يديه فكثيرا ما يكون المصلحون الثائرون اول الضحايا لثورتهم • وهكذا قدر لأذينة ، فلقد غدر به أحد أبناء عمه ، بينما كان يتوجه الى حمص لقتال القائد الروماني هرقليوس •

قد يقول قائل : ان الطموح لا الاحساس العربي هو الذي دفع أذينة لأن يبني ملكا له •• فنجيب : ان عنصر الطموح لا يمكن نكرانه حقا ، ولكن الاحساس القومي كان هو أهم الدوافع التي حملت أذينة على التمرد

والوقوف في وجه اقوى دول عصره بل الدولتين اللتين تسيطران يومذاك على العالم وأعني بهما الفرس والرومان .

فلقد حز في نفس هذا البطل ان يظل قومه مطايا اطماع الفاتحين ، وان تظل بلادهم موطئا لسنابك خيلهم ، فآثر المغامرة ونذر نفسه لتحريرهم من العبودية ، وجاءت من بعده زوجته الزباء أو زينب أو زنوبيا كما أطلق عليها الرومان واليونان جاءت من بعده تكمل رسالته وتعمل على ازدهار المملكة .

فلقد تولت الحكم في سنة ٢٦٧ ميلادية ، بعد أن ورث ابنها البكر « هبة اللات » لقب ملك الملوك ومصلح الشرق .. وأخذت تنظم شؤون مملكتها وتوجه اهتمامها ــ جل اهتمامها ــ الى الجيش ، وتشرف بنفسها على التمرينات العسكرية ، وتشاطر جندها شظف العيش وخشونة الحياة وتعد نفسها لتحمل أعباء القيادة .

وكان النفوذ الروماني بعد وفاة أذينة قد انبسط من جديد على المملكة التدمرية فراحت الزباء ترقب الاحداث ، حتى اذا دبت الفوضى في الامبراطورية الرومانية أعلنت ابنها « هبة اللات » قنصلا ثم امبراطورا .

وكانت الخطوة الثانية التي أقدمت عليها هي ضرب نقود باسم ابنها الامبراطور ووضعها في التداول ، وفي عام ٢٧٢ ميلادية قامت بهجوم صاعق على مصر فخلصتها من قبضة الرومان ، بعد ان سيرت لهذه الغاية جيشا مؤلفا من سبعين الف مقاتل يقوده (عبدوس) أو زيد كما يذكر الاستاذ كرد علي في كتابه خطط الشام .

وما كادت انباء النصر تصل الى تدمر ، حتى سارعت الزباء فأعلنت نفسها قيصرة و « هبة اللات » قيصراً ، وضربت نقودا جديدة تحمل صورتها ولقبها الجديد كما تحمل صورة « هبة اللات » ولقبه .

وسار عبدوس الظافر الى آسيا الصغرى فبلغ انقرة وسواحل البوسفور وكانت غاية زنوبيا من هذه الحمنة الجديدة تحرير آسية من النفوذ الروماني ولكن جيشها عاد دون قتال عندما لاحظ تصميم الاسيويين على ابقاء النفوذ الروماني .

وكان من الطبيعي ان يحقد الرومان على تدمر ، وان يحاولوا هدم سلطانها فحشدوا قواهم وهاجموا مصر فأعادوا سلطانهم اليها رغم مقاومة المصريين الضارية . عندئذ رأت زنوبيا أن تركز الدفاع عن مملكتها ولكن (أوليان) امبراطور الرومان ، وهو الذي يعرف بسالة التدمريين لجأ الى الحيلة والخديعة فتظاهر بالانكسار في احدى المعارك ورجع عن انطاكية ثم أمر جنوده بنصب كمين وراء تلال المدينة وبساتينها .

وظن التدمريون ان الرومان قد هزموا فعلا فاندفعوا ليقعوا بالكمين ويمنوا بخسارة فادحة ، رغم براعة عبدوس في الانسحاب الى حمص ليجعل منها خطا دفاعيا جديداً عن المملكة .

وفي سهل حمص رأت الزباء ان كفة الرومان العسكرية هي الراجحة فجمعت مجلس قيادة الحرب للتشاور وسرعان ما تقرر التراجع الى تدمر واتخاذها حصنا اخيراً .

وحاصر اورليان تدمر وطال حصاره لها ، وعز على الزباء ان تستسلم فامتطت هجينا وانطلقت قاصدة بلاد فارس لتطلب نجدة سابور ولكن جنود الرومان ادركوها وهي تعبر الفرات فقبضوا عليها واعادوها اسيرة .

وعظم عليها ان تنهار مملكتها فأعلنت وهي في أسرها الصوم عن الطعام الى ان فاضت روحها ، فانطوت بموتها صفحة من صفحات النضال العربي وانهارت تدمر عاصمة الثورة على الاستعمار في القرن الثالث الميلادي وحاضرة العاهلين العربيين العظيمين أذينة والزباء .

وتعالوا معي نسير عبر التاريخ .. نودع تدمر وحضارتها ، لننشر صفحة اخرى من صفحات المجد العربي قبل الاسلام .

ها نحن اولاء ... في مشارف الشام بين مضارب الغساسنة ... فهلموا نستنطق التاريخ عن امجاد هؤلاء السمر الأشاوس ، الذين بنوا ملكا وأقاموا حضارة قبل انبثاق الفجر الاسلامي .

ان الحديث عن الحضارة النامية في مرابع هؤلاء العرب حديث محبب ولكنه اثير ايضا عن قبيلة اخرى مسيحية عربية . هي قبيلة بني تغلب التي اشتركت في معارك عربية خالدة ، واشتهر منها شاعر كبير هو الاخطل . وأجدني الان مدفوعا لتلمس معالم حضارة عربيةاخرى في الصحراء العربية السمراء وفي اليمن التي اطلق عليها الفرنجة منذ القدم لقب : العربية السعيدة .

تعتبر بلا دالعرب الجنوبية من اقدم مراكز الحضارة عند الامم السامية اذ كان موقع اليمن الجغرافي من أهم الاسباب التي أدت الى نشوء حضارة مترفة في ديارها فسبقت بذلك المناطق الشمالية من الجزيرة العربية ، وتتمتع هذه المنطقة بخصب وافر في جبالها العالية وهضابها المخضرة ، وسهولها الفسيحة كما تتمتع بحكم وجودها على طريق الهند ، بموقع تجاري بالغ الأهمية ، وقد ساعد هذان العاملان على ازدهارها ونمو الحضارة فيها ولقد أطلق الدكتور حتي على عرب اليمن اسم فينيقيي البحر الجنوبي ، لانهم رسموا خرائط هذا البحر ، وسيطروا على رياحه ، وتحكموا في تجارته في الألف والخمسمائة سنة قبل المسيح .

وكانت لليمنيين طرق تجارية اخرى في البر من حضرموت الى قارب ومنها الى مكة والبتراء ثم الى سورية ومصر والعراق ، وكانت لغة سكان

تلك البلاد اللغة الحميرية ، أي اللهجة العربية الجنوبية ، الى زمن يقرب من الفتح العربي ، حين اخذت اللهجات الشمالية تتمتع بقوة وعزة بينما اخذت اللهجات الجنوبية تتدهور ، وكان ذلك لفقدان بلاد اليمن حريتها واستقلالها فتدهورت حضارتها وانحطت فاستلزم ذلك انحطاط اللهجات الجنوبية وتلاشت لتحل محلها العربية الشمالية التي كانت تتمتع بدفق من الشباب والفتوة .

أما الدول العربية التي تداولت الارض اليمنية فأقدمها الدولة المعينية التي ازدهرت في اليمن بعد سنة ٦٥٠ قبل الميلاد .

وقد سيطرت في نهضتها على معظم اقسام الجزيرة العربية وما تزال معين العاصمة التي تحمل اسم الدولة المعينية الكبرى حتى اليوم كما ان معان المصرية تدلنا على امتداد تلك الدولة الى اطراف البلدان المجاورة للجزيرة .

وقد استطاع المؤرخ « موللر » ان اكتشف ستة وعشرين ملكا من ملوك دولة المعنيين اليمنية .

وكان السبائيون ورثة المعنيين قد بسطوا نفوذهم وسيطرتهم على جنوبي الجزيرة العربية وحكموها ، وكانت عاصمتهم قديما (مراوح) ثم أصبحت مدينة مأرب المشهورة بدورها العظيم . وكانت هذه المدينة ملتقى الطرق التجارية بين الشرق والغرب .

وبعد سنة ١٥٥ قبل الميلاد ، يبدأ عهد دولة عربية جديدة هي المملكة الحميرية الأولى امتد بقاؤها حتى سنة ٣٠٠ بعد المسيح وكانت عاصمتها (ظفار) ويروي لنا التاريخ قصة القائد الروماني (اليوس غاليوس)الذي حاول غزو اليمن على رأس جيش روماني لأهميتها التجارية ، ولكنه لم يوفق في غزوه وعاد مع بقايا جيشه المنهزم الى مصر .

في هذه الحقبة من التاريخ ، عبر العرب ارض كوش ، ووضعوا فيها أسس المملكة الحبشية فكان لهم الفضل الاول في انشاء تلك الحضـارة الحبشية • وبنى ملوك حمير ، تخليدا لاسمهم قصر رغدان ، الذي بقـي قائما نحو (٦٠٠) سنة وشاهده الهذاني ووصف روعته وما حوى فـي بنائه من آيات الفن والزخرف •

وفي القرن الاول بعد المسيح ، ينحرف التاريخ انحرافا خطيرا يؤدي في النهاية الى تلاشي سيطرة كل من اليمن وتدمر والبتراء وذلك ان العرب اليمنيين وكانوا كما قلنا يسيطرون على طرق التجارة بين الشرق والغرب ويفرضون رسوم المرور على البضائع ويجبون منتجات بلادهم بأسعـار باهظة • وكان عرب البتراء وتدمر والعراق يتحكمون من جانبهم بالتجارة الشرقية الى ان سقطت مصر بيد الرومان فأعاد بطليموس الثاني فتح القنال القديمة بين النيل والبحر الاحمر ، وتمكن الرومان بمساعدة الاحباش من الوصول الى المحيط الهندي فتم بذلك القضاء على السيطرة التجارية لليمن والبتراء وتدمر • وبدأ عهد الانحطاط في اليمن مع قيام الدولة الحميرية الثالثة ، التي تدخل المسيحية واليهودية في أيامها بتلك الأصقاع • فتستبدل الحكم وينقسم عرب اليمن الى يهود ونصارى ، ويتآمر « ذونولس » اخر ملوك حمير على نصارى اليمن الغربي ، لخضوعهم لنفوذ الحبشة ، فيدبر لهم مذبحة في عام ٥٣٣ م ويتنادى النصارى الى الثأر ويعبر سبعون الفـا من نصارى الحبشة بأمر من امبراطور بيزنطية ارض اليمن ، ليتحكموا بأهلها جميعا من نصارى ويهود بعد ان زعموا انهم جاءوا لحماية النصارى والثأر لهم •

وتجدر الملاحظة هنا ان هذا الاسلوب الاستعماري ظل الى يومنـا هذا وسيلة بارعة من وسائل الدول الكبرى لتفريق الشعوب الصغيـرة واستعمارها وفي هذه الفترة يتهدم سد مأرب العظيم على يدي القائـد

الحبشي (ابرهة) ويتعذر ترميمه ويهجر بنو غسان واللخميون اليمن الى حوران والحيرة وكذلك يفعل الكثيرون من بني طي والتنوخيين وكندة.. وكثير غيرهم من عرب اليمن .

وبقيت اليمن مستعمرة حبشية الى ان قام (سيف بن ذي يزن) يريد تحريرها بتعاونه مع الفرس ولكن امال القائد العربي اصيبت بالفشل حتى وجد ان الفرس ينوون الحلول مكان الجيش الحبشي في استعمار اليمن.

وهكذا استبدلت اليمن استعمارا حبشيا باستعمار فارسي ظل مسيطرا الى ان ظهر عرب الشمال في القرن السابع بعد المسيح في احدى الحملات التي شنها اتباع الدين العربي الجديد .

هذه ملامح من حضارة العرب قبل الاسلام ليس باستطاعة أي مؤرخ مهما كانت مقاصده وغاياته ، ان يشوه حاضرة اليمن الزاهرة أو ان يتجاهل الأنباط ، حلقة الاتصال بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الاحمر واليمن أو اهمال حضارة سلع وتدمر والمناذرة والغساسنة .

وهكذا نسير في معارج التاريخ فنجد المسيحية تدخل الجزيرة فيتنصر الكثيرون من ابنائها ثم تنبثق الارض العربية عن الرسالة المحمدية فيكون الاسلام دين القومية العربية وابنا عبقريا لها .

وكيف لا يكون العربي عربيا لانه اعتنق المسيحية أو الاسلام ؟ وما علاقة الدين ـ كرسالة سماوية انسانية لكل الناس ـ بالقومية المختصة بشعب من الشعوب ؟ لقد كانت العروبة ثم كانت المسيحية ، وكان بعدها الاسلام فعاشت هاتان الديانتان السماويتان في الارض العربية شقيقتين متجاورتين متجانستين . فمن أين جاء هذا الوهم الشائع بأن العروبة تعني الاسلام ؟ وبأن المسيحيين في هذا الشرق العربي غرباء ، ليس لهم من امجاد هذه الامة العريقة ما للمسلمين ؟؟

انه الاستعمار • • الاستعمار الذي يحاول دائما ان يندس فـي صفوفنا ليفرق ويسود • الاستعمار التركي الذي جـاء من قبل ليحتضن المسلمين كما يدعي ، فاذا به نير ثقيل يثقل اكتاف المسلمين قبل المسيحيين واذا بالثورة التحررية تنطلق من صفوف المواطنين الشرفاء ، دون النظر الى دياناتهم المختلفة ، واذا بأعواد المشانق ينصبها السفاح التركي جمال ، لقادة الحركة التحريرية مسلمين ومسيحيين واذا بالدماء المهراقة تنصهر في وحدة وطنية رائعة ، هي شيء من هذا القبس الحي المتوثب في روح كل فرد انه الشعور القومي ، الشعور بالوطنية الصحيحة الصادقة التي تلف الجميع في النكبات وتصهرهم ببوتقة الوحدة الوطنية •

ويمضي الاستعمار التركي غير مأسوف عليه وتتنشق هواء الحريـة ملء رئاتنا ولكن هذه الحرية ، ما تلبث ان تختنق بين قبضتي الاستعمـار الفرنسي ومن بعده الانجليزي الذي جاء هذه المرة مدعيا حماية المسيحيين من المسلمين • وكانت وسيلته هذه المرة تجزئة الوطن الواحد الى اوطان وكيانات ، كان بعضها من نصيب فرنسا والبعض الاخر لقمة سائغة للانكليز ثم اليوم يبتلي العالم العربي كله بأطماع الاستعمار الامريكي في المنطقة وذلك عن طريق دولة العدوان « اسرائيل » •

ويود الاستعمار في النهاية ان يقنع الاقلية المسيحية في الوطن العربي ان وحدة هذه الأقطار هي وحدة دينية فحسب يجمعها الاسلام ، وتاريـخ الاسلام ورسالة الاسلام ولكن الفئات الواعية من غير المسلمين والمسلمين كانت تلقم هذا الاستعمار حجرا كلما طاب له ان يردد هذه النغمة ليمتص خير ارضنا ويسرق رخاءها •

لقد فصلتنا عهود الاستعمار البغيضة عن التاريخ العربي فجهلناه او جهله معظمنا جهلا فاضحا ، وساعد على ذلك الثقافة الاجنبية التي لم تكن

تلقننا العلوم فحسب بل تلقننا معها ان ننسى تاريخنا • وان نهمل تراث اجدادنا الحضاري ليكون جيلنا جيلا منقطع الصلة بماضيه يعيش حاضره الأسود القاتم باكيا محطما فيندفع الى أحضان الحضارة الغربية التي تقدم اليه على اطباق من ذهب ، فيكون بذلك قد فقد عروبته الاصلية وأصبح عضوا مشلولا غير ذي فاعلية في جسم العالم الكبير •

كانت هذه الاسباب تتراكم على الشرق العربي في فترة سوداء من تاريخه ، في عصر انحطاط تروج فيه الشائعات ، وتسود فيه المغالطات وبعض الناس والواعون منهم يحاربون اخطارا اكبر من هذه والبعض الاخر يتخبط في محيط من الجهل طاغ ، ونحن واثقون في هذه الفترة التحررية التي تحياها بلادنا ، ان الضباب سينقشع ، وان الحقائق ستبدو جلية واضحة حين يكتب تاريخنا من جديد ، وحين نقضي نهائيا على هذا الدخيل الكريه •• الاستعمار ، حين نقضي على اطماعه وأذنابه ومطاياه في بلادنا •

وبقي علينا بعد ذلك ان نوضح مكان الاسلام في الوطن العربي :

ان القومية كما نعلم هي هذه الارض التي تنمو عليها مواهب الامة من اداب وفنون وعلوم وحضارة • والاسلام في تاريخ العروبة ثورة تحريرية نضالية وانتفاضة جريئة لهذه الامة كشفت عن غيوم الجاهلية وحررت الشعب العربي في سورية ولبنان وفلسطين والاردن ومصر من نير الرومان كما حررت العراق من نير الفرس •

أنه انقلاب جذري في حياة العرب وفي نفوسهم أهلهم لقيادة العالم القديم لتحقيق مثل قيمة ، وحمل رسالة الخير والحق والعدالة لكل الناس •

فالاسلام اذن في حقيقته يفصح عن مواهب العروبة وعبقريتها ،

ساهم في تاريخها وحمل رسالتها فامتزج بها في أمجد ادوارها .. ومع هذا فالاسلام ليس العروبة ، والقضية العربية ليست قضية اسلامية لان في العرب مسلمين وغير مسلمين . ولأن القومية غير الدين .. والا لوجب أن يؤلف المسلمون في العالم كله قومية واحدة ووطنا واحدا ، وان يؤلف المسيحيون بدورهم قومية واحدة ووطنا واحدا ، وهذا مغاير للحقيقة والواقع .

ولماذا نذهب بعيدا نسبر اغوار التاريخ ونكشف حقائقه ونحن نعيش واقعا جليا يوضح القضية من جميع جوانبها .

أفليست تركيا المسلمة من القوى التي يحاول الاستعمار دائما استغلالها ضد القومية العربية ؟

ألم تكن تحتضن هذه الدولة المسلمة اسرائيل ؟ وتشترك معها ومع بريطانيا وفرنسا في التآمر ضد القومية العربية المتوثبة ؟ والتي تنتفض من جديد لتستعيد مركزها في العالم ، وتتحمل رسالتها في الخير والسلام بعد ان فرض عليها الاستعمار هذه الهجعة الطويلة .

أفلا نجد تركيا المسلمة تطل من وراء كل مؤامرة اجنبية تكيد لهذه الامة التي تنشد السيادة والحرية فاذا بالارض التركية مسرح حيكت عليه وتحاك عليه مؤامرات الاستعمار ، واذا بالمسؤولين هناك اقطاب في تدبيرها؟

وايران والباكستان المسلمتان — أين هما من ضراوة الحرب التي توجه للعروبة المسلمة أي للاسلام ، أليس في هذا أكبر دليل على ان العروبة حقيقة اخرى تنبع من الارض والشعب غير وحدة الدين ودعوته.

خصائص الدعوة في هذا الدين

تتميز الدعوة الاسلامية من بين جميع أنواع الدعوات بأن الاساس في أسلوب الدعوة لا يتناقض مع طبيعة وجوهر هذه الدعوة فجملة القضايا

التي يقوم عليها دين الاسلام لا تحمل الدعوة الاسلامية في حركتهـــا وانتشارها معنى اخر غير هذه الاسس والقضايا الاسلامية •

ومن هنا فيكاد ان يكون الحديث عن الدعوة الاسلامية على علاقة موضوعية بل ومتصلا بوحدة عضوية لكل ما يتعلق بدين الله •

وعلى هذا يذهب بعض العلماء من المسلمين الى تعريــف الدعــوة الاسلامية بأنها هي دين الله الذي بعث به الانبياء جميعا تحدد على يــد محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين كاملا وافيا لصلاح الدنيا والاخرة•

ونقدر هنا ونقول بادىء ذي بدء ان هذه الدعوة الاسلامية تستمد بقاءها من امرين :

الاول ــ كونها من عند الله رب العالمين •

والاخر ــ صلاحيتها لكل زمان ومكان بعد مجيئها على يد خاتـــم النبيين والمرسلين • ونبوات الانبياء السابقين ورسالاتهم وان تحقق فيها الامر الاول فبالنسبة للامر الآخر كانت محدودة الزمان والمكان وقد يبعث الله أكثر من نبي في وقت واحد وفي مكان واحد وان من أمـــة الا خـــلا فيها نذير •

وهذا التدرج طبيعي في الوصول الى الكمال •

وطبيعي أيضا ان تستوعب الرسالة الخاتمة اصول الرسالات السابقة وتتحدث عن رجالاتها وتعد الايمان بهم اصلا في الايمان بها •

وهم جميعا يأخذون من مشكاة واحدة ويدعون الى اله واحد (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا تعبدون) •

ولقد أوحي اليك والى الذين من قبلك لان اشركت ليحبطن عملك فما هذه الدعوة اذن بعد ان تمت وكملت على يد خاتم النبيين محمد صلى

الله عليه وسلم يمكننا أن نقول انها دين الله الذي ارتضاه للعالمين يمكننا لخلافتهم تيسيرا لضرورتهم ووفاء بحقوقهم ورعاية لشؤونهم وحماية لوحدتهم وتكريما لانسانيتهم .

واشاعة للحق والعدل فيما بينهم .

هي الضوابط الكاملة للسلوك الانساني وتقرير الحقوق والواجبات وهي قبل ذلك وبعده الاعتراف بالخالق والبر بالمخلوق .

لكن هذا القول ــ وان صور الحقيقة من بعض جوانبها أو من حيث نتائجها لا يقربنا كثيرا من اصول هذه الدعوة التي لا تتغير بتغير الزمان او المكان فما هذه الدعوة اذن من حيث اصولها العامة التي تضمن النتائج العملية لوحدة الانسانية وأمنها وسلامتها وسعادتها وبرها .

يمكن تصورها في ظل الامور الاتية :

١ ــ ان هذه الدعوة كما ذكرنا هي دعوة النبيين جميعا تجددت على يد محمد (صلى الله عليه وسلم) خاتم النبيين ولهذا فرض الاسلام الايمان بالرسل جميعا .

(قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسماعيل اسحاق ويعقوب الاسباط وما اوتي موسى وعيسى وما اوتي النبيين من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون) .

وعد التفرقة بينهم كفرا بهم جميعا وتكذيب احدهم تكبالهم جميعا .

(ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون ان يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون ان يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا . واعتدنا للكافرين عذابا مهينا .

وأنت تقرأ في صورة الشعراء عن قوم نوح (كذبت قوم نوح

المرسلين) وعن قوم هود (كذبت عاد بالمرسلين) وعن قوم صالح (كذبت ثمود المرسلين) وعن قوم لوط (كذبت قــوم لوط المرسلين) وعن قــوم أصحاب الايكد (كذب اصحاب الايكد المرسلين) ومن هنا نستطيــع أن نقرر ان العالم تجمعه في الأصل وحدة دينية •

وان الفرقة في الدين من صنع الاهواء والشهوات يبرأ منها الانبيــاء جميعا (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء انما أمرهم الى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) •

انه بنيان واحد عملت فيه أيدي الانبياء جميعا وما اجمل الانصــاف وأنت تسمعه من فم الصادق الامين وهو يقول (ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فحسنه وجمله الا موضع لبنة من زاوية فجعــل الناس يلفون به ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) •

٢ ــ ان رسالات الانبياء جميعا دعت الى هذا الاصل الخالد (الايمان بالله واليوم الاخر) • ولذا أنكر الاسلام على الذين انحرفوا لهذا الاصل ونسبوه الى الدين ظلما وزوراً •

أنكر علىاليهود أن يقولوا (عزيز ابن الله) وعلىالنصارىأنيقولوا تارة (للمسيح بن الله) وطوراً (ان الله هو المسيح بن مريم) (وقالــت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله انى يئفكون) •

(لقد كفروا الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم) •

والاسلام في انكاره هذا الانحراف بالعقيــدة انما يدعو الانسانية الى وحدة ايمان صادق في ظل توحيد صادق وهو يقرر على ألسنةالرسول انهم جميعا دعاة الى الله وحده وانهم ما طلبوا من أقوامهم الا أن يعبدوا الله ما لهم من آله غيره •

(واذا قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامـي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحـق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب) •

(ما قلت لهم الا ما أمرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنـت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت انت الرقيب عليهم وانت على كل شيء شهيد) •

(لقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الـه غيره) •

(والى عاد اخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الـه غيره) •

(والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من الـه غيره) •

(والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قـوم اعبـدوا الله ما لكم مـن اله غيره) •

والاسلام في اثباته لرسالات السابقين على هذا النحو الخالد يقدم للانسانية الحقيقية التي ظلمتها اهواء الناس وانحرفت بهـا شهواتهم في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفـه تنزيل من حكيم حميـد (ليهلك من هلك عن نبيه ويحيى من حي عن نبيه) •

وكأن بهذا يقول لاتباع موسى ان كنتم تؤمنون بنبيكم فهذا دينـه فأطيعوه ولاتباع عيسى ان كنتم تحبون رسولكم فهذا دينـه وسبيلـه فأطيعون ولا تظلمون وللانسانية جميعا (وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم لعلك تتقون) •

٣ ـ والاسلام مع انكاره على اليهود والنصارى انحرافهم بالعقيدة لم تكن وسيلته في اقناعهم الا التفاهم بالحسنى والدعى بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن • وهو يذكيهم وما يدينـون اذا لـم يتعرضوا له بأذى ولم يصدوا عن سبيله وهو يطالب اتباعه بتحقيق العـدل معهم والانصاف في معاملتهم •

(فلذلك نادى واستقم كما أمرت ولا تتبع اهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم • الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم أعمالكم لا حجر بيننا واليه المصير) •

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولاهم فأولئك الظالمون) •

ان الماء العذب يجري في مجراه الطبيعي •

ومن حق كل انسان أن يرده حين يرد فلا يجد من يصده أو يصرفه عن المورد • والشمس من مدارها وعلوها تلقي شعاعها وتبعث ضوءها • ومن حق كل انسان ان ينعم بضوئها وأن ينتفع بشعاعها •

فان رغب انسان عن النهر وزهد في النور فله ما أراد ولن يكرهـه احد على هذا أو ذاك • أما من صد عن الماء أو حاول أن يفسده •او أساء لمن في الضوء أو حاول أن يحجبه فمن حق الظامىء أن يطلب الري وان يحطم الحاجز ومن حق المبصر أن يرى الضوء وأن يمنع الحاجب بل من حق الناس جميعا أن ينعموا بالحياة في فترتها السمحة •

وما الدين الا فطرة الله : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبدل لخلق الله ولذلك الدين القيم) • وأن يتمتعوا بالشمس والهواء والمـاء والغذاء في مودة وتعارف واخاء وخالق الشمس هو خالق الدين كلاهمـا

فطره رب العالمين وبارىء الأنام هو رب الاسلام كلاهمـا أثر للرحمـن الرحيم وليست حاجة الناس الى الدين بأقل من حاجاتهم الـى الشمس والهواء والماء والغذاء • ومن عظمة هذا الدين في فطرته ومن آياته فـي سماحته انه لا يكره احدا على الدخول فيه ولا يأمر أهله الا بالاحسـان لمخالفيه فمن حقه أن يقابل احسانه باحسان وفضله بشكر وامتنان وهـو يبيح لاتباعه أن يلتقوا مع أهل الكتاب في مصاهرة ونسب وللزوجة أن تبقى على دينها بل وان تذهب الى كنيستها او بيعتها في حرية كاملة وبر مكفول •

ونستطيع على ضوء هذا ان نقرر ان هذا الدين بحق هو دين الحرية والعدل والحق والاسلام •

٤ ـ والاسلام بعد تقريره لوحدة الدين يقرر وحدة الجنس والنسب فالناس اذا لم تسعهم أخوة الدين ـ وهي ارحب من الكون ـ وسعتهم أخوة الأصل الواحد ان هم عطفـوا الى الأصل والـدم • (كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي ولا لأسـود على احمر الا بالتقوى) •

(يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا) •

ومن حق هذه الأخوة عليهم أن يتعارفوا وان يتراحموا وان يتعاونوا فيما بينهم على ما فيه سعادتهم وأمنهم وسلامهم •

(يأيها الناس ان خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائـل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) •

٥ ـ اشتمل الاسلام على معاني للعدل والرحمة والايثار والاحسان• والعدل : عنده للعدو والصديق والقريب والبعيد •

« ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقـــرب للتقوى » .

« يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو علـى أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فـلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تولوا او تعرضوا فان الله كان كما تعلمون خبيرا » .

ولقد استطاع الاسلام بهديه أن يقيم في نفس المسلم ميزان العدل وهو يسمع الكلمة العربية « أنصر اخاك ظالما أو مظلوما » .

تزود في فم رسول الله (صلعم) فيتساءل في حكمة ورشد : يا رسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره ظالما ؟

فقال صلى الله عليه وسلم تمنعه من الظلم فذاك نصرك اياه مع انـه كان يستجيب لهذه الكلمة فيجاهليته ناصرا أخاه ظالما كانأو مظلوما بدافع العصبية الدموية والحمية الجاهلية . والرحمة . في الاسلام ليست لبني الانسان فحسب بل تعم جميع من في الأرض « الراحمون يرحمهم الرحمن» ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » .

قال قائل : يا رسول الله انا نرحم أزواجنا وذرياتنا ، فقال عليـه السلام : ما هذا اريد « انما الرحمة بالكافة » .

« لا تنزع الرحمة الا من شقي » وصدق الله العظيم « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » وقد ورد في الحديث الشريف « بينما رجـل يمشي بطريق اشتد عليه العطش . فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثم خرج فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش . فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب منالعطش مثل الذي بلغ بي فنزل البئر فملأ خرقكم فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول الله : وان لنا من البهائم أجرا ؟ قال : نعم في كل ذات كبد رطبة أجر » .

والايثار : يتم مع الضرورة والحاجة « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وفوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

« ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » .

وصفة الايثار خروج من حظوظ النفس الى حب الخير وعمل البر وبه يتم أقدس رباط وأكرم حب وخالقنا هو الرحمن الرحيم .

والاحسان : مبدأ الاسلام في كل شيء .

« ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا قتلتم فأحسنوا القتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح في ذبيحته » . « ان الله يحب المحسنين » . « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» . « انا لا نضيع أجر من أحسن عملا » .

« ان الله يحب من بني آدم اذا عمل عملا ان يتقنه » . « ان الله يأمر بالعدل والاحسان » .

ولا شك ان هذه المعاني الانسانية مجمع الناس على اله بار ، ومحبة صادقة وأمن موفور وبها تتحقق الوحدة الانسانية التي ينشدها الاسلام بعقائده الراسخة وآدابه الكاملة وفرائضه الهادفة .

٦ ـ والاسلام بفرائضه العملية من صلاة وزكاة وصيام وحج يحقق أكرم المثل التي تنشدها الانسانية ويقيم ابر الروابط التي تصون وحدتها وترعى أمتها وسلامتها .

فالصلاة فيه : باب لطهارة النفس مع طهارة الجسد .

باب لضبط الزمن بضوابط الذكر المتصل .

فلا يأتي على الانسان زمن ينسى فيه ربه وهو يقف بين يديه فرضا في اليوم خمس مرات . باب الربط الجماعة برباط الحب في الله على

مساواة كاملة لا يتميز الناس فيها بغنى أو جاه أو جنس او لون بل ينتظم الجميع صفا واحدا بعد أن دعا اليه أذان واحد ويتقدمهم امام واحد الى قبلة واحدة لعبادة آله واحد .

فالوحدة سارية في أعمال الصلاة كلها من أولها الى اخرها في طهرها وقيامها وركوعها وسجودها والخروج منها .

فلا ترى في الصلاة الواحدة راكعا وساجدا بل الكل راكع اذا ركع الامام والكل ساجد اذا سجد الامام وهم يؤذنون في الحركة والانتقال بهذه الكلمة النيرة الصادقة « الله أكبر » وتلك هي الدربة العملية لتحقيق المثل والفضائل واشاعة الخير والبر . ويقظة الضمير وخشية الله .

والزكاة في الاسلام : باب لطهر المال بعد طهر النفس ، واقامة التكافل واشاعة الحب وهي شارة الاعلان عن الثقة الكاملة في الله والاعتراف بفضله كما انها برهان الايمان لتعظ الذي يدرك ان المال غاد ورائح وما عند الله خير وأبقى ولقاء الله حتم واقع . « ومن شكر فانما يشكر لنفسه . ومن كفر فان ربي غني كريم » .

والصوم : وهو يفرض في شهر واحد « شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن » أكرم باب لتربية الارادة والعزيمة والخروج من شهوات النفس وحظوظها لتظفر بالتقوى التي هي جماع الفضائل النفسية كلها وتلك غايته « لعلكم تتقون » فهو يجمع الناس على وحدة الظهر والامساك عن الاثم والتجرد للخالق والبر بالمخلوق .

والحج : باب مؤتمر انساني عام ، عند الحرم الآمن ، والبيت العتيق، تلبية لنداء الله واستجابة لأمره وتحقيقا للمنافع المشتركة مؤتمر يتم فرضا

في كل عام تلتقي فيه الوفود من كل جهة ومن كل مكان فتصهر في بوتقة واحدة وتتجانس بصبغة واحدة جنسية الايمان بالله والحب فيه طارحة وراءها تباين الوطن واختلاف الجنس أو اللون محققة اكرم مساواة وأصدق تجرد وأكرم منفعة في بلد آمنه رباني :

« واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا » بلد يجد فيه الطير أمنه وسلامته أمنا يجد الانسان فيه راحته وطمأنينته ؟ لا مكان في هذا المؤتمر للشهيد ، الكذوب ، ولا مكان للفرقة أو الاثم أو الفسوق ، لا جدال ففي الحج لا تنابز ولا شحناء لا حسد ولا بغضاء بل تكريم لحرية الانسان وحقه في الحياة وتحريم لماله ودمه وعرضه وتكريم للانسانية ممثلة في وفودها التي تعود مزودة بمبادىء الخير والرشد وحملة امانة الهدى والحق ناشرة في اوطانها اسباب المودة والرحمة وهكذا نجد الوحدة الانسانية في فرائض الاسلام سارية سريان الماء في اوراق الاشجار قائمة قيام الاعصاب في جسم الانسان الحي كما نجد كلا من هذه الفرائض يحمل خصائص الدين كله كما تحمل الحبة الطيبة خصائص الشجرة المباركة وتؤتي ثمارها الطيبة اذا غرست في التربة الصالحة .

٧ ــ والاسلام كما شرع فرائض العبادات ليحقق بها عبادة الرحمن وطهارة الانسان فقد طالب بالعمل في كل ميدان وهو يقرن العمل الصالح دائما بالايمان .

« ليس الايمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقة العمل وان قوما الهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

« ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجزيه ولا يجد

له من دون الله وليا ولا نصيراً ومن يعمل من الصالحات من ذكر وأنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » .

وعمر بن الخطاب يقول : « لو ان الاعاجم جاءت بالاعمال وجئنا بلا عمل لكانوا أحق بمحمد منا يوم القيامة » .

ان الاسلام لا يعرف التواكل أو القعود ولا يفرق بين دين ودنيا فالعمل لكليهما عبادة يتقرب بها الى الله مع حسن النية وشرف القصد .

« يأيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ذلك خير لكم ان كنتم تعلمون فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » .

ومن اجل هذا ترى الرجل يسأل على عهد الرسول وقد جلس في المسجد في غير اوقات الصلاة :

من يعولك ؟ أخوك أعبد منك

« يا فاطمة بنت محمد ، اعملي لا أغنى عنك من الله شيئا » .

لا تواكل ولا قعود بل حركة بل وسعي وانطلاق . لا مكان للفقر أو الجهل او المرض في دين يقوم على الايمان والعمل الصالح والرسول يستعيذ من الفقر كما تستعيد من الكفر ولم يرض لاصحابه ان يعملوا في تجهيز الطعام .

وما أيسره ــ هذا يذبح الشاة وذاك يسلخها ، لم يرض ان يقعد وهم يعملون بل قال عليه السلام : وعلي جمع الحطب .

الاسلام يفرض العمل فرضا ولا يعد الايمان ايمانا بدون عمل ، يوم المؤمن فيه يبدأ من مطلع الفجر الصادق وظهور النجم المتألق يفتدي يومه

بذكر ربه وعبادة خالقه ثم فيطلق في الارض يمشي في مناكبها ويبتغي من فضل الله .

والاسلام قد رسم حدودا واضحة للعمل المشروع كما وضع منهجا متميزا للمعاملة بين الناس وبين الحلال من الحرام والنافع من الضار وامام حدوده ومعاملته على رعاية المصلحة لنا من رفـــع الضرر « لا ضرر ولا أضرار » وجعل شؤون الناس كلها تقوم على قواعد الصدق والحق والعدالة والأمانة كما اقام نظامه كله على اساس الاعتراف بالله واليوم الأخر لهذا كان قانون فرض الاخذ والعطاء والبيع والشراء وما يشمل دنيا النـــاس من تعامل موضع التقديس لا فرض صنع الله وكان تحقيقه والتمسك به عبادة يتقرب بها الى الله . وكانت شرائعه محققة لصيانة النفس والعقـــل والمال والعرض والنسلي وتلك غاية ما ترمي اليه اوفى الشرائع وأبرها بدنيا الناس .

٨ ــ والاسلام لا يعد الانسان لهذه الدار وحدها . بل هذه الدار مقدمة لدار أخرى يجني فيها نتيجة سعيه وعملـــه وتلك عقيدته الخالـــدة الايمان بالله واليوم الآخر هو اليوم الذي يجزى فيه المحسن واحسانـــه والمسيء باساءته .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

« وتضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كـــان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » وهو بهذا يحقق أمورا ثلاثة :

أولها : العناية بحاضر الانسان ومستقبله « وان الدار الاخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »

ثانيها : تهذيب الاولى باعتراف للغائية ، والذين يؤتون ما أتـوا وقلوبهم وجلة انهم الى ربهم راجعون اولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون .

ثالثها : قيام الاخرى على أساس العمل الصالح في الاولى « اليـد يصعد الكلم الطيب لي امل فيها وتقيم السلم المنشود الذي ينبع من قلب الفرد وضميره وتقوم عليه حراسة ذاتية الا الايمان بأن وراء الدار دارا وبعد العمل جزءا من ورائه جنة أو نار .

وأي نظام يقصر عن هذه الغاية غاية « الايمان بالله واليوم الاخر » انما يقيم في دنيا الناس وهم يشعرون انها دنيا فحسب ـ تنافسا مسعورا يقترن بأنانية الجشع والشهوة في التغلب وأثره الفكائر .

ولكن الاسلام يقيم نظامه كله بعد الايمان بالله على الاعتراف باليوم الآخر وجعل هذا الاعتراف عقيدة يدين بها المسلم وتدور شؤونه عليها . وهي عقيدة يفيضها على الدنيا بالبر وتجعل التنافس بينهم على الخيـر وتكاد دائرة السلام بين الناس تنحصر في هذه العقيدة وحدها وهي اذ لتحضر في هذه العقيدة انما تتسع لأمن الكون وسلام العالمين .

٩ ــ والاسلام قد طلب الايمان به عن طريق النظر والتأمل والفكـر وهذه وحدها تتيح للاجيال كلها ان في وهي تتوافد على هذا الكون فنرى من آيات الله ما ترى ثم ترحل تاركة وراءها نتيجة ليجب وأثر السعي حاملة نضارة الايمان وطهر اليقين ولعمري ان الاسلام بهذه وحدها جدير ان يكون خاتم الرسالات وان تكون دعوته للعالمين .

على ضوء ما قدم يمكننا ان نقول عن الدعوة الاسلامية : انها دعـوة لصيانة الانسان وتقديس كرامته وهو يؤمن بالله الواحد « رب العالمين » دعوة الى الاخوة الانسانية العامة بلا تفرقة بسبب الجنس أو اللـون او النسب دعوة لاقرار الحق والعدل واشاعة الخير والبر .

دعوة للنظر في الكون والانتفاع بما فيه والاقرار بموجده دعوة للسلم في بر صورة وأكرم مثل .

دعوة للحب والايثار والشفقة والرحمة ومكارم الاخلاق .

دعوة لتهذيب الفرد وتكامل الجماعة .

دعوة لانسان الانسان مع الكون بارادته وعمله مع اتساقه بفطرته وطبيعته وآيات الله في الكون في خلقه تبصر وتذكر وتهدي وترشد .

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والارض مددناها وألقينا فيها رواسي وابتنينا فيها من كل زوج بهيج يقصره وذكرى لكل عبد منيب .

وهذه المعاني التي نستقي من بين مضمون جوهر الدعوة الاسلامية تجعلنا نلقي نظرة على النبع الذي تنطلق منه حركة المسلمين حين تنزاح بينهم الأخذ النقي من هذا الدين حاجتهم وادوات تقدمهم وازدهار حياتهم .

الايديولوجية في الدعوة الاسلامية

لا يقوم وجود الاسلام حين يكون « الا معنى الايمان » بالله ايمانا يجعل المسلم في حالة يقين مطلق « بالوحدانية » الخالصة التي يترجم بها المسلم وجوده في وحدة أجزاء هذا الكون المتكامل المتماسك المطرد السنين المحكم القوانين . وهذا الايمان ليس معنى وجدانيا مقطر ، أي ليس الايمان بالله والذي هو أساس وجوده حركة الانطلاق والانفتاح الاسلامي قولا يعلن ولا شهادة ينطق بها اللسان وحده ، والآيات من القرآن تتلى في مقام الارتباط بالاسلام [1] . وهو كذلك ليس نصائح يوردها الناصح

---

(١) دكتور محمد البهي ، في كتابه ، الايمان الصادر عن مجمع البحوث الاسلامية والكتاب الرابع عام ٦٩ ما بين صفحات ٩ــ٣٠ (١) الحجرات ١٥ .

لغيره ، ولا معرفة بالدين تلقن لمن لا يعرفها ، ولا وظيفة خاصة يتعيش بها محترف : وقالت الاعراب آمنا :

قالت الاعراب ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم — ولم يكن منهم آنذاك الا قول رددوه يعبر عن التصديق برسالته ، دون أن يصحب قولهم ما يدل على أن الايمان أخذ من وجدانهم ، ما يجعلهم يتأثرون به في مواقعهم ازاء المسلمين من أعدائهم منهم ، ودون ان يكون له قرار في أعماق نفوسهم ، بحيث تنفعل بمبادئه وتأخذ سبيل توجيهه في الحياة الخاصة والعامة على السواء .

وتصحيحا لوضع هؤلاء الاعراب من اعلانهم التصديق برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم دون ما يدل على شيء اخر وراء هذا الاعلان فيما اعلنوا ، وتأثرهم بما أشهروا تصديقهم به .. جاء رد القرآن الكريم على قولهم موحى به الى الرسول الكريم : (قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : آ منا ، ولما يدخل الايمان في قلوبكم) .

أي أنكم لم تؤمنوا حقيقة بالاسلام ولم يستقر الايمان بعد في قلوبكم ، وكل ما في الامر أن أعلنتم ، فحسب ، رضاكم بالاسلام أمام الملأ ، أما خوفا ووقاية أو طمعا في دنيا . فان قلتم : أنكم أعلنتم الاسلام دنياكم كنتم صادقين فيما تقولون ، ولكن قولكم : انكم آمنتم به : غير صحيح، لان الايمان له مقتضيات تستوجب التضحية : اما بالنفس او بالمال أو بهما معا ، وكذلك بالولد ان كان هناك ولد ، ولم يكن الايمان لحظة ما سبيلا الى النفع والمغنم ، ولا طريقا الى الحياة ومتعها :

انما المؤمنون . الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وأولئك هم الصادقون [1] ، ذلك كان رد

---

(١) الحجرات : ١٤ .

القرآن على من ادعى الايمان دون ان يكون مؤمنا في حقيقة الامر ، وهو رد يجعل من الايمان رسالة وهدفا ، وليس وسيلة وطريقة الى غاية اخرى ورسالته رسالة شاقة، لانها تقوم على التنازل عن المال الذي تسعى النفوس عادةالى جمعه ، وقد تسعى الى اكتنازه ، كما تقوم على ايثار الموت على الحياة نفسها ، وهي أعز ما يحرص الانسان عليه واكثر ما يجبن بسببه •

أما هدفه فطريقه طويل ، ان قدر الانسان البقاء على قيد الحياة، لان سبيل الله الذي يجب على المؤمن الجهاد من اجله •• ليست سبيلا خالية من الصعاب والمحن والافات ، بل تكاد تكون سبيل المحن والازمات في الحياة ، دون أن تكون يوما سبيلا الى الرخاء والاستمتاع •

« لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور [1] » •

ولم تكن هذه الظاهرة ــ وهي ظاهرة الابتلاء في الاموال والانفس وتلقي الايذاء والاضرار من اعداء الله بسبب الايمان به ــ ظاهرة خاصة بالمؤمنين الأول ، وفي مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم •وانما هي ظاهرة تلازم الايمان بالله أينما يكن ومتى يوجد •

ومرجع الامر في قضية الايمان بالله بعد ذلك ــ في جده وهزله على الرغم من المظاهر التي تؤيد هذا او ذاك ــ يعود الى الله على نحو ما تعقب هذه الآيات الكريمة : « قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات وما في الارض والله بكل شيء عليم » [1] •

وجعل القرآن مرد الايمان بالله في النهاية الى علم الله •• كي يحرص

---

(١) آل عمران : ١٨٦ .

(٢) الحجرات : ١٦

المؤمن على الاخلاص في ايمانه وفي قصده الى وجه الله وحده . وهنا يثمر ايمانه ، وتتحقق نتائجه العاجلة والآجلة .

أما نتائجه العاجلة في الدنيا فهي : العزة « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يدينونني [1] .

وليس من بينها قطعا الاستمتاع بجاه الدنيا وزينتها . وأما في الآخرة فهي رضا الله والقرب منه :

على الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية. جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الانهار خالدين فيها أبدا . رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وذلك لمن خشي ربه [2] » .

★ ★ ★

من يحرص على الايمان بالله لا يطلب الدنيا ولا ينتظر يسر الحياة. ولكنه ينتظر قطعا تحقيق ما وعد الله به عبـاده المؤمنين من الاستخلاف في الارض ورضوانه في الاخرة . وهم أولئكم الذين آمنوا ولم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله .

هذا وان المؤمن بالله مسؤول عن ايمانه كما هو مسؤول عن حياته. وربما تكون مسؤوليته ازاء الايمان أقوى من مسؤوليته أمام نفسه لان الفروض في المؤمن أن يجاهد في سبيل الله والايمان بماله ، ونفسه ،، وولده . ومعنى ذلك : أنه يجب أن يؤثر الدعوة لدين الله قائمة عزيزة الجانب على نفسه وكل ما له في هذه الحياة .

فان تعرض ايمانه بالله لأزمة في مجتمع يعيش فيه ، فلا يدع نفسه تغلب على امرها ، وعلى ما يصاحبها من ايمان ، بل يجب عليه أن يسعى

---

(١) البينه ٧ ــ ٨

(٢) العنكبوت : ٦ ــ ٥٧ .

لينجو بايمانه من أن تنال هذه الأزمة منه . اذ الدعوة في سبيل الله ليست لكسب مؤمنين جدد ، بقدر ما هي تثبيت ايمان المؤمنين بالله في مواجهة الشدائد والازمات . « يا عبادي الذين آمنوا : ان أرضي واسعة فاياي فاعبدون ، كل نفس ذائقة الموت ، ثم الينا ترجعون » [1] فالقرآن الكريم يدعو المؤمن ليحافظ على ايمانه ، ولو كانت الهجرة سبيل ذلك ، ويؤثر الهجرة بايمانه على تشبثه هو بالاقامة في مكان معين ، قد يضعف ايمانه بالله أو يعرضه لشدة تصيب منه . ومنطق القرآن في هذا هو : انالارض كلها لله وانها واسعة لا تضيق بمؤمن . وفوق ذلك ، فكل نفس لا بد أن تموت في هذا المكان من أرض الله أو ذاك ، فليس هناك مكان خلود على هذه الارض يمكن أن تتمسك بالبقاء فيه طلبا للنجاة على حساب ايمانها بالله . ثم اخيرا هذه الدنيا ليست المرحلة الاولى والاخيرة في حياة الانسان ومن اجل ذلك لا تستحق الحرص عليها وانما بعدها حياة اخرى أبدية يعيشها الانسان ، عيشة هادئة مترفة ، او عيشة مملوءة بالعذاب والشقاء . والعمر لهذه أو تلك هو الايمان بالله والعمل القائم عليه طوال المرحلة الاولى في حياة الانسان ، لمن يريد النعيم ، أو تحدي هذا الايمان والانحراف عن استقامة العمل لمن يهمه شأن الاخرة على أن الايمان بالله اذا تعرض لأزمة أو شدة في شخص مؤمن ما ، فان تلك الأزمة أو هذه الشدة ستزول حتما في وقت ما ، بعد ذلك . لأن الله وعد بهذا اذ يقول :

« ان الذين يعادون الله ورسوله أولئك في الأذلين كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوي عزيز » [1] .

فالذين يعادون الله ورسوله هم أولئك الذين يهزأون بالقيم والمبادىء الدينية ، ويتحدون الايمان بالله كمصدر هداية وتوجيه سليم للانسان

---

(1) المجادلة : ٢٠ ــ ٢١ .

بابعاد هذا الايمان من حياة الانسان والحكم عليه بالعزلة عن أي رافد من روافد التنوير والتبصير في المجتمع ، وقد يكون من ذلك بمحاولة ايجاد قيم أخرى تنتظم حياة الانسان وسلوكه ، بدلا منه ، صنعها الانسان واختارها لتمكين شأنه على الارض •

هؤلاء أكد الله سبحانه وتعالى فيما تقصه الاية السابقة :

أولا ـ أنهم سيصيرون الى الذل والهوان حتما في نهاية المطاف •

ثانيا ـ ان عاقبتهم لا مفر منها هي الهزيمة ، لان الله ـ تعالى ـ بقوته وعزته هو الذي سيواجههم في تحديهم •

واذا نجا المؤمن بايمانه ، ولو بالهجرة به في أرض الله الواسعة فانه يكون قد كرم نفسه كانسان ، لانه لم يفرط عندئذ فيما أؤتمن عليه ، وهو ايمانه •

وأيضا أولا له ، لأن عاقبة أمر التحدي لدين الله والايمان به هي المذلة والهوان والغلبة والهزيمة لأولئكم الذين تحدونه •

وبذلك يكون قد حافظ على انسانيته ، كما سيشارك في عزة الايمان بتأييد الله له • والانسان الذي يعيش للانسانية لو يستعرض ألوان الازمات والشدائد التي تقوم في وجهه قصداً بسبب ايمانه ، ثم يصبر عليها ويحاول انقاذ هذا الايمان بالهجرة من مكان الى مكان ••• سوف يعتز بنفسه ويفخر طول حياته بما قام به في سبيل أعز شيء لديه وسوف يعيش على ذكريات كلها مجد ونور وبطولة ، لانه لم يهن ولم يضعف في أوقات العسر والمحن ، وهي الأوقات التي ظهر فيها الباطل في صورة العملاق ، واشتد فيها التحدي في صورة الطغيان فقد حمل الحق ودافع عنه وعاش به • وقد كان له منه نور الهداية عندما يتكاثف الظلام ، وله منه دوما باعث الحياة وهدفها •

ان الايمان هو الهداية والامل ، وهو الحياة لمن عرفها • وان الاسلام يكفل حرية الفرد فيما يعتقد ، لأن الاعتقاد والايمان عن اكراه عديم الجدوى في آثاره ولكن لأن الاكراه على الايمان قبل ذلك يضاد طبيعة الحياة التي يعيشها الانسان على الارض ، كما يضاد طبيعة الانسان ذاتها •

يضاد طبيعة الحياة الانسانية على الارض كما أرادها الله ، لان الله أراد لهذه الحياة ان تكون مجالا للصراع بين الحق والباطل الى أن تنتهي وتتحول حياة الانسان الى مرحلتها الثانية • وهي مرحلة ما يسمى « بالآخرة » •

ان الانسان وجد على هذه الارض ويوجد معه في الوقت نفسه عليها أمران آخران : وجدت رسالة الله التي انتهى أمرها من آدم الى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وهي تمثل الحق أو الهداية • ووجدت كذلك غواية الشيطان — وهي بارادة الله ايضا — ممثلة للباطل أو للضلال •

« واذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ؟ » قال أرئتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن (استأصلن) ذريته الا قليلا •

قال (الله) اذهب

فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا [١] •

فقد أذن الله اذا لابليس — وهو ممثل الباطل والضلال — في مباشرة غوايته وفتنة الناس وتزيينه لهم المنحرف من السبل ، كما أرجأه في مباشرة نشاطه الهدام الى يوم القيامة •• أي الى بدء المرحلة الثانية في حياة الانسان ، وهي حياته الاخيرة •

---

(١) الاسراء ٦١ — ٦٢ .

ورسالة الرسل بالحق والهداية أيضا وان انتهى أمر الانسان بشأنها من الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الا ان الدعوة اليها باقية بقاء الناس في حياتهم الاولى على هذه الارض •

« ولكل منكم أمته يدعو الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » [1] •

ووجود الحق والباطل معا على هذه الارض الى وقت قيام الساعة يفرض اذن حرية الفرد فيما يؤمن به اليوم وغدا • والا لو أمن النـــاس جميعا بالحق وأتبعوا الهداية وأعرضوا عن الباطل وغواية الشيطان وجب أن تنتهي حياة الناس على هذه الارض •

ان شاء الله انهاء هذا الصراع تنتهي الحياة الارضية كلها ، وهــذا ما تعطيه الآيات الكريمة في قوله تعالى : « ولو شاء ربك لآمن من فـــي الارض كلهم جميعا » • وعندئذ تنتهي الدنيا ، ولكنه لم يشأ الله وأذن لا يزالون مختلفين •

وأيضا يضاد الاكراه على الايمان طبيعة الانسان الخاصة ، لأن هــذه الطبيعة كرمت في خلقها وتصويرها : وصوركم فأحسن صوركم ، من الله فزودها بخصيصه الادراك اولشعور : « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاجا نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » [2] • وأراك الانسان في حكمه على ما يرى أو يسمع أو يفكر يقوم على الترجيح بين أشياء أو أطراف ويختار ما يرجح لديه بأنه أصوب أو أحسن •

---

(1) آل عمــران ١٠٤
(٢) الانســـان ٢ •

فلو أكره الانسان على الايمان بشيء ما لكان فيهذا الاكراهمصادرة لطبيعته ولتعارض ذلك أيضا مع الخصيصة والميزة التي حباه بها الله في خلقه وتصويره وهي ميزة الادراك والترجيح وتعبير القرآن في الخطاب الموجه الى الرسول صلى الله عليه وسلم يقوله في الآية السابقة : أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين بهذه الصورة الاتكالية ... لا يوضح تعجبا واستغرابا أو انكارا فحسب المحاولة والاكراه على الايمان ، بل المحاولة أنه يدور بخلد انسان ما ، مهما قربت صلته بالله لأن الله ذاته لا يريد ايمان جميع الناس على هذه الارض ، فارادته نافذة وفوق كل ارادة البشر .

وهنا ظاهرة الاختيار والمشيئة في الاعتقاد والايمان ظاهرة انسانية طبيعية ، وظاهرة الهية كونية ومحاولة أي انسان صب الناس جميعا في قالب واحد لا تدل في ذاتها على استحالة وقوعها فحسب ، بل تدل في الوقت نفسه على عدم استيعابه الخصائص البشرية في طبيعة الفرد وفي تغيير المجتمع ، وعلى شغل فراغ الناس بما لا جدوى في وقوعه .

والاكراه بوسيلة اخرى ، ومهما تعددت صوره فهو مع ذلك محاولة كريهة لا انسانية ، وتقدم المجتمعات في العلم وفي تطبيق العلم مع الاسف كان سبيلا الى التوسع في صور الاكراه على الايمان ، بدلا من القضاء عليه ، مما يدل على حاجتها لكي تحافظ على المستوى الانساني الىالروحية قبل حاجتها الى العلم وتطبيقه .

والقرآن الكريم اذن عندما يؤكد حرية الفرد في اعتقاده بايمانه على الصورة التي برزت فيها الآية القرآنية السابقة : « ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » [1].

---

(١) يونس ٩٩ .

يريد أن يعلم الامم والشعوب قيادتها وتوجيهها احترام الانسان وتكريمه، كما هو مكرم في طبيعته وخلقه ، واحترام القيادة والتوجيه بالبقاء في دائرة الممكن ، وعدم تجاوزه الى ما يصطدم بالقوانين الفطرية والاجتماعية ، وبتلك الاخرى التي تنظم الوجود الارضي للانسان .

ان ارادة الله في خلقه تفلح معها ملاءمة الانسان نفسه فاذا لاءم نفسه معها حقق دوره الاخلاقي في حياته ، ولكن لا ينجح التصادم معها بحال ، اذا من يصطدم معها لا يخسر المحاولة فقط ،وانما يرتكب أيضا الاثم والخطأ في القيام بها ثم في النهاية يحطم نفسه ، بينما تبقى كلمة الله هي العليا .

والان لم يبق بعد الاكراه في الاعتقاد الا الاقتناع به بالاسلوب الانساني المهذب الكريم وذلك ما يدعو اليه الاسلام : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » [1] .

الابعاد الحضارية في الدعوة الاسلامية

الحركة الايجابية في هذا الدين تجاه التخطيط لدعوى الحياة فيه تحمل على المدى الطويل آثار الروح التي تطلق بها هذا الدين في بيئته الاولى ، ذلك أنه حين جاء الاسلام في مكة واجه العالم المعقد كله ضرورة بلا اختيار فأخذ يحل مشكلاته ويفتي في قضاياه في كل ساعةوعند كل حادثة لأنه [2] :

عالم لا يستقر ولا يهدأ ولا ينام ، ومن ثم طلع الاسلام من القصة ولم يجىء صاعدا من السفح ، وجاء في عالم معقد متطور حي متحرك ، وجاء

---

(١) النحل : ٢٥ .

(٢) الاستاذ الكبير عبد العزيز سيد الاهل في كتابه من حضارة الاسلام صفحات ١٢ ـ ١٥ صادر عن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية عام ١٩٦٦ القاهرة .

وسط العقد المشتبكة ولم يجيء من البداءة ولا من البداوة ، فحق له أن يكون دين حضارة جاء فيها وجاء بها وجاء من أجلها ٠

واجه الكبراء أقسى مواجهة لينزلهم من طبقتهم ويحطم من جبروتهم وساوى بين الاجناس وبين الانواع فقد كانت مكة بل كان الحجاز كلـه مهبط من يفر من الروم أو الفرس أو الحبشة ليجد في الحجـاز حريتـه ، ووضع الاحكام والآداب لاحياء الموؤدة واطلاق العبيد وحدد الاوقـات والمواسم لاداء الفروض ٠

واجه السمسرة والمزايدة والوساطة والاحتكار وبيع الغائب والتطفيف وكل صور المعاملات الممكنة ، الطبيعية والمصطنعة ،وأعد لكل منها نظاما وحلولا ، وميز بين حلالها وحرامها وصالحها وباطلها ٠ وقد اندفع الرسول نفسه الى أبي جهل ــ وهو خصمه ــ يطلب اليه الوفاء بدين أعرابي كـان أبو جهل يماطله فيه ٠ ونادى في أسواق مكة بتوضيح عيوب السلع ووفاء الاثمان والميزان ، وحتى لا يحدث زيغ أو نكران فقد فرض الاسلام أن يكون كل دين مكتوبا وعليه شهود ، مهما كان صغيرا أو كبيرا ، ولا يأتي كاتب أن يكتب ، كما علمه الله فليكتب ٠

ومكث صاحب الدعوة ثلاثة وعشرين عاما يواجه ــ في المدينة ومكة ــ هذا المجتمع المعقد ويحل مشاكله ساعة فساعة وحادثة حادثة ، بحيث لا يكرر العودة الى مسألة مرت الا اذا بدأ فيها تعقد أكثر أو كان حلها ناقصا غير حاسم ، فنما نموا طبيعيا لمقتضى الاحوال المحلية به ٠ وبعد ثلاثة وعشرين عاما تم التشريع الاساسي الذي جاء به ، وقيل للرسول الكريم حين ذاك اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ٠

وكان من حقه أن يتم ، لان دقائق امور الحياة الفردية والجماعيـة ــ لمدة ربع قرن ــ وفي جيل ناهض ثائر دائم التحول والتقدم في حيـاة متشابكة معقدة متحاربة ــ كافية لان تكون مثلا يمر في الاحيان الاخـرى

من فرديات وجماعات ، ولأي مجتمع حي متحرك دائم التحول والتقدم •

وهكذا بنيت الديانة الاسلامية على الحوادث اليومية ونشأت قوانينها عنها ولم تجيء تعاليم منطقية عن هذه الحوادث ، فصحت دعواها ــ من بين الديانات كلها ــ بأنها كانت حلا لحوادث الأزمنة ــ التي لا بد أن تكون متشابهة مهما تكررت ــ وليست غريبة عن أي زمن منها اذ هي الاصل في تلك الحلول •

فقوانين الاسلام التي حكمت ذلك كله جاءت مجموعة عالمية فذة لا مثيل لها فكان من حقها أن تفرض صلاحيتها لكل العصور غير متجاوزة عن أي شيء ، حتى عمليات الحروب وحيل الأقوياء وأحداث القسر والادغام•

واسلام سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي كان كل ذلك رمزا صارخا على اقبال مختلف الافكار في الامم الى الدين الجديد وتقبلها له • ثم اتسع الرمز فأقبل على الاسلام أبيضها وأسودها وأصفرها •وارتفع صوت الحبشي بالآذان والدعوة للصلات في الدين الجديد قبل أي عربي قريب •

وسلك الاسلام في دعوته طريقا واضحة مفهومة ، وقد اشترط صاحب الدعوة على الدعاة والمعلمين أن يخاطبوا الناس على قد عقولهم ، وكان هو ذاته يتحول عن ألفاظ لغة القرشية الى ألفاظ القبائل ولغاتها ليتضح لديها المفهوم ، اذ مخاطبة الناس على قدر عقولهم تحتاج معرفة ألفاظهم ، وهو ما جرى عليه رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ في مخاطبة القبائل • وذلك تمثل مما يقوله أهل البلاغة من الايجاز أو الاطناب ، اذا ألفاظ هي الاساس ، ولا فائدة في اطناب أو ايجاز ما لم يكن الكلام بألفاظ المخاطبين •

فقول رسول الله « خاطبوا الناس على قدر عقولهم ، معناه مخاطبة

كل فريق من الناس بما يفهمونه وذلك بتجاوز الايجاز والاطناب الى كـل صنوف الكلام لأن الافهام يشتمل على أنواع الكلام جميعها ، ومتى لم يكن الكلام مفهوما واضح المعاني لم يكن محسوبا في جملة البيان .

فأفضل اذن في الافهام انما هو كشف المعاني للمخاطب وايضاحها له ، وسواء أخوطبت به الخاصة أم خوطبت به العامة : فأمر النبي ــ صلى الله عليه وسلم يتعلق بما يعرفونه من الالفاظ ويعتادونه بينهم من الكلام .

والكتاب الذي كتبه الى كسرى يدعوه فيه الى الاسلام وكذلك كل الكتب المشابهة كانت سهلة موجزة اختيرت لها الالفاظ العامة السائرة التي يسهل ترجمتها وفهمها أما الكتاب الذي أرسله النبي ــ صلـى الله عليـه وسلم ــ الى وائل بن حجر ــ مثلا ــ فقد امتلأ بألفاظ عربية غريبة، ولكنها مفهومة قريبة واضحة لتلك القبيلة ، وغيرها ــ مهما كان سهلا في نظرها ــ كان يكون غريبا عليه .

ثم ما كان من الكلام النبي أو اشارته في حاجة الى ايضاح وتفسـير ــ من غير تعنت من سائل ــ أوضحه وفسره للسائلين ، لأنه يريد أن يبلغ ، ولا بلاغ لمن لم يفهم التكليف .

ومن حيث كانت الدعوة الاسلامية كلها واضحة بينة الوضوح ــ لـم تشترط المبادىء ــ والفلسفات على نفسها الوضوح ولم تسع اليه فبـات من غير الممكن الادعاء بأن كل ما فيها سليم يطمئن النفوس ، وقد جاء منها ما هو غير واضح ولا مفهوم، ومن ذا الذي يحجر عليه اذا ادعى أنها لـم تكن مفهومة أيضا ولا واضحة في نفوس أصحابها ؟

وهذا كلام نحس أنه يوافق بعض من يظن كـل الخير في عقـول المتازين ، ولكنه لا يستطيع ان يلومنا انسان يرى معنا أن آراء الاديـان

والمبادىء انما هي موضوعة للناس ـ فوجب أن تكون واضحة مفهومة لديهم مهما كان الادعاء بأنها آراء معمقة ومبنية على العلم ، اذ حين تخرج هذه الافكار الى الناس يجب أن تسلك سبيل الوضوح ، كما يجب أن يكون العلم الذي خلقها قادرا على أن يبرزها واضحة ظاهرة كشمس النهار تضيء للأبصار بأيسر ما تستطيع أن تتحمله الابصار •

ولهذا الطبع الصافي الذي يؤثر الوضوح ويفضله عادى المسلمون الاولون التفلسف ، بمعنى الجري وراء النظريات ، لأن الجري وراءها يبتعد بالانسان عن نفسه وذاته ، بينما عنى الاسلام دائما بألا يخرج الانسان عن جوهره ولا يبتعد به عن الانتفاع بتجاربه وآرائه •

وقد عادى الاسلام الجدل العنيف ، ودار وراءه يمنعه في المجتمعات الصغرى حتى بين اثنين ، ويحرمه في المجتمعات الكبرى كموسم الحج مخافة عواقب الخلاف • وليس معنى ذلك أنه أخمد حركة العلم والمناظرة بل أشعلها من حيث أبطل الجدل العنيف لانه يحبطها ويخرج بها الى الحيرة والخصومة والى اللبس والابهام •

وما وصلة وضوح الافكار ومخاطبة الناس على قدر عقولهم بالحضارة ؟

ان وضوح الفكرة دليل على انها قد استوت ونضجت في الفكر ، كالطعام والثمرة اذا نضجا وهي آخر مراحل التطور ولا مرحلة بعدها الا الانتفاع • فوضوح الفكرة اذن قمة في تطورها أو حضارتها ، وليس يواجه المعقد حتى ينحل ويتضح بغير الفكرة الواضحة ، وابلاغها للناس على قدر عقولهم دليل مقدرة الفكرة على أن تأخذ أشكالا متعددة تناسب عقول المخاطبين ، والمقدرة حضارة • كما ان العناية بصنوف المخاطبين فيها دليل

حضاري أيضا • وذلك يتمثل في جمع الناس على فكرة واحدة مع اختلاف عقولهم ليكونوا سواسية فيه ، والتسوية بين الناس في الفهم مرحلة عليا من مطالب الحضارة ، بل من آمالها •

ولم تزل الافكار الاسلامية واضحة الى اليوم والى الابد ، بل هي وحدها من بين الأدباء جميعا لم تزل واضحة قوية الاسناد ثابتة خطى التاريخ ، وأدوار سيرها ما زال ماثلا أمام العيون وتاريخ رسول المسلمين مقيد مدون حرفا حرفا ليس فيه غائب ولا غامض ، في سيرة طيبة طاهرة تهز كل من يقرأها ويطلع عليها ، وهي كفيلة متى وجدت القادة المقتحمين أن تقرع الأذان وتخضع النفوس •

والدعوة الى عقيدة التوحيد في الاسلام موجبة ان يترك الناس آلهتهم المتفرقة الى اله واحد لا رب سواه ولا سيد غيره •

فهرست

المبحث الرابع

المبحث الخامس

الثمن : ٨٥٠ ق. ل. او ما يـ